نظام الحكم فى الإسلام

تأليف

الشيخ منصور الرفاعى عبيد
وكيل وزارة الأوقاف الأسبق
للمساجد وشئون القرآن

الدار الثقافية للنشر

عنوان الكتاب : نظام الحكم فى الإسلام
اسم المؤلف : منصور الرفاعى عبيد
17 × 24 سم . 184 ص .
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : 2001/5090
اسم الناشر : الدار الثقافية للنشر

Nezam Alhokm
Mansour Obied
17 x 24 cm. 184 p.
ISBN: 977 - 339 - 044 - 6

الطبعة الأولى
1422 هـ/ 2001 م

الدار الثقافية للنشر – القاهرة
ص.ب 134 بانوراما اكتوبر 11811 – تليفاكس 4172769 - 4035694
إدارة المبيعات : 20123125081+ - 20101161927+
Email: sales @thakafia.com

الإهـــداء

إلى كل المسلمين .. حكامًا ومحكومين .. أقدم هذا العمل .. ليعرف كل واحد حـقه من خلال هدى الإسلام وتوجـيهاته .. فالإسـلام دين الله الخالد وكلمتـه السارية فى الوجـود .. ونناشد المسلـمين أن تعالوا إلى كلمـة سواء لنحمى الحق بالحق والعدل والإحسان والسلام.

منصور



مقدمـــــة

الحمـد لله . . فاتحة كل خيـر . . وتمام كل نعمة . . وأصلى وأسلم عـلى سيدنا محـمد وعلى آل بيته الأطهار وصحبه الكرام . .

وبعـد . .

فـإن رسالة الإسـلام رسـالة عـامة لكل زمـان ومكان . . وهى رسـالة للثـقلين الإنس والجن . . فللإسلام خـاصية الشمـول والإحاطة والدوام والاستمـرار . . فسيدنا محـمد هو خاتم الأنبـياء فليس هناك نبى يـأتى بعده . . والقرآن الكـريم خاتم الكتب السمـاوية فليس هناك كتـاب ينزل بعده من السـماء . . لهذا كـان القرآن الكريم دستـورًا لأمة هى ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ إنها الأمة المؤمنة التى يحكمها الضمير الحى وأحكام القرآن والسنة . . ونبيُّها ﷺ . . نبى أمة أيقظ فيـها الضمير الإنسـانى الذى يلتزم بالقيم الأخلاقـية النبيلة . . لذلك انتصـرت أمة الإسلام بما تمسكت به من أخـلاق وعزة نفس وترفع عن الدنايا . . فـهى أمة تمسكت بالعدل والبر والخير والتضحية بالنفس والمال فى سبيل الإسلام ورفع مكانة الأمة . . إن أمة الإسلام . . أمـة الدنيا كلها . . فهـى أمة الأمس . . وأمة اليوم . . وأمـة الغد . . أمة تعيش بروحـها مع جسـدها . . ضميـر حى وقلب واعٍ وجسد قـوى . . ولقد مَنَّ الله على الإنسانيـة . . إذ بعث فيهم وإلـيهم هذا النبى العظيم محـمد ﷺ وأنزل عليـه القرآن الذى تتكشف لنا كل يوم من أسـراره ما يؤكـد لنا أنه كتـاب الكون بأسره . . كـتاب لا تنقـضى عجائبـه ولا يَمَلّه قارؤه ولا يسأم منه سامعه . . فـيه نبأ من قبلنا وخبر مـا بعدنا وحكم ما بيننا . . القرآن الكريم كتاب الكون كله . . كتاب تهذيب وتربية . . كتاب تشريع للأحكام . . ودستـور لأمة . . كتـاب يحمى المجـتمع من الفوضى والاضطراب كـما يحـمى الفرد من الضياع والهلاك . . كتاب بيَّن الله لنا فيه الحلال والحرام وذكر لنا أخبار السابقين وضرب لنا المثل لنهتدى بما فـيه كما بَيَّن لنا فى هذا القرآن أصـول الحكم . . ووجهنا إلى كيفية اخـتيار الحاكم الذى يحكم بالحق ولا يحيد عن العـدل . . والحاكم لابد أن يعاونه أهل الحل والعقد (أعضـاء البرلمان) وهؤلاء يتم اختيـارهم من جميـع أفراد الشعب على نـظام الشورى لأن (الشورى) مبدأ من مبادئ الإسلام . . والشـورى تعنى حُسن الاختيار ويكون اختيارهم الآن بما نُسمِّيه (الانتخاب) وعلى كل ناخب أن يراعى هذه الضوابط :

١ ـ إن صوتك أمانة . . وأنـت عندما تنتخب شخصًا فـقد ألقيت بأمانتك عنـده ليقوم هو بالمشـاركـة فى صنع القـرار الذى ينفع الـناس ويرقى بالمجـتـمع . . لذلك عليك أن تخـتـار

الكفء . . المتدين . . المتواجد . . المثقف . . ليستطيع أن يشارك فى صنع القرار بكفاءة واقتدار .

٢ ـ أنت مسئول أمام الله عمن اخترته لينوب عنك . . فإن جاملت فى الاختيار ونائبك لم يحضر ولم يشارك فى صنع القرار . . أو لم تكن له القدرة على الإسهام بالرأى . . وحدث خلل فى المجتمع أو اضطراب لعدم القدرة على صياغة القوانين فأنت مسئول أمام الله لأنك لم تحسن الاختيار وجاملت على حساب الصالح العام وفَوَّت الفرصة على الكفاءات من أهل دينك .

٣ ـ الانتخاب شهادة بكفاءة من تشهد له فإن اخترت شخصًا مطعونًا فى شرفه أو ذمته . . فأنت قد شهدت شهادة زور لأنك ضيَّعت الحقيقة وضلَّلت الرأى العام وفوَّت الفرصة على من يستحق واقرأ معى قول الله : ﴿**فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة: ٢٨٣] .

لكل هذه الأسباب علينا أن نتنبه عند اختيار (أعضاء البرلمان) الذين هم أهل الحل والعقد . . والذين يختارون الحاكم الأصلح ويساعدوه بوضع القوانين المستمدة من القرآن الكريم . . ومن السنة النبوية المطهرة . . ومما استقر عليه الرأى فى تاريخ الأمة وما سجّله العلماء والفقهاء من آراء حول النهوض بالمجتمع وعلاقة الفرد به وعلاقة الفرد بالدولة وعلاقة الدولة بمن يجاورها من المجتمعات . .

إن أمانة الكلمة تتطلب من كل إنسان يعيش فى أى وطن أن يشارك بفاعلية وإيجابية فى صياغة القوانين ووضع الضوابط والنظم التى ترقى بالأمة وتنهض بالمجتمع . . ولما كانت مشاركة كل فرد أمرًا واجبًا . . لكنه مستحيل فى نفس الوقت أن يجتمع الناس كلهم لصنع قرار، فقد اقتضى الأمر أن ينيب الناس عنهم نُوَّابًا يحملون على عاتقهم عبء المسئولية . . والناس عليهم أن يحسنوا الاختيار . . لأننا إن أحسنا اختيار النواب فسنضمن حسن اختيار الحاكم . . إن أى أمة لا تحسن اختيار أعضاء البرلمان فسوف تدفع الثمن غاليًا . . ولذلك نحن هنا . . كنا نبكى بدل الدموع دمًا يوم أن قرأنا عن النواب المنحرفين . . لكننى كنت أسأل نفسى . . من الذى يُلام؟ من اختاروهم . . وكنت كلما نظرت إلى التليفزيون أتابع وقائع الجلسات وأنظر إلى خلو البرلمان من الأعضاء . . كان ضميرى يحدثنى . . أن أى قانون يصدر هو باطل لأن هذه القوانين تصدر دون دراسة ودون مراعاة للصالح العام . . ثم هناك إهمال فى بعض الدواوين الحكومية والإدارات التنفيذية . . من الذى يحاسب الوزراء؟ ومن الذى يلفت نظر الدولة؟ إنهم النواب . . وأين هم؟!!! الأمر الذى يجعلنا نردد ما قاله

الحق سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣]. إن الحاكم العام هو ربان السفينة وقائدها ومعاونوه (أعضاء البرلمان) أهل الحل والعقد فإن أحسنا نحن اختيار هؤلاء النواب فقد أحسنا إلى أنفسنا حيث تنضبط القيم ويتواجد النواب.. ولا يبحثون عن المصالح الشخصية ويعكفون على دراسة القوانين والاتفاقيات ورسم الخطط الإصلاحية بعد الزيارات الميدانية.. والالتحام بالجماهير للاستماع إلى مشاكلهم.. ثم بعد ذلك عكوف على الأوراق للدراسة المتأنية فى جو يتسم بالمعرفة الشمولية لما يجرى على الساحة المحلية والعالمية..

إن هذا ما ينشده الإسلام لأنه.. دين ودولة.. لأن الدنيا مزرعة الآخرة.. والدخول إلى الجنة ـ بالعمل الجاد لصالح الدين والدنيا معًا ـ فليس فى مفهوم الإسلام أن يردد (دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله) فهذه مقولة لا تنطبق على الدين الإسلامى أبدًا.. لأن الإمام الذى يؤم الناس فى صلاتهم إن أخطأ ردّوه وصححوا له وإن نسى ذكّروه.. وهذا إمام فى الصلاة.. فإذا كان الإسلام قد جعلك تلتزم بعمل الإمام فلا تسبقه بقول أو فعل ولا تُقره على خطأ كذلك الحال بالنسبة للحاكم العام.. فالدين هو النصيحة.. ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم..

وإننى إذ أقدم بين يدى القارئ الكريم هذه اللمحات السريعة عن نظام الحكم فى الإسلام.. فإن أحسنت فيما سُقت من أدلة.. وأصبت فى الذى صنعت فذلك من فضل الله علىّ.. وإن أنا أخطأت فيما فعلت فأنا بشر وهذا منى قصور يُنسب إلىّ وأؤمن بقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه: «رحم الله امرءًا أهدى إلىّ عيوبى» وأردد قول الشاعر:

وما أبرئ نفسى إننى بشر ... أسهو وأخطئ ما لم يحمنى قدر
وما ترى عذرًا أولى بذى ذلل ... من أن يقول مُقرًا أننى بشر

والذى بين يديك قسمته إلى خمسة أبواب فى كل باب عدة فصول وما قصدت بذلك إلاّ الخير والله أعلم بالسرائر.. سائلاً الله سبحانه أن يجعل عملنا خالصًا لدينه وأن يوفقنا إلى ما يحبه ويرضاه إنه سميع قريب مجيب الدعاء..

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين...

القاهرة فى ١٥ محرم ١٤٢٢ هـ
والموافق ٩ أبريل ٢٠٠١ م

منصور الرفاعى عبيد

الباب الأول: نظام إلهى من عهد آدم

الفصل الأول
نظام الحكم فى الإسلام

البداية :

آدم هو أبو البشر، خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه.. وأسجد له ملائكته.. سجود تحية وتقدير وإجلال.. بعد أن أخبر الله الملائكة أنه خلق آدم لمهمة جليلة هى.. أن يسكنه فى الأرض.. ليعمّر فيها ويصلح من شأنها.. ولقد أسكن الله آدم الجنة فى أول الأمر بعد أن خلق له منه حواء ليسكن إليها.. وقد أمر الله آدم.. من باب الاختبار والابتلاء ألاّ يأكل من شجرة معينة.. لكن الشيطان الرجيم وسوس لآدم وحواء وقال لهما: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢٠ ـ ٢٢]. وقد ذكر الحق سبحانه وتعالى أن آدم نَسِىَ بعد أن أغراه الشيطان وأقسم له من باب الخداع فصدقه. ولهذا لم يكن عند آدم عزم.. يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥].

وكان من فضل الله ورحمته أن هبط آدم إلى الأرض التى خلق منها ليعيش عليها حسب مشيئة الله سبحانه وإرادته.. وكان من فضل الله.. أن آدم عندما نزل إلى الأرض.. تلقى من ربه كلمات.. هذه الكلمات كلها خير وإرشاد وتوجيه وترشيد للتعايش على هذه الحياة.. وفى هذه الآيات البينات بلا شك.. كيف يكون الحكم بين أولاد آدم.. وكيف يتزوجون.. وكيف يتعايشون.. ولهذا قال الحق سبحانه: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].. ويقول فى آية أخرى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ * وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٧].

من هذا يتبين أن الحق سبحانه وتعالى وضع الضوابط المحكمة والنظم الدقيقة لحكم المجتمع.. من بداية تكوينه.. حتى لا يتفلت الناس.. وتكون بينهم الصراعات الدامية.. والحروب المهلكة.. فاقتضت مشيئة الحق أن يضع موازين الحق من أول لحظة فى تاريخ

البشرية.. لهذا قال الحق سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

دين الأنبياء

الإسلام هو دين الأنبياء جميعًا من عهد آدم إلى أن خُتمت الرسالات بسيدنا محمد ﷺ، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران: ١٩].. ويقول سبحانه: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا * وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٣، ١٦٤].

إن أصل الدين واحد فهو من عند الله.. وقد جعل الله الدنيا لعمارة الآخرة.. فمن عمّر دنياه عمّر آخرته.. وتعمير الدنيا يقوم على أساسين:

١ ـ حسن العلاقة بالله.. وذلك يتطلب منك أن تحافظ على ما فرضه عليك من عبادة وأن تلزم نفسك بما أمر الله وتنتهى عما نهى..

٢ ـ حسن العلاقة بالناس.. حسن الجوار.. طيب العشرة مع الناس.. عدم الإضرار بهم.. رعاية الأيتام.. عدم التعامل بالربا.. عدم الغش... إلى غير ذلك من الأمور الأخلاقية التى أوجبها الإسلام على الإنسان.

وهذه أمور مشتركة فى جميع الرسالات أرشد الحق سبحانه إليها فقال: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١، ١٥٢].

يتبيّن لنا من هذا أن الحق سبحانه وضع الضوابط الأساسية للحياة الإنسانية وهى ما نسميه (حكم المجتمع) أو الحاكمية كما يسميها البعض.

إن الله سبحـانه وتعالى ما كان ليذر البشرية تتخطفهم شياطين الجن ويتكالب بعضهم على بعض.. فتخرج الإنسانية عن خط مسارها ويهوى بها الهوى فى أودية سحيقة.. وهنا لا تتحقق الغاية التى من أجلها خلق الإنسان، وقد بيّن الله هذه الغاية بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨].

إن الخلافة عن الله فى الأرض تتطلب من صاحب الأمر أن يضع وثيقة للخليفة ليسير على مقتضاها ليكون من حق المستخلف أن يحاسب المستخلف بمقتضى بنود الوثيقة.. ليكون الجزاء العادل من ثواب أو عقاب، لأنه إذا لم توضع هذه الوثيقة من قبل الحق فسوف يتساوى الصالح مع الطالح والمؤمن مع المجرم، وكل إنسان سيفعل ما يتفق مع هواه بلا ضوابط وهنا تكون الطامة الكبرى والفساد.. من أجل هذا نقول وباطمئنان الإسلام الذى حمل لواءه الأنبياء يدعو الناس إلى أن يتعاونوا مع بعضهم على إصلاح دنياهم وفقًا لمنهج الله كى يسعدوا فى الدنيا بالأمن والاستقرار وفى الآخرة بجنة عرضها السموات والأرض ولكى نصل إلى ذلك فعلينا أن نعمل وبدقة ومهارة وأن نستشعر رقابة الله علينا ونحن نوقن بأن الإسلام رفض الرهبنة ونهى عنها لأنها تعطيل للقوى الإنسانية ـ وإهدار لطاقات أوجدها الله فى الإنسان للعمل الميدانى والالتحام بالناس والبعد عن العزلة التى تؤدى إلى شلل المجتمع وعدم قدرته على النمو وبهذا يضيع المجتمع وينهار..

النظام الاجتماعى

الإنسان إلف مألوف.. مغروس فى طبعه حب الاجتماع مع الآخرين.. وفطرة فطر الله الناس عليها أن كل واحد يميل إلى الآخر.. من باب الصداقة.. أو اكتساب الخبرة.. أو زيادة المعرفة.. ولهذا قالوا.. أن الاجتماع الإنسانى أمر ضرورى.. وعبروا عن ذلك بقولهم.. الإنسان مدنى بطبعه.. ومما لا شك فيه أن كل اجتماع يحتاج إلى تنظيم.. وهذا ما يؤيده الواقع.. فالإنسان يولد فى المجتمع ويعيش فيه ويموت.. والأفراد لا يمكنهم العيش مع بعضهم بحرية مطلقة داخل المجتمع إلاّ فى إطار نظام يقوم على أساس من الضوابط والروابط وأصول وأفكار يرتضيها الأفراد مع بعضهم يتضمن ذلك الحدود التى يجب أن يقف عندها الجميع وأن يلتزم بهذه الضوابط كل فرد فى سلوكه حتى يستطيعوا العيش مع بعضهم بهدوء وأمان.. فالنظام الاجتماعى للإنسان جاء نتيجة

احتيـاجاته. . ومن هنا نرى أن هدى الله ووحيه إلـى أنبيائه كان هو المعـيار الأساسى الذى يسير عـليه الناس. . فإذا خرج الناس على مـقتضى هذا النظام فإن الله كـان يبعث الرسل متوالين مبـشرين ومنذرين. . وكان الرسول دائمًا يأتى بلسان قومه ولغـتهم ولهذا قال الله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، أى أن الرسـول يُبيِّن لقومـه معالم الحق ويرشـدهم إلى الصواب وينهاهم عن الفساد والإفـساد فى الأرض ويقول لهم: ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦]، ونقـف أمام بعض أنبيـاء الله لنرى كيف بدأوا يعالجون الخلل الاجتماعى :

١ ـ نبى الله شعيب. . جاء يعالج الخلل الذى وقع فيه التجار لأن التجار كانوا يتعاملون بتطفيف الكيل ونقص الميزان. . وهذا الأمـر يفسد العلاقة الاجتمـاعية. . يقطع حبل المودة بين الناس. . مما يملأ القلوب بالحقـد ويفضى ذلك إلى أكل أموال الناس بالبـاطل. . فبعث الله شعيبًا ليقول للناس: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾ [الأعراف: ٨٥].

وقال لهـم كذلك: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الشعراء: ١٨١ ـ ١٨٣].

وقال لهم كذلك: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: ٨٥]. .

هكذا نرى من تنوع الأسلوب الذى قام بـه شعيب فى إبلاغ دعوة ربه إلى قـومه ترتكز على تصحيح العلاقات الاجتماعية بين الناس حتى لا ينهار المجتمع على من فيه بسبب هذا الفساد لذلك أخبرنا الحق سبحانه بأن قوم شـعيب لما كذبوا وتعمدوا إلحاق الضرر بالمجتمع أنزل الله عليهم العـذاب وأخبرنا بأن مـالهم لم ينفعـهم، يقول الحق سبـحانه: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩١، ٩٢].

والحق سبـحانه بيّن لنا فى مواضع أخرى بـأنه دمّر هذا المجتمع الفاسـد بعد أن أنذرهم لأن الله رحيم بعـباده فـلا يُعجل العـذاب للناس وإنما يبعث بالرسل مـصححين ومـنبهين ومحذرين حتى لا يكون لأحد على الله حجة. . .

٢ ـ نبى الله صالح. . بعثه الله ليعالج فسـاد الأغنياء. . فإن المال أحيانًا يصيب الإنسان بالشّره والاستعلاء والتطاول على خلق الله. . فأرسل الله سيدنا صالحًا ليعالج هذا النوع من

المرض النفسى وبلا شك أن الكبرياء والغرور إذا دخل ذلك قلب الإنسان لا ينقاد للحق ولا يستجيب لداعى الفضيلة ولهذا قال الحق سبحانه: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق: ٦، ٧]. وقد أخبر الحق سبحانه أن الإنسان يحب المال ويحرص عليه.. وهذه فطرة قال عنها ربنا: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]. ويقول كذلك: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٦ ـ ٨].

ودين الله لا ينهى عن حب المال وجمعه.. ولكن لا تجعل حبه يستولى على قلبك وينسيك ذكر ربك ويبعدك عن إخوانك.. ولا تجمع المال من حرام.. بل اسلك السبل الكريمة النظيفة.. لا تسرق.. لا تأخذ الرشوة.. لا تتعامل بالربا.. لا تغش.. لا تَخُنْ.. لأن هذه الأساليب المحرمة المجرمة تكون سببًا فى إفساد المجتمع وإلحاق الضرر به.. لهذا بعث الله هذا النبى ليعالج هذا الخلل ويصحح المسار، فقال لقومه كما يقول القرآن: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤].. وقال لقومه كما يقول القرآن: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٦١].. ويقول فى آية أخرى على لسان صالح وهو يوجه الكلام إلى قومه: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٤٦ ـ ١٥٢].

وهكذا يتبيّن لنا أن الأنبياء بعثهم الله بضوابط تتسم بالأخلاق العالية وتدعو الناس إلى الصلاح وحب الخير ليتعايش الناس مع بعضهم إخوة فيعمروا الكون بالعمل الجاد والتعاون والتضامن والتآلف.

٣ ـ نبى الله لوط.. بعثه الله سبحانه ليعالج خللاً اجتماعيًا بسببه تنتشر الأمراض ويعم المجتمع الوباء وينقطع النسل.. لأنه عمل شاذ وخروج على الفطرة السليمة.. والنفس الكريمة لا تقبل هذا العمل أبدًا لأنه علاقة الرجل بالرجل.. وهذا فساد فى الأرض وضرر بالمجتمع فبعث الله لوطًا ليقول لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨٠، ٨١].. وجاء فى آية أخرى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦].. إن الحق سبحانه وتعالى دمّر قوم لوط لما لم يستجيبوا

لدعوته ولم يبتعدوا عن هذا السلوك الشاذ، ثم أنزل مطرًا ليطـهر المنطقة التى كان فيها هؤلاء الناس. . يقول الحق سـبحانه فى هذا: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣].

وهذا جزاء الظالمين الذين يفـسدون فى الأرض ولا يصلحون. . وكـذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد. . وقد بَيَّن الحق سبحانه وتعالى عندما قال لكل نبى: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ * وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٤، ٤٥]. .

إن الحق سبـحانه وتعـالى الذى خلق الإنسان ليـعمـر الأرض لم يتركه وإنما بـعث إليه الأنبياء ليسددوا خطاه طبقًا لقـانون الحق والعدل فإذا شذّ الناس فى أفكارهم وخرجوا على هذا الهدى كـان يذكرهم ويبعث بالنذر علَّ الناس يرجـعون فإن أصـرّوا على المعاصى ولم يستجيبوا لداعى الحق فإنهم لن يعجزوا الله الذى خلقهم وهو على كل شىء قدير. .

الدولــة

هذا النظام الذى بعث الله به الأنبياء جاء لإصلاح الناس. . والناس مع بعضهم يكوّنون المجتـمع وهنا تتكون الدولة لأنها عـدد من الناس تجتـمع إرادتهم على العيش مع بعـضهم والولاء للدولة التى أقامـوها على قطعة من الأرض معـينة. . وهذه القطعة من الأرض هى أهم مقومـات الدولة لأن كل شبر فى هذه القطعة ملك لكل من يعـيش داخل هذا المجتمع لأنه بهذه الحدود التى حدّدوها أصبحت وطنًا يعيش الناس فيه وله فى نظرهم قداسة لذلك يضحّون بالغـالى والرخيص فى سبـيل أمن هذا الوطن ولهذا فـإن الوطن هو مبعث حـياة المواطنين لأنهم يأخذون الكثير من صفاتهم الخلقيـة والخلقية من العوامل الطبيعية المؤثرة فى المناخ الاجتماعى الذى يحيط بالناس. . والوطن له حدود طبيـعية كالأنهار والجبال إلى غير ذلك. . فإذا لم تكن هذه الحدود الطبيعية فهناك حـدود معلّمة بعلامات يرتضيها الناس فإذا قامت مـجموعـة من الناس وأقامت على أى جـزء داخل الحدود المحـددة فإن الناس الأول الذين حدّدوا هذا الجـزء يشعرون بالقلق والخـوف من هؤلاء الذين دخلوا داخل الحدود. . إذًا. . الدولة هى المنظمة الاجتـماعية التى ينتظم الناس فى العـيش تحت لوائها ويدينون لها بالطاعة. .

(والدَّوْلَة) و (الدُّولة) واحـدة . . وقيل . . الدَّولة فى المال والدُّولة فى الحـرب والجاه . . وقيل الدَّولـة اسم الشىء الذى يُتداول بعـينه والدُّولة المصدر . . قـال تعالى : **﴿كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ﴾** [الحشر : ٧] وتداول القوم كذا أى تناولوه من حيث الدَّولة . .

وداول الله كـذا بينهـم، قـال تعـالى : **﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾** [آل عـمـران : ١٤٠][1] .

(وجاء فى المعجم دُوَلْ . . الدال والواو واللام أصلان أحـدهما يدل على تحول شىء من مكان إلى مكان والآخر يدل على ضعف واسترخاء فأما الأول فقال أهل اللغة . . أدال القوم إذا تحولوا من مكان إلى مكان ومن هذا الباب تداول القوم الشىء بينهم إذا صار من بعضهم إلى بعضهم . . والدَّوْلة والدُّولة لغـتان سُمّى بذلك لأنه أمر يتداولونه فيـتحول من هذا إلى ذاك ومن ذاك إلى هذا وأما الأصل الثانى الدَّويل من النبت مـا يَبُس لعامه . . قال أبو زيد : دال الثوب يدول إذا بلى ومنه دال بطنه أى استرخى)[2] .

(الدَّوْلة انقـلاب الزمن والعقـبـة فى المال، ويضم وقيـل الضم فى الآخرة والفـتح فى الدنيا)[3] .

* * *

(١) المفردات فى غريب القرآن، للراغب الأصفهانى ص١٧٤ .

(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٢/ ٣١٤) وما بعدها .

(٣) القاموس المحيط (٣/ ٣٨٨) .

الفصل الثانى
الكيان المعنوى للدولة

إننا نعيش فى عصر السموات المفتوحة. . وهناك شبكة المواصلات. . الجوية. . والبحرية. . والبرية. . سهّلت الاتصال بين الدول ومع ذلك فإنه ما زالت هناك حدود لكل دولة. . وكل إنسان تهتز نفسه إذا عرف أن أى شبر من داخل حدود وطنه احتلّه إنسان آخر ذلك لأن الدولة هى كيان اجتماعى تكوّن من مجموعة من الناس نظمت نفسها فى حدود معينة. . وأصبح الكيان المعنوى لهذه الدولة ينطوى فيه الشخصية المعنوية ويعنى ذلك النظام والاستقرار لهذا الكيان وأصبح له اسم يعرف به وله علم يرمز إلى مجده ويميزه عن غيره من الدول. . والناس يتحركون فى هذا الإطار طبقًا للقانون الذى ارتضوه ووضعوه لأنفسهم. . فقانون الدولة يربط المواطن بدولته وإن كان من المؤكد أن الإنسان كما يولد فى وطنه فإن الوطن يولد فى داخل الإنسان. .

فالدولة إذًا تمثل إرادة المكونين لها. . والإرادة هى تمثيل فعلى لمبدأ منطقى أو اعتقاد مسيطر على عقول الأفراد. . وبهذا تدب الحياة فى الدولة لأن لها أعضاءً كأعضاء الجسم وهذه الأعضاء تؤدى وظائفها ما دام فى الدولة حياة تنمو ثم إنها قد تضمحل وهذا يتوقف على قوة الأفراد الذين يمثلون هذا المجتمع أو ضعفهم. . لهذا نستطيع أن نقول. . إذا كانت الدولة كيانًا طبيعيًا له شخصية فإن الأمر يحتاج إلى:

١ ـ حكومة تنظم هذا الكيان والدولة بواسطة الحكومة تعبر عن إرادتها والحكومة هى التى تشرف على المنظمات والهيئات وتضع القوانين المنظمة والتعليمات التى يجب على الأفراد أن يتمسكوا بها وهذه الحكومة تحافظ على:

أ ـ سيادة الدولة، ومن مظاهر السيادة الاستقلال وبدونه تكون الدولة ناقصة. .

ب ـ والمصدر الرئيسى لاستقلال الدولة هو الشعب، لأنه هو الذى يختار الحكومة. . وإن الذى يختار يستطيع أن يسحب هذا الاختيار، فكأن الحكومة تولت مقاليد الحكم بهذه الدولة بناء على هذا الاختيار من الشعب.

جـ ـ الشعب يتكون من مجموعة من الناس يشغلون الحيِّز الذى اختاروه والذين بإجماع إرادتهم تتكون منهم الدولة والقاسم المشترك بين الأفراد جميعًا اللغة. . العادات، الآمال، الآلام.

ثم إن علماء التاريخ والاجتماع اختلفوا حول أصل نشأة الدولة.. فيرى فريق تقسيم الدولة إلى (ديمقراطية وأخرى غير ديمقراطية)[1].. وفريق آخر يقسمها إلى (دولة دينية أو بشرية ويعللون ذلك من حيث إرجاع النشأة إلى البشر أو إلى قوى غير بشرية)[2].. ويرى آخرون إرجاع هذه النظريات إلى اتجاهين (اتجاه نظرى وآخر واقعى)[3]..

وهناك اتجاه آخر يقول: (اتجاه غيبى وآخر علمى)[4]..

وهكذا يتضح لنا أن الكيان المعنوى للدولة أمر مهم جدًا. والحكومة هى المنفذة لإبراز هذا الكيان من خلال النظم والقوانين التى تضعها لحماية الدولة وضبط حركة الإيقاع داخل هذا الكيان ولهذا كان لابد من قيام..

الحكومة

فالحكومة بناء على ما قدمناه هى المنظمة الاجتماعية التى تعبر الدولة بواسطتها عن إرادتها وتدبر شئونها، فالحكومة تحدد مطالب الناس فى المجتمع وتكون صورة مكبرة لآمال الشعب وما يرجو تحقيقه لنفسه، لذلك يقال (إن الحكومة مرآة الشعب) لأنها تهدف إلى تنمية الشخصية الإنسانية فى نطاق المجتمع الذى تعمل على تطويره وتقدمه.. والحاجة مُلحّة إلى إقامة حكومة فى المجتمع لما يأتى:

١ ـ لأنها تقوم بوضع المعايير والأسس لتعامل الأفراد مع بعضهم داخل المجتمع وهذا ما نسميه (النظام الداخلى).

٢ ـ وتعمل على تحقيق العدالة بين جميع الأفراد.. فالمواطنون جميعًا كتلة واحدة لا يجوز أن نفرق بين شخص وشخص.. فالخدمات تقدم إلى كل بلا تمييز ولا محسوبية.. فالكل فى حق الحياة سواء.

٣ ـ تحرص على صون الحريات لجميع الأفراد.. حرية التملك.. حرية التحرك والانتقال، حرية التعبير.. المهم لا تصادر حرية أى فرد إلاّ إذا أخلّ هو بالنظام فعندئذ يكون الضرب بقوة على يد من تسول له نفسه أن يعبث بأمن الوطن أو يعتدى على

(١) د. عبد المنعم محفوظ، النظم السياسية ص٥٤.

(٢) د. محمد ميرغنى، الوجيز فى النظم السياسية (١/ ١٢) وما بعدها.

(٣) د. طعيمة الجرف، نظرية الدولة والمبادئ العامة للأنظمة السياسية ونظم الحكم ص٢٦ وما بعدها.

(٤) د. يحيى الجمل، الأنظمة السياسية المعاصرة، ص٥٦ وما بعدها.

ممتلكات الناس وسلب أموالهم فمثل هؤلاء الذين يخرجون على نظم الحكم وُضعت القوانين زجرًا لهم وحماية المواطنين من شرهم.

٤ - الخدمات التى تقدمها الحكومة لأفراد الرعية ليست هبة ولا منحة وإنما الواجب عليها أن تقدم الخدمات وتُحَسِّن المرافق وتعمل على رفاهية الجميع لأنها فى سبيل ذلك تحصل على الضرائب ولها العائد من ناتج المرافق التى تخدم المواطنين.. وعائد كل ذلك الخدمات العامة لجميع المواطنين.

٥ - حماية الحدود.. الوطن جزء من الأرض وهو يعيش فى وجدان كل إنسان لذلك على الحكومة أن تسهر على حماية الحدود وهى مسئولة أمام الشعب عن التفريط فى أى شبر.. وعليها فى سبيل ذلك أن تجند من تشاء وتنظم الجيش القوى وتضع كافة الإمكانيات لتقوية هذا الجيش والنهوض به ليرد المعتدى الذى يريد أن يغتصب أرض الوطن.

٦ - الدبلوماسية.. إنه مع تداخل المجتمعات الآن وسرعة الانتقال بسهولة من مكان إلى مكان إلاّ أن الحكومة عليها أن تتصل بالدول الأخرى وأن يكون هناك تمثيل دبلوماسى لأن هذا جزء من واجب الحماية الدولية.. والدبلوماسية تعنى التحدث باسم الدولة والحكومة فى الدول الأخرى، وهذا التمثيل قديم جدًا.. والدبلوماسى الناجح هو الذى ينقل إلى الدولة التى يذهب إليها آراء أمته وسياسة حكومته بصدق وأمانة ويقنع الدولة التى ذهب إليها أن سياسة حكومته لا غبار عليها وأن مصالح هذه الدولة تتمشى مع سياسة حكومته.. ثم يقوم بنقل كل ما يراه إلى حكومته لتكون على علم بما يجرى فى المجتمعات الأخرى.. لأن الصِّلات الدولية أمر مهم للغاية نظرًا للترابط الدولى..

٧ - القضاء على البطالة وتشغيل الناس.. لا شك أن البطالة تلعب دورًا هامًا فى إفساد الفرد وبالتالى نشر الفساد بين الأفراد لأنه من نافلة القول أن (من لم يشغله الحق شُغِل بالباطل) لهذا على الحكومة أن توجه الناس إلى إيجاد مصانع إنتاجية.. كقطاع خاص وفى سبيل ذلك تضع اللوائح المالية والإدارية التى تنظم المرتبات وتحدد ساعات العمل وتنبه صاحب العمل إلى إيجاد أماكن للترفيه عن العاملين وأسرهم، أما الحكومة بدورها فهى التى تنهض بإقامة المشروعات الكبيرة كشق الترع والمصارف ومحطات المياه والكهرباء والمصانع الكبرى والمرافق الهامة إلى غير ذلك من المرافق الكبرى التى تخدم الشعب، وهنا تجذب العمال إليها وتفتح الباب لهم مع منحهم المرتبات المجزية.. ووضع تنسيق مع القطاع الخاص حتى لا يكون هناك تفاوت ضخم فى المرتبات وبسبب ذلك يحدث إحباط عند

الفريق الآخر فيدفعه ذلك إلى التراخى فى العمل والإهمال فيه.. ولما كانت الحكومة ملزمة بتطبيق العدل على جميع أفراد المجتمع فقد لزم الأمر أن تضع من الضوابط والنظم ما يضمن للناس جميعًا أن يعيشوا فى مجتمع العدل وحتى لا تكون هناك فجوة يحدث بسببها الخراب والدمار.

٨ ـ المساعدة.. المجتمع لابد أن تتحقق فيه الكفاية لكل فرد: هناك بعض الأشخاص وُلدوا معاقين أو هناك أفراد حلَّت بهم كوارث أهلكت الحرث والنسل فهؤلاء وأولئك فى حاجة إلى المساعدة العاجلة التى ترفع مستواهم وتمسح الكآبة عنهم وتضمن لهم العيش الكريم.. كذلك على الحكومة أن تضع نظم المساعدات فى تقديم العلاج الطبى وبناء دور العلم والعبادة وتقديم خدمات اجتماعية كإقامة الملاعب وأماكن الترفيه، فهذا كله مسئولية الحكومة عليها أن تنظمه وتضع له من التشريع ما يجعل الناس ينتفعون بكل هذا فى جو من الوفاق وعدم تداخل الاختصاصات ولها فى سبيل ذلك أن تضع من الحماية والأمن بعد التنظيم والتشريع ما يقيم العدل ويجعل الناس يشعرون بالمواطنة الصحيحة.

٩ ـ إذا كانت الحكومة هى المصدر الرئيسى الذى يهيمن على الدولة فعليها أن تقوم من جانبها أو تعمل على إيجاد جو ملائم للتوفيق بين الشخصيات المختلفة والجماعات والعائلات وإعطاء الفرصة للقادرين من الأفراد لقيادة البيئة المحلية فى ظل القانون العام وفى إطار التشريعات والنظم.. لأنه وبلا شك فى حياة الجماعات وفى داخل كل مجتمع عدد لا يحصى من المشاكل فإذا لم يمكن تدارك هذه المشاكل وحلّها بات المجتمع مهددًا بالخطر.. لهذا يتطلب الأمر من الحكومة أن تستعين بالمؤسسات الاجتماعية لتساعدها وتقضى على مصادر القلق مثل:

أ ـ العائلة.. فهى مصدر هام لتهدئة الخواطر وتهيئة الجو الصالح للأفراد الذين يعيشون تحت لوائها ويحملون اسمها..

ب ـ الهيئات الدينية لأن العقيدة مصدر أمن للنفوس وترشيد للسلوك وتحسين للعلاقات الاجتماعية.. لذلك فإن المؤسسات الدينية تلعب دورًا خطيرًا فى أمن المجتمع وسلامته.

جـ ـ الجمعيات الخيرية.. وهى على اختلاف اتجاهاتها تعمل على تثقيف العقول.. وشحذ همة الفرد للمشاركة فى العمل التطوعى الاجتماعى الذى يحقق خلق روح التكافل الاجتماعى بين الأفراد.. وحث الناس على مساعدة بعضهم، فالقوى يأخذ بيد الضعيف والغنى يمد يد المساعدة إلى الفقير بالحب والرحمة.. وفى هذا المناخ تسكن النفس الثائرة

ويهدأ الفكر المضطرب. ويشعر الناس جميعًا أنهم يعيشون فى أسرة واحدة.

د ـ الاتحادات العماليـة والمؤسسات الصناعية والغرف التـجارية والاتحادات المهنية. . كل هذه مصادر مساعدة للدولة فى استتباب الأمن والاستقرار بين الجماهير.

إن الحكومة إذا نظمت كل هذه المصادر ووضعت لها الضوابط وألزمتها بميثاق شرف فإنه بلا شك سيكون الاسـتقرار الدائم للمـجتمع وبذلك ينهض كل فـرد فيه بأداء عـمله بجد ومهارة وابتكار فى أسلوب الآداء.

المؤسسات السياسية

إذا كانت الحكومة تقوم بدور هام جدًا وضرورى لاستمرار الحياة الطيبة الهنيئة وقد نبهنا إلى مصادر المعـاونة لها. . فإن هناك كذلك المؤسـسات السياسيـة. . والمؤسسات السيـاسية عبارة عن شـخصيات يختارهم الشـعب لتقوم بدور التمثيل عنـهم بحيث يتم نقل المشاكل بواسطة هؤلاء النواب إلى الحـكومة التى تـتولى حل المشـاكل. . ويرى فـريق من العلمـاء والفـقـهاء (أن النـظام النيـابى هو الأمثـل حتى ولـو كانت الديمـقراطيـة المبـاشـرة ممكنة التحقيق)[1]. . وقد دأب الناس على أن يطلقوا على النائب (سياسى) والرجل السياسى هو الذى يتكلم بلسان أفراد الشعب ويدافع عن حقوقهم لأنه ينوب عمن فوّضوه. . والسياسى هو الذى يحاول أن يحوّل وجهـة المجتمع إلى مصلحة الجماعة وتوجيـه سياسة الدولة إلى المستوى اللائق بها كى تنهض وتتبوأ مكان الريادة. . والرجل السياسى الناجح لا يبحث عن مصـالحه الشخصـية لأنه بوضعـه الراهن أصبح زعيـمًا محليًا، وعليه أن يتـحلى بالصدق والمصارحة ولا يجعل الكذب والتزوير سمة من سماته وأن تكون صلته بالجماهير مباشرة. . ولهذا فهو يـحتاج إلى من يعاونه فعليه أن يخـتار الكفاءات الذين يتسمون بالـشرف وفيهم قناعة وعندهم استعداد لخدمة الجـماهير وقد عُرف هذا النظام من قديم. . والرجل السياسى هو الذى يحرص على سمعة وطنه وكرامته ويدافع عن شرف المواطنين ويعمل بكل ما لديه على رفع مستواهم الأدبى والمادى. . وقد يلاقى فى سبـيل ذلك صعوبات وعقبات لكنه لا يضعف ولا تلين قناته لأنه يستشعر المسئولية ويدرك عبء الأمانة التى يحملها وشرف النيابة التى يمثلها ويُحس بأن مـسئوليـته أمام الله أولاً وأمام ضـميره ثم هو أقـسم القسم على ألاّ يخون بلده ولا من اختاروه. . من هنا كانت مسئوليـة الرجل السياسى مسئولية خطيرة وأن

(١) د. محمد الميرغنى، مبادئ القانون الإدارى ص١٢٣ وما بعدها.

الواجب يحتم عليه أن يتعايش مع بنى دائرته وأن يستمع إلى الرأى العام الذى يتعرض لأى ناحية من نواحى الدولة وعليه أن يكون دقيقًا فى نقل هذه المعلومة إلى الحكومة لأن الرأى العام له أهميته وله فى نفس الوقت خطورته.. ومن المعروف أن الرأى يمثل اتجاهًا فرديًا لكن يتسع نطاقه حتى يشمل مجموعة كبيرة من الناس ويكون هذا الرأى مؤسسًا على ضوابط وأسس تخدم المجتمع وتؤدى الخدمة العامة لأن الاختراع لأى شىء هو نتيجة الحاجة إليه.. والرأى العام له أثر كبير فى رسم الخطط التى تؤدى إلى استقرار الأفراد وتقديم الخدمة إليهم والنهوض بالمجتمع والعمل على استقراره فى كافة مناحى الحياة.

التأثير على الرأى العام

الحكومة الناجحة هى التى تعمل جاهدة على أن تكون خطاها مؤيدة من الرأى العام.. وهذا يؤكد حسن الصلة بين الحكومة والشعب وعندما نؤكد على ذلك.. نقول.. هناك اتجاه لأغراض شخصية ومنافع ذاتية يريد البعض أن يحققها من خلال تأثيره على الرأى العام.. لكن الاستجابة لهذا تكون عن طريق قِلَّة لا كثرة وعقلية هذه القِلّة تقبل الإيحاء إليها بسرعة.. والحكومة اليقظة تبعث من يحاور هذه القلة على مرأى ومسمع من الجميع ويُبيّن لهم أن الصالح العام فوق المصالح الذاتية وبهذا الأسلوب تكشف الحكومة زيف الزائفين وتعريهم أمام الجماهير بأنهم أصحاب منفعة أرادوا أن يسخروا الجماهير لنيلها.. ثم إن الحكومة تملك من وسائل التأثير على الرأى العام الشىء الكثير.. فهناك الاتصال المباشر عن طريق السمع والبصر (التليفزيون) وهناك الاتصال السمعى فقط (الإذاعة) وهناك الاتصال السريع (التليفون).. والغرض من ذلك تجلية الحقائق وتحصين الجماهير من الوقوع فى الخطأ والانقياد لأصحاب المنافع.

ومع ذلك فإننا نؤكد على الحكومة ونقول لها (الصدق أقصر طريق للنجاح) فعلى الحكومة أن تلتزم الصدق والصدق وحده لا يكن هناك تجريح لشخص ومصادرة على حريته إلاّ إذا خرج على الشرعية القائمة مع بيان ذلك للناس بدقة وأمانة.. لأن الدولة عليها أن تلتزم بالمثل العليا.. فإن الشعور العام بسمو الحكام يجعل الشعب دائمًا فى حالة استعداد نفسى لقبول الإيحاءات التى تقال من الدولة وهذا بالضبط هو الغرض المطلوب تحقيقه، إن الشعوب لا تُخدع بالرموز والشعارات.. ولذلك يجب أن يكون الرمز والشعار موضع

صدق وأمان. . وخذ مثلاً. . القاضى الذى يحكم بين الناس فى ساحة المحكمة يضفى عليه الناس المهابة والوقار لأن ضـمير القاضى فوق كل مـظهر ولا دخل إطلاقًا لأى شخص كى يغير من أحكامه العادلة. . لكن. . إذا رأى الناس هذا القاضى يجلس على المقهى ويتعاطى الدخان ويحملق فى الغـادين والرائحين. . فإن صورته تهتـز فى أعين الناس ولا يثقون فى أحكامه حتى ولو توخى العدالة فيهـا. . لماذا؟. . لأن الرأى العام يتهامس مع بعضه بسلوك هذا القاضى وبما رأوه يأتيته على المقهى. . لهذا نؤكد على أن على الحكومة أن تحرص على فتح باب الحرية ليقـول الناس ما يشاءون وعليها هى أن تعالج بالوسائل المتـاحة أمامها ومن خلال المنظمات والهيئات التى أشرنا إليها. .

إن الكبت ومصادرة الحريات وتكميم الأفواه وقصف الأقلام يؤدى ذلك كله إلى التدهور الخلقى والانحطاط القيمى وبالـتالى تدهور المجتمع وتأخره وانهيـاره، إنه من خلال الأفراد السياسـيين يتكون مجلس الشعب والشـورى والنواب وغير ذلك من المجالس النيـابية التى يكون لها سلطة التـشريع ومحاسـبة الحكومة لأنه من المؤكد أن أى نظام سـياسى ناجح هو الذى يعمل على تحديد مصـدر السلطات. . ولا شك أن الشعب هو المصدر الأساسى لكل السلطات. . ولذلك فإن إرادة الشـعب يجب أن تمنح الحرية المطلقة لينتـخب من يشاء لأنه بإرادته وحريته يختـار الأصلح والأفضل الذى يمثله تمثيلاً صادقًا فى ضبط الأمور ومـراقبتها والقضاء على الانحرافات وسيادة العدل ليأخذ كل ذى حق حقه. . إن الشعب عندما يختار بإرادته من يكون أمينًا على مصـالحه فسوف يعم البلاد الأمن وأفضل شىء لاخـتيار النائب هو الانتخاب المباشـر وأن الذى يرشح نفسه يكون عنده استعداد لتـحمل الأمانة وأن يُعرف بين الناس بالنزاهة وإذا كانت الأمة قد اختارته فمن حقها أن تعزله إن خان الأمانة وفرّط فى أداء الواجبات. .

أركان النظام النيابى

١ - وجود برلمان منتخب من الشعب.

٢ - عضو البرلمان يمثل الأمة كلها. . فالرجل السياسى عندما تم انتخابه أصبحت الدولة كلها أمـام عينيه وفى خـاطره لأنه يحارب الفسـاد فى أى موقع ويتعـقب المنحرفين فى أى إدارة. .

٣ ـ يجب أن يعلم العضو أن الشعب الذى اختـاره لمدة معينة إن وجد منه أى قصور.. أو أنه يحـرص على مصلحتـه الخاصـة.. ويهمل المصـالح العـامة أو أنه يتـحاشى لقـاء الجمـاهير.. فـإنهم بذلك لن يمنحوه أصـواتهم بعد ذلك، بل ويطـالبون بعزله مـع تقديم التبرير الذى يرونه..

صور تدخل الشعب

إن من حق الشعب أن يشارك الأجهزة البـرلمانية والحكومة فى شئون الحكم ويكون ذلك من خلال:

١ ـ الاستفـتاء الشعبى.. ويعنى ذلك الرجـوع إلى الشعب مباشـرة لاستطلاع رأيه فى بعض الأمور.. مثل.. الأمور الدستورية أو التشريعية.

٢ ـ الاقتراح الشعبى.. أن يقوم الشعب بإعداد مشروع قانون فى مسألة معينة بشرط أن يكون المشروع وافيًا وبه مذكـرة تفصيلية تُبيِّن الهدف والنتائج.. وقد يكون مـجرد رغبة فى عرض فكرة تعـوذها التفصيـلات ويقوم البرلمان بصيـاغتها فى صـورة قانون.. وإذا رفض البرلمان الاقتراح فإن الأمر يطرح على الساحة الشعبية للاستفتاء..

٣ ـ الاعتراض.. يحدد الدستور أنه من حق عـدد من الناخبين أن يعترضوا على قانون صادر من البـرلمان خلال مدة معـينة.. وهذا حق الشعب فى مراعـاة المصلحة العامـة فإذا اعترض البرلمان على الرفض طُرح على الشعب للاستفتاء العام..

لكل هذه الأمور كان على الشعب أن يشارك فى الانتخـابات مشاركة إيجابية لأنه يدرك تمامًا أنه إن تأخر عن المشاركة فى الإدلاء بصوته فـقد خان الأمانة التى كلّفه الله بها.. لأن الإدلاء بالصـوت والمشاركة الإيجـابية هى اعـتراف صـريح بأن هذا الشخص الذى أمـنحه صوتى جدير بحمل الأمانة حسن السمـعة طيب السلوك.. وقد أحجب عنه صوتى وأعطيه لغيره لأنه من وجهة نظرى أمين وصادق وجدير بتحمل المسئولية وقد أمرنا الحق سبحانه أن نشارك فى هذا العمل لأن فيه خدمة للبلاد والعباد.. وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢]، ويقول سبحانه: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣].. والإنسـان عندما يُدلى بصـوته فقـد أثبت أنه مواطن صـالح وبفعله هـذا شارك وأسهم فى صنع القرار الذى يصـدر.. وعلى الحكومة باعتبارها تملـك السلطة التنفيذية أن

تعمل علـى خلق جو من الملاءمة والتـوفيق بين الشـخصيـات المختلفـة لأنه بهذا التـوفيق والملاءمة تخلق جوا من المنافسة الشريفـة بين الأفراد ثم إن عليها أن تطرح على الرأى العام أن هذه المنافـسة لا يتـأسّس بسببـها عـداء ولا خلق جو من التنـافر مليئ بالشـحناء لأن الانتخابات ما هى إلاّ إبراز لشخـصيات عندها استعداد وكفاءة وقدرة ونحن كـبشر تتفاوت عقولنا فى الاخـتيار فلا مانع من الاختـلاف بشرط ألاّ يُفسد للود قضيـة . . فمن يجد فى نفسه الكفاءة ويريد النزول إلى الحياة العامة فهذا حقه بشرط أن يحافظ على شعور الآخرين فـلا تجريح ولا تطاول . . وعلى الحكـومة أن تكون مـحايدة لا تـتدخل إلاّ لضـبط النظام وفرض السيطرة على من تسوّل له نفسه الخروج على الشرعية . .

إن المواطن الصالح هو لبنة صالحة فى بناء المجتـمع الذى هو ملك الجميع وعلى الجميع أن يحرص على هذا المجتمع .

العِلْمُ السياسى

يقوم العلم السياسى على أسس وقواعد أهمها :

١ ـ أن يكون المشتغل بالسياسة عنده خبرة وعلم وكفاءة بالعمل الاجتماعى الذى يبحث فى صلة الناس بعضهم ببعض فى ظل الدولة ونظمها وقوانينها .

٢ ـ ومعرفة للأصول التنظيمية لإدارة الحكم من خلال المؤسسات التنفيذية .

٣ ـ وعلم بالعلم والقانـون الدستورى . . هذه هى أهم الركائـز التى يجب على الإنسان الذى يرشح نفسه للعمل السـياسى أن يكون على معرفة بها لأن العلوم الاجتـماعية ترتكز على دراسة الإنسان وسلوكه الاجتماعى مع معـرفة علاقات الإنسان وحياته فى المجتمع . . ويتأتى ذلك من الكشف على مـعرفة الدوافع لسلوك الإنسان فى المجـتمع . . كذلك يكون هذا الشـخص على معـرفة بعلم التـاريخ فإن الحقـائق التاريخـية هى الأسـاس لبناء بعض النظريات فى علم السياسـة وتحليل الأحداث التى مرّت يمكن تحليلها لاستنباط قـواعد عامة للنهوض بالمجتمع . . كذلك الاقتصاد فدراسته أمر هام لأن المال له دور هام فى تثبيت قوائم المجتمع وازدهار حركة الإنتاج فيـه . . وكل ما قلناه يكون محكومًا بالأخلاق النبيلة . . لأن حياة الفرد فى المجتمع تقوم على عدة صلات . . أهمهـا وأساسها الأخلاق السمحة ويتمثل فيها العـرف والعادات والتقاليد المتبـعة . . فالمجتمع الأكبر الذى يعـيش فيه الناس يجب أن

يتمثل فيه أسمى ما يتصورونه من قيم أخلاقية عالية.. ولهذا كان أكبر عامل لاستتباب الأمن والاستقرار الاجتماعى هو إعطاء فرصة للأفراد ليعيشوا مع بعضهم فى جو من الإخاء والترابط والتضامن والتآلف..

وبهذا تقوم الدولة وتنهض لأن أفرادها يتمسكون بهذه المثل العليا من الأخلاق النبيلة.. والدولة بما لها من سلطان تفرض العدل وتمثل الحق والإنصاف.. والشعب يساعدها فى هذا التيار.. فالدولة الصحيحة هى الدولة المنظمة وإن اختلف بعض الناس فالقانون هو الحاكم بلا محاباة.. والرجل السياسى هو مَنْ اؤتمن على تحقيق إرادة أمته فعليه أن يكون قدوة صالحة أمام الجماهير..

إن دراسة التاريخ المليئ بالحكمة والموعظة يؤيد حكم القانون الذى هو مصدر الضبط والربط والقائم على تحقيق العدل فى المجتمع.

الحاكم

الحاكم العام هو رأس الدولة.. يختاره الشعب اختيارًا حرًا مباشرًا دون ضغط أو إكراه.. ولابد منه لحفظ النظام وتدبير مصالح العباد لأنه دائمًا وأبدًا لابد للجماعة من قائد يقودها وحاكم يفصل فيما شجر بين الأفراد ويخطط لمستقبلها.. وهو فى منصب الولاية عنها يتحدث باسمها ويتصل بالبلاد المجاورة نيابة عنها.. يقول الإمام الماوردى (إذا اجتمع أهل العقد والحل للاختيار تصفحوا أحوال أهل الإمامة الموجودة فيهم شروطها فقدَّموا للبيعة منهم أكثرهم فضلاً وأكملهم شروطًا ومن يسرع الناس إلى طاعته ولا يتوقفون عن بيعته.. فإذا تعيّن لهم من بين الجماعة مَنْ هداهم الاجتهاد إلى اختياره عرضوها عليه فإن أجاب إليها بايعوه عليها وانعقدت بيعتهم له بالإمامة فلزم الكافة الدخول فى بيعته والانقياد لطاعته...)[1]، ومن هنا يصبح هو الحاكم العام..

والحق سبحانه وتعالى أخبر الملائكة أنه خلق آدم للخلافة عنه على الأرض.. ولهذا كان أول شىء تلقّاه آدم بعد أن نزل إلى الأرض هى كلمات من ربه تهديه إلى الطريق المستقيم وتصحح له المسار وتجعله يحكم بين أبنائه ليكون هذا بداية لتنظيم الدولة وتأسيس الحكم ووضع النظام المحكم لضبط المجتمع وتنظيم شئونه من خلال هدى الله..

(١) الأحكام السلطانية للماوردى ص٧.

من استقراء التاريخ يتبيّن لنا أن أصل الدولة نشأت عندما وجد جماعة من الناس شكلوا مع بعضهم الدولة لأنهم يتـفقون فى وحدة اللغة والدم والعادات. . ولما كـان الإنسان كائنًا اجتماعـيًا بطبعه لا يستطيع أن يعيش منعزلاً فـهو يشعر بميل غريزى للاجتـماع مع غيره. . ولعل ما يوضح ذلك اجتماع الذكر والأنثى مكونين بذلك وحدة اجتماعية صغيرة (الأسرة) تتشعب الأسرة بعد ذلك وتتفرع فيتكون منها (العائلة) التى تتفرع هى الأخرى وتكبر فتكون (العشيرة) فـ (القبيلة) وهذه هى نواة الدولة. . فالدولة إذًا مرحلة متقدمة آخذة شكل التطور وأساس السلطة فيها يرجع إلى (رب الأسرة) أو شيخ (القبيلة)(١). . وهذه النظرية تعرضت لانتـقادات لأنهـا فى زعمهـم لا تصلح لنشأة كل الدول فـسلطة رب الأسرة مـؤبدة وهذه السلطة باقية ما بقى رب الأسرة حيا وليس لأحد من أفـراد الأسرة أن يعترضوا عليه. . أما فى السلطة السياسية فيمكن الاعتراض. . وسلطة رب الأسرة إجبارية وسلطة الحاكم ليست كذلك(٢). . ويذكر آخـرون أن الإنسان قبل نشـأة الدولة كان يتمـتع بحقوقـه الاجتماعـية وحريته المطلقة. . والقـانون هنا هو قانون الطبيعة لكن بعض الأفـراد رغبة منهم فى رعاية مصالحهم العامة تعاقدوا مع أحدهم على أن يتنازلوا عن بعض حقوقهم وحرياتهم له مقابل أن يُقيم فيهم العدل على أن يشركهم فى الأمر على مبدأ الشورى والاستعانة بالرأى والرأى الآخر وبين الحين والحين يقدم لهم كشف حساب عما قام به من عمل. . والغرض من ذلك تنظيم الحقوق الطبيعية التى كان الأفراد يمارسـونها فى حياتهم الطبيعية. . ومن هنا لم ينزل الأفراد عن حـقوقهم إلاّ بالقـدر اللازم لإقامة السلطة التى مُنحت لـلحاكم. . وهى سلطة مقيدة بما يتضمنه العقد من التزامات متبادلة أهمها:

١ ـ المحافظة على حقوق الأفراد (القدر الذى لم يتنازلوا عنه).

٢ ـ إقامة العدل بينهم.

إزاء هذا فإن الشعب ملزم بواجب الطاعة والمعاونة للحـاكم. . فإن جاوز الحاكم ما اتفق عليه هو والشعب كان للأخير حق عزله من منصـبه. . لقد لجأ الشعب إلى هذا العقد نظرًا لتعدد المـصالح وازدياد حدة المنافسـة بين الناس. . ومن هنا نرى أنه ذابت إرادة الأفراد فى

---

(١) بتصرف من النظم السياسية للدكتور عبد المنعم محفوظ ص٢٠، ٢١.

(٢) د. فؤاد عطار، النظم السياسية ص١٠٦ بتصرف.

بوتقة الجماعة فنشأ عنها إرادة واحدة (تشكل الإرادة العـامة) فالأمة إذًا هى مستودع السيادة وصاحبتها ولا يمكن للأمة أن تتنازل عنها إلاّ إذا ظهـر حاكم مستبد يستند إلى الحكم المطلق وهنا يُقهـر الشعب. . لكن هذا القهـر لا يدوم لأن الشعب المتـذمر ينتفض ويحطم القـيود والأغلال ويفـتك بالظالمين الذين طغوا فى البلاد فأكـثروا فيهـا الفساد. . وهكذا نجـد قيام الدولة. . استـمرارها أو القضاء عليـها. . حسبـما يكون الحاكم واتجاهاته نحـو الشعب. . والتاريـخ مليء بالقصص والعـبر والعظات وصـدق الله العظيم: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيــرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧، ١٣٨].

* * *

الفصل الثالث

هـــــــدى اللـــــه

إن الله سبحانه وتعالى ما كان ليذر الإنسان تتخطفه الشياطين بل إنه من فضله ورحمته بعث الرسل هداة مرشدين. . وجعلهم حكّامًا على الدول يضعون نظم الحكم بين الناس على ما يوجههم إليه الخالق لأنه سبحانه أعرف بما يسعد الأمة ويجدد لها نشاطها ويحفظ عليها كيانها فى ظل تعاليم السماء ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] والواقع أن حكم البلاد وتنظيم شئونهم لا يتم من خلال الوعظ والإرشاد فقط، وإنما يلزم لذلك قوة سياسية لتنفيذ أحكام الله ونشر هدى الأنبياء. . ولهذا كان من دعاء سيدنا محمد ﷺ الذى لقّنه له ربه ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠]. . فالرسول ﷺ يطلب من ربه أن يعطيه السلطة ويعينه عليها وأن يسخر له أعوانًا (حكومة) تشد من أزره وتنصره ليتمكن بهذا السلطان وقوة المناصرين (الحكومة) من تقويم المعوج وتنفيذ قانون عدالته وصد تدفق طوفان الفواحش التى تقوّض دعائم المجتمع (فإن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن).

ثم إننا نعجب من الذين ينادون بفصل الدين عن الدولة وهذه شعارات تظهر بين الحين والآخر حيث يقولون: (لا سياسة فى الدين ولا دين فى السياسة)، ويقولون: (دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله) وقد اختلف الناس قديمًا وحديثًا فى هذا الأمر. . ونقول لهم أليس هذا هو دعاء النبى ﷺ كما جاء فى القرآن. . وتعالوا بنا نقرأ القرآن ونقف أمام بعض الأنبياء وكلهم على نمط واحد جاءوا لحكم الدنيا بأحكام الدين. . لأن الدين هو العاصم للمجتمع من التفكك والضياع. . وخذ مثلاً من الأنبياء:

١ - سيدنا يوسف. . وهو نبى عظيم مارس مهنة الدعوة إلى الله حتى عندما دخل السجن وهو مظلوم فقال للمساجين ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٣٩، ٤٠]. . يوسف هذا النبى عندما أُفرج عنه واعتذر له الملك ورأى أن البلاد مُقبلة على مجاعة تحتاج إلى عقل ذكى وإنسان لبيب له فهم دقيق وقدرة على التخطيط. . ويوسف فيه هذه الكفاءات فعرض نفسه على الملك كما يقول القرآن: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]. . وعندما خرجت هذه المطالبة على لسان يوسف وافق عليها

الملك ومن معه فى المجلس.. يقول الزمخشرى فى الكشاف: «وإنما قال ذلك ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ﴾ ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله تعالى وإقامة الحق وبسط العدل والتمكن فى الأرض الذى لأجله تبعث الأنبياء إلى العباد، ولعلم يوسف أن أحدًا غيره لا يقوم مقامه فى ذلك فطلب التولية ابتغاء وجه الله لا لحب الملك والدنيا.. وهذا هو ما بُعث من أجله الأنبياء والرسل».

ولعل هذا توجيه لكل إنسان يجد فى نفسه القدرة والكفاءة لعمل الخير تحقيقًا لرفاهية الشعب ونشر الرخاء.. عليه أن يتقدم للعمل الميدانى ولا يتكاسل ولا يخاف ما دام هو يرجو الخير لأمته والاستقرار لمجتمعه.. وليس وراء ذلك مصلحة شخصية.

٢ ـ داود عليه السلام.. نبى عظيم ورسول كريم.. قال له ربه: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].. فداود إذًا مكلف من الله أن يحكم بين الناس بالعدل.. وهو النبى الذى كانت الجبال تُسَبِّح معه والطير كذلك كانت تحشر لتردد تسابيح داود.. وهكذا يتبيّن لنا أن النبى الداعى إلى الله مكلف بحكم المجتمع وتطبيق نظام العدل.

٣ ـ سليمان عليه السلام وهو ابن داود آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب، وكانت تعرض عليه المشاكل العويصة فيُحلّها بمهارة وكفاءة، ولقد حكى القرآن أنه عُرضت قضية فى مجلس داود وهو الأب النبى وبجواره ولده سليمان.. فحكم سليمان فى القضية بكفاءة ورضى بالحكم داود.. يقول الله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩]. (النفش: الرعى ولا يكون إلاّ ليلاً)، والقضية.. أن الغنم نزلت على الكرم فأفسدت عناقيده وأتلفت شجر الكرم.. عُرضت هذه القضية على داود.. فقضى بالغنم لصاحب الكرم.. فقال سليمان: غير هذا يا نبى الله.. قال: وما ذاك؟ فقال: يدفع الكرم إلى صاحب الغنم.. فيقوم عليه حتى يعود كما كان.. وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه ودفعت الغنم إلى صاحبها، فذلك قوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾.

كما روى عن ابن أبى حاتم عن مسروق قال: «الحرث الذى نفشت فيه الغنم إنما كان كرْمًا فلم تدع فيه ورقة ولا عنقودًا من عنب إلاّ أكلته، فأتوا داود عليه السلام فأعطاهم

رقابها. . فقال سليمان: (لا) بل (تؤخذ الغنم فيعطاها أهل الكرم فيكون لهم لبنها ونفعها ويعطى أهل الغنم الكرم فيعمروه ويصلحوه حتى يعود كالذى كان ليلة نفشت فيه الغنم ثم يعطى أهل الغنم غنمهم وأهل الكرم كرمهم)».

وقريب من هذا ما أخرجه البخارى ومسلم ورواه الإمام أحمد عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: «بينما امرأتان معهما ابنان لهما إذ جاء الذئب فأخذ أحد الابنين فتحاكما إلى داود، فقضى به للكبرى فخرجتا فدعاهما سليمان فقال لهما هاتوا السكين أشقه بينكما، فقالت الصغرى: يرحمك الله. . هو ابنها لا تشقه فقضى به للصغرى»[1]. .

٤ - موسى عليه السلام. . أنزل الله عليه التوراة. . وكما يقول ربنا: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]. وهذا بيان من أن التوراة التى أنزلها الله على موسى فيها أحكام تنظيم المجتمع، والحكم بين المتخاصمين والقضاء على الظلم والظالمين. . ولذلك نجد فى القرآن الكريم قبل الآية السابقة مباشرة قول الله تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٤٢، ٤٣]. . هذا هو موسى عليه السلام نبى الله وكليمه أمره الله أن يحكم بين الناس بالعدل ووضع له نظم الحكم ليسير الناس على هدى الله الذى تلقّاه آدم من لحظة نزوله إلى الأرض. . أفبعد هذا يكون هناك قول يقول (دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله!!) إن الله الذى خلق العباد هو أرحم بهم من أنفسهم وأعرف بما يحقق المصلحة. . لهذا كانت مهمة الأنبياء الذين اصطفاهم الحق (تبليغ الناس أن الله واحد. . وأن العدل يجب أن يسود على الأرض بين الناس).

٥ - يحيى عليه السلام. يقول الحق سبحانه: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا * وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: ١٢ - ١٤]. . والحق سبحانه يقول عن يحيى عليه السلام وهو نبى كريم وابن نبى عظيم. . بأن الحق وجّهه إلى أن يتعلم وأن يأخذ ما فى الكتاب بقوة. . أى. . بجد وحرص واجتهاد. ولقد آتاه الله الحكم وهو صبى. . أى لأنه كان يحرص على العلم ويجتهد فأعطاه الله

(١) مختصر تفسير ابن كثير للصابونى (٢/٥١٦).

الفهم والعلم حيث وسَّع الله مداركه.. لذلك أقبل على العلم وانكب عليه واجتهد فى حل المسائل وحل المشاكل وكان نابغة ولهذا ذهب إليه الصبيان فى مثل سنِّه وقالوا له هيّا بنا نلعب فقال.. ما للهو خُلِقْنَا[1].

٦ ـ عيسى عليه السلام.. أنزل الله عليه الإنجيل.. ونجد فى ثناياه وبين آياته قواعد الحكم بين الناس، يقول الله تعالى: **﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾** [المائدة: ٤٧].

وهكذا تتوافى الديانات كلها على هذا الأمر ويتعين حدّ الإيمان وشرط الإسلام سواء للمحكومين أو للحكام والمناط كله هو الحكم بما أنزل الله وقبول هذا الحكم وعدم ابتغاء غيره من الشرائع والأحكام.. إنها قضية الحكم والشريعة والتقاضى ومن ورائها قضية الألوهية والتوحيد والإيمان.. والقضية فى جوهرها تتلخص فى الإجابة على السؤال الآتى: أيكون الحكم والشريعة والتقاضى حسب مواثيق الله وعقوده وشرائعه التى استحفظ عليها أصحاب الديانات السماوية واحدة بعد الأخرى وكتبها على الرسل وعلى مَنْ يتولون الأمر بعدهم ليسيروا على هُداهم».. أم يكون ذلك كله للأهواء المتقلبة والمصالح التى لا ترجع إلى أصل ثابت من شرع الله.. والعرف الذى يصطلح عليه جيل أو أجيال؟..

إن ما قدمناه على لسان الأنبياء (يتناول هذا الدرس الذى هو أخطر قضية من قضايا العقيدة الإسلامية والمنهج الإسلامى ونظام الحكم والحياة فى الإسلام.. والقرآن وقد عالج هذا الأمر فى كثير من الآيات لكنك تجد الأمر فى سورة المائدة يتخذ شكلاً محددًا مؤكدًا يدل عليه النص بألفاظه وعباراته لا بمفهومه وإيماءاته).. وكأن الحق سبحانه يقول.. إنه لا هوادة فى هذا الأمر ولا نرخص فى شىء منه ولا انحراف عن جانب ولو صغير.. وأنه لا عبرة بما تواضع عليه جيل أو لما اصطلح عليه أجيال.. فإن الديانات التى جاءت من عند الله تؤكد على تحتيم الحكم بما أنزل الله وإقامة الحياة كلها على شريعة الله..

عن عبد الله بن عمر أن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما تجدون فى التوراة فى شأن الرجم؟» فقالوا نفضحهم ويجلدون.. قال عبد الله بن سلام.. كذبتم إن فيها الرجم.. فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها.. فقال له عبد الله بن سلام ارفع يدك، فرفع يده فإذا آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمد.. فيها آية الرجم..

(١) مختصر تفسير ابن كثير للصابونى (٢/ ٤٤٤).

فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما. . فرأيت الرجل يحنى على المرأة يقيها الحجارة. . هذا لفظ البخارى[1].

وقد ذكر الإمام ابن كثير أحاديث متعددة فى هذا المعنى مما يدل على أن شريعة الله واحدة لأن وحى الله إلى أنبيائه واحد وقد جاء فى تفسير ابن كثير عند قول الله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

وهذا أيضًا مما وبِّخَت به اليهود وقرِّعوا عليه فإن عندهم فى نص التوراة أن النفس بالنفس وهم يخالفون ذلك عمدًا وعنادًا كما خالفوا حكم التوراة المنصوص عندهم فى رجم الزانى المحصن وعدلوا إلى ما اصطلحوا عليه من الجلد والتحميم[2].

وجاء فى تفسير القرطبى أسباب أخرى لسبب نزول هذه الآيات. . ثم قال القرطبى إنها نزلت بشأن اليهود وكتمانهم حد الزنا، وهذا أصح الأقوال[3].

كما ذكر الألوسى فى تفسيره جـ٦ ص١٣٨، الطبرى جـ٦ ص١٥٠ وما بعدها، ما يبين لنا بجلاء أن الحكم بين الناس قضية مهمة لأن على أساسها يستقر المجتمع أو يضطرب، ومما لا شك فيه أن شريعة الله مفضّلة على جميع ما يشرعه البشر لأن الله تبارك وتعالى منهجه فى التشريع قائم على العلم المطلق بحقيقة الكائن الإنسانى والحاجات الإنسانية وبحقيقة الكون الذى يعيش فيه الإنسان. . ومن ثم لا يفرط الله فى شىء من أمور هذه الحياة تصلح للبشر وتحقق لهم الأمن والاستقرار لأن الله سبحانه هو مدبر الكون ولا ينشأ بسبب هذا التدبير أى تصادم مدمر بين أنواع النشاط الإنسانى. . وكذلك لا يكون هناك تصادم كذلك بين النشاط الإنسانى والنواميس الكونية لأن تدبير الله يوجد التوازن والاعتدال بين كل الأشياء والحق سبحانه وتعالى هو القائل: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]. . وهذا التوافق والتناسق لا يتوافر أبدًا لمنهج من وضع الإنسان صاحب الأفق الضيق والعلم المحدود، لذلك لا يسلم ما وضعه البشر من منهج من التصادم المدمر بين بعض ألوان النشاط والاحتكاك الجماعى ويكون نتيجة هذا التصادم الهزات العنيفة

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٨).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٧) وما بعدها.

(٣) تفسير القرطبى (٣/ ٢٢٧١).

التى توجد الخلل بين بنى البشر. . إن منهج الله وما شرعه لعباده من حكم المجتمع قائم على العدل المطلق لأنه سبحانه يعلم حق العلم ما ينفع العباد وما يحقق العدل المطلق ويبيّن لنا الوسائل التى تحقق لنا ذلك، لهذا يجئ منهجه وشرعه مُبرءًا من الهوى كما أنه مبرءٌ من الجهل ليس في قصور ولا تفريط ولا غلو. . لأن الله سبحانه هو رب الجميع وصاحب هذا الكون وصانعه وصانع الإنسان. . لهذا فإن أخص خصائص الألوهية أن يشرع لعباده ما يحقق لهم العيش فى سعادة وهناء. . إن الدين الذى أرسل الله به رسله يجعل الشريعة لله وحده حتى يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد الديّان. . ويعلن تحرير الإنسان لأن الناس جميعًا يتساوون أمام الله فى الحقوق والواجبات.

إن الإيمان بالله إقرار له بالوحدانية واعتراف من العبد الضعيف لله بأنه صاحب الأمر والقوامة على الوجود كله والاعتراف بسلطان الله تعالى وربوبيته لهذا الكون. . فإذا كان هو سبحانه الخالق الرازق ولا سلطان لأحد عليه والإنسان لا يضره أحد إلاّ بإذن الله فيكون من وراء ذلك الاعتراف المطلق بأفضلية ما شرعه الله لعباده. . وإذا كانت الحكمة لا تظهر للناس فى جيل من الأجيال لحكمة التشريع الإلهى فإن الأجيال القادمة سوف تتعرف على ما خفى على الجيل الأول. . ونحن نرجع دائمًا إلى كتاب الله لأنه المصدر العظيم لنقل معالم الرسالات السابقة بكل دقة ﴿**وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا**﴾ [النساء: ٨٧].

تلك جولة تجولنا فيها فى الحدائق الغنَّاء فى رياض الأنبياء وفى ساحتهم الطاهرة لنقول للإنسانية كلها تعالوا إلى حكم الله حتى لا تكونوا ممن قال الله فيهم: ﴿**أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾ [المائدة: ٥٠].

* * *



الفصل الأول
النبى الخاتم محمد ﷺ

إن رسالته قائمة لجميع الرسالات.. وهو خاتم لجميع الأنبياء.. لهذا فليس هناك وحى ينزل على البشر بعد أن اكتمل الدين على يد سيدنا محمد ﷺ، وانتقل هو إلى ربه وتركنا على المحجة البيضاء.. ليلها كنهارها لأن القرآن الكريم.. فيه نبأ من قبلنا وخبر ما بعدنا وحكم ما بيننا من قال به صدق ومن حكم به عدل.. والقرآن نزل من عند الله وفيه تبيان كل شىء لأنه ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، وهذا الكتاب نزل ليحتكم الناس إلى آياته وينزلوا على أحكامه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩].

ولقد أعلن الإسلام من لحظة نزوله أنه جاء لقيادة الدنيا ونشر العدل بين الناس وإقامة معالم الحق ونشر الفضيلة وضبط حركة الإيقاع فى المجتمع حتى لا يعتدى أحد على أحد.. لأن رسالات السماء من عهد آدم إلى أن خُتمت على يد سيدنا محمد الذى جاء بعد الأنبياء الذين سبقوه فهو يمشى على أعقابهم ويعلن أنهم جميعًا إخوة وأن رسالتهم واحدة وأن الهدف الذى بعثوا به جميعًا هو تصحيح مفهوم العقيدة فى نفوس الناس.. وتعريف الناس بربهم.. وتعاونهم مع بعضهم.. لتكوين مجتمع صالح يجد فيه كل إنسان مأمنه ينشر الخير ويرفع راية السلام ويحث على العمل ويخلق روح الابتكار فى كل إنسان.. وبهذا بعث الأنبياء جميعًا الذين ذكرهم الله فى قرآنه وأمرنا أن نؤمن بهم ونعترف برسالتهم لأنها وحى من عند الله.. يقول الحق سبحانه: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].. ومع إيماننا المطلق بهم فإننا نؤمن بأن شريعة الإسلام نسخت شرائعهم وأنهم لو كانوا أحياء ما وسعهم إلاّ اتباع النبى محمد ﷺ لأنه مصدق لما معهم، ولكن شريعته زادت بما يصلح العباد فى أى مكان ولأنها شاملة وافية تتلاءم مع أى مكان ولا تتصادم مع العقل البشرى أبدًا ولا تعطل تفكير الإنسان وتفى بكل حاجاته التى فيها صلاحه فى الدنيا والآخرة.. لقد كَمُل بناء الرسالات على يد سيدنا محمد الذى أصبح قائد الأمة ومتلقى وحى الله ومبلغه إلى الإنسانية..

خصائص الشريعة الإسلامية

تتميز الشريعة الإسلامية بخصائص كثيرة.. ترجع إلى شيء واحد هو أنها:

١ ـ ربّانية.. من حيث المصدر ومن حيث الغاية، وهى وحى السماء جاء بإرادة الله تعالى وتلقاه النبى محمد ﷺ الذى بلّغه إلى الناس جميعًا.. إننا نعترف بأن الرسالات التى جاءت من قبل الإسلام دخلها تحريف وأضيف إليها شروح وتأويلات أدمجت فى صلب الكتب السابقة فبدّلت طبيعتها ودخلها التحريف.. وقد نبهنا الله إلى ذلك حيث قال: **﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾** [البقرة: ٧٥]. ويقول فى آية أخرى: **﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾** [البقرة: ٧٩].

يقول ابن خلدون فى مقدمته: «إن الاجتماع البشرى والملك يستوجب قوانين سياسية مفروضة يسلّمها الكافة وينقادون إلى أحكامها فإذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها كانت سياسة عقلية.. وإن كانت مفروضة من الله بشارع يقررها ويشرعها كانت سياسة دينية نافعة فى الدنيا والآخرة[١].

إننا نؤمن ونعتقد أن أحكام السياسة إنما هى لقيادة الدنيا وتنظيم المصالح بين الناس الذين يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا ومقصود الشارع بالناس إصلاح آخرتهم فوجب بمقتضى الشرع حمل الكافة على الأحكام الشرعية فى أحوال دنياهم وآخرتهم وكان هذا الحكم لأهل الشريعة وهم الأنبياء ومن قام فيه مقامهم وهم الخلفاء»[٢].

٢ ـ الوسطية ..

وتعنى الاعتدال.. فأمة الإسلام أمة وسط.. والوسط هو الخيار والأجود وكان النبى ﷺ وسطًا فى قومه.. ويقول هو ﷺ «فاسألوا الله الفردوس الأعلى فهو أوسط الجنة وأعلى الجنة» والأمة الوسط هى الأمة المعتدلة..

يقول ابن جرير: «والذى أرى أن معنى الوسط فى الآية الجزء الذى بين الطرفين والمعنى أنهم وسط لتوسطهم فى الدين فلم يغلوا كغلو النصارى ولم يقصروا كتقصير اليهود

(١) مقدمة ابن خلدون الفصل ٢٥ ص١٩٠.

(٢) المرجع السابق.

ولكنهم أهل وسط واعتدال»[1]. . والله تبارك وتعـالى يقول: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقـرة: ١٤٣]. فالشريعـة الخالدة منزهة عن التطرف والغلو لأنها معتدلة.

٣ ـ الوضوح. .

تتميز الشريعة الإسلامـية بالوضوح التام فى الأصول والعقائد. . فى المناهج والطرق. . فى الغايات والأهداف. . وترجع سمة الوضوح إلى وضوح المصدر الذى تستقى منه أحكام الشرائع. . فالقرآن كتاب واضح ليس فيه اضطراب فى أحكامه ولا خلل فى تشريعاته لقول الله تعـالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القـمـر: ١٧]. . وأحكام الإسـلام مَشَاع بين الجميع يتوارثهـا الأبناء عن الآباء وهى واضحة جلية فى مصادر ثـابتة مصانة عن التبديل والتغيير وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

٤ ـ الثبات والمرونة. .

الثبات مطلب عزيز وغالٍ. . يمنح الشريعة شرعية قوية ثابتة لا تنسخها شريعة أخرى. . ولكننا نلحظ أن جميع التشريعات والقوانين يلاحقها الاضطراب والخلل وتصادم المصالح. . لكننا والحـمد لله لم نلحظ ذلك فى الشـريعة الإسلامـية فـهى ثابتة راسخـة لا تتغـير ولا تتبدل. . أمـا المرونة فإن التغيـير مطلب ملح لمواجهة الحوادث المتـجددة والمتغيـرة والشريعة الإسلامية لا توصف بالجمود ولا تقف عاجزة أمام الحوادث والقضايا. . والجمود عيب كبير ولا يمكن أبدًا أن توصف الشريعة بهذا.

من هنا نؤكد على أن الإسـلام شريعته خـاتمة. . وقد أودع الله فى هذه الشريعـة عنصر الثبات والخلود وعنصر المرونة والتطور. .

فالثبات على المصادر الرئيسية. . القرآن والسُّنَّة ما كان منها قطعى الدلالة والثبوت. .

والمرونة ما عـدا ذلك من مصادر فـرعية مـتجددة كـالعرف والمصلحـة العامة والقـياس والاستحـسان. . وهذه الأشيـاء لا تتعارض أبدًا مع النص وإنما يُلجأ إليـها حسب اقتـضاء المصلحة زمانًا ومكانًا وحالاً. . وقـد عقد ابن القيم فصلاً فى تغييـر الفتوى بحسب ظروف الزمان والمكان، قال فيه: «هذا فصل عظيم النفع جدًا وقد وقع بسبب الجهل به غلط عظيم على الشريعة أوجب من الحرج والمشقة وتكليف ما لا سبيل إليه ما يُعلم أن الشريعة الباهرة التى فى أعلى رتب المصالح لا تـأتى به فإن الشريعة مـبناها وأساسهـا على الحكم وصالح

(١) تفسير ابن جرير (٣/ ١٤٢).

العباد فى المعاش والمعاد.. فهى عدل كلها ورحمة كلها ومصالح كلها وحكمة كلها فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور وعن الرحمة إلى ضدّها وعن المصلحة إلى المفسدة وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة وإن أُدخلت فيها بالتأويل»[1].. ومن هنا كان كبار الفقهاء ينصون على تغيير الأحكام بتغير الزمان والمكان وكانوا يسيغون تغير الاجتهاد فى المسألة الواحدة من وقت لآخر ونذكر أن الإمام الشافعى كان له مذهبان مذهب بالعراق ومذهب فى مصر لأنه نظر إلى تغير الظروف والبيئة والمكان..

٥ ـ الإنسانية والشمول :

الشريعة الإسلامية ربّانية من حيث المصدر والوجهة والغاية.. ومع ذلك فإنها تخاطب الإنسان وتنبهه إلى خصائصه وتضع له من التشريع ما يلائم الجانب الروحى والجانب المادى وتدعوه إلى أن يقيم الاعتدال بين الجانبين لأن الإسلام يمقت الرهبنة كما يمقت العمل الذى يضيّع حقوق الله ويعتدى صاحبه على حقوق الناس.. لهذا كانت دعوة الإسلام قائمة على ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

والشمول.. فالشريعة الخالدة نزلت لتطبق فى كل زمان ومكان فهى تشمل كل ما يهم الإنسان فى حياته.. عقيدة وشريعة أخلاق ومعاملات كما أنها توضح للإنسان خط سيره.. من قبل أن يولد ثم وهو جنين فى بطن أمه وطوال حياته وبعد مماته.. إن الشارع الحكيم ترك لنا أمور دنيانا لنتصرف فيها على حسب المصالح لأن الناس أعلم بأمور دينهم مثل تقليم الأشجار وغرس النباتات وتحديد إشارات المرور إلى غير ذلك مما هو جارٍ فى حياة الناس فقد أوكلت الشريعة إلى الحاكم تنظيم هذه الأمور بما يتطلب الأمر لأن الناس كما يقول الرسول ﷺ أعلم بأمور دنياهم وقد قال الرسول ﷺ: «ما أحلَّ الله فى كتابه فهو حلال وما حرّم فهو حرام وما سكت عنه فهو عفو فاقبلوا من الله عافيته فإن الله لم يكن لينس شيئًا وقرأ قول الله ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾»[2]..

إن الشريعة الإسلامية معصومة من التناقض والتطرف والاختلاف كما أنها بريئة من الجور والتحيز والهوى متميزة بالسهولة وكل ذلك يضفى عليها احترامًا وقدسية وتتقبل أحكامها النفوس وهى راضية وتسارع إلى ما جاء فى تنفيذ هذا المنهج ونضرب على ذلك

---

(١) إعلام الموقعين لابن القيم، (٣/٣) وما بعدها.

(٢) الآية ٦٤ من سورة مريم، والحديث رواه البزار والحاكم.

مثلاً:

الخمر.. كانت مباحة ويشربها الناس ليل نهار، وكانت مختلطة بدمائهم عالقة بأفكارهم مسيطرة على حَواسِّهم.. فلما أنزل الله تحريم شرب الخمر وتحريم بيعها وصناعتها والاتجار فيها استجاب الصحابة فوراً ولم يترددوا بل إن بعضهم كان الكأس على فمه يرشف منه فلما سمع آية التحريم ألقى بالكأس من فيه وهو يردد (انتهينا يا ربنا) وذهب كل واحد إلى بيته وأخرج المخزون من الخمر وأراقه في الطريق بل كان بعض المسلمين في سفر وقد احتملوا الكثير من الخمر للشرب والبيع فلما علموا بتحريمها وعلموا أن ثمنها حرام أراقوا ما معهم وقالوا (انتهينا يا ربنا)[1]..

ولا ريب أن الصحابة لم يخافوا من انهيار اقتصاد المجتمع المدنى لأنهم يعلمون أن الحرام أكثر خطورة على المجتمع وعلى اقتصاده.. أما الحلال والالتزام بما أمر الله فهو الشىء الذى يعمّر ويحفظ الاقتصاد لأن الالتزام بقول الله تعالى والعمل بشرعه يحقق الأمن والأمان والاستقرار، وانظر مثلاً إلى السياحة مصدر من مصادر الدخل القومى تحقق ثروة طائلة وتُغنى الناس وتعدل الميزان الاقتصادى للبلد.. لكن لو أن السياح دخلوا عرايا ونشروا الرذائل فى المجتمع وأفسدوا الأخلاق فإن الله يقول للمسلمين امنعوهم عن دخول بلادكم ولا تخافوا الفقر.. لأن انهيار الأخلاق والفساد فى الأرض هو الفقر الحقيقى للأمة وأنا الله القوى القادر سوف أغنيكم من فضلى إن التزمتم بأوامرى وسرتم على هدى الأنبياء، يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

كفالة الحقوق

الحقوق فى الإسلام ليست منحة من حاكم أو تشريعًا من منظمة دولية أو قرارًا صادرًا من سلطة محلية وإنما الحقوق لكل إنسان ملزمة بحكم مانحها الإله الأعظم (الله) لذلك لا يسمح بالاعتداء عليها ولا يجوز التنازل عنها.. إن الحقوق للإنسان لا يستطيع العيش بدونها وهى المدخل الصحيح لإقامة مجتمع حر، الناس فيه سواسية فليس فيه امتياز لفرد دون آخر.. فالمجتمع الحر يتمتع فيه الجميع بالمساواة.. مجتمع يتساوى فيه الحاكم والرعية على قدم المساواة أمام القضاء.. مجتمع يرفض كل ألوان الطغيان ويضمن لكل فرد فيه

(١) مختصر تفسير ابن كثير للصابونى (٢/ ٥٤٦).

الأمن والحرية والكرامة والعدالة.. مـجتمع السلطة فيه أمانة فى عنق الحـاكم ليحقق الحرية لكل فرد ويطبق الـعدالة على الجمـيع مجتـمع الأسرة فيـه هى النواة لذلك فهو يحـوطها بحمايته وتكريمه ويهئ لها كل أسباب الاستقرار والتقدم.. وهذه الحقوق قد أرسى دعائمها الإسلام منذ خمسـة عشر قرنًا فهى أقدم من الإعلان العالمى لحـقوق الإنسان الذى أصدرته هيئة الأمم المتحدة بل هى لم تستطع أن تحافظ على هذه الحقـوق فتحت رايتها كم اغتصبت بلاد وسفكت دمـاء وشرد الملايين حيث باتوا فى العراء بلا مـأوى ولا غطاء ولا طعام ولا شـراب.. وفى مـجلس أمنهـا كم أهـدرت كرامـات، وكـم رسمـت من الخطط للغـدر بالآمنين.. وفى مـحكمة العدل الـدولية كم أصبح الـظالم مظلومًا والمظلوم ظالمًا.. لكنك عندما تتأمل حـقوق الإنسان فى الإسلام ترى الكرامة الإسـلامية محفوظة والمسـاواة مطبقة بكل صورها حتى الكافـر الذى لا يدين بالإسلام تجده فى بلاد الإسلام مـوفور الكرامة لا يعتدى على نفسـه وعلى ماله وعرضه.. كما أن المرأة كذلك صان الإسـلام كيانها وحافظ على شخصيتهـا فلها شخصيتها الكاملة واستقلالـها المالى.. وهكذا نجد أن حقوق الإنسان مكفولة حـتى فى الاعتـقاد فلكل إنسـان أن يؤمن بما شاء بشرط ألآ يـتلاعب بالأديان ولا يتعرض بدين آخر للتطاول عليه.. وهكذا نجد أن رسالة سيدنا محمد العالمية الخالدة جاءت لإصلاح الدنيا على أساس الدين وتعالوا بنا نقف مع سيدنا محمد من أول لحظة فى تاريخ الدعـوة الإسلامـية لنرى كـيف خطط لقـيام الدولة ووضع الأسس الـتى تنجحـها مـثل: السفارة.. العمل الدبلوماسى.. مخاطبة الملوك.. الحروب.. المعاهدات إلى غير ذلك من شئـون الدولة التى أرسل الله رسله ليقيمـوها كل فى مجتـمعه.. حتى إذا كـانت الرسالة الخاتمة كان الشمول والثبات والمرونة والاستقرار.

* * *

الفصل الثانى

بـــدء الدعـــوة

رسول الله محـــمد ﷺ شخصــية عظيمة. . وتأتى عظمــته. . لحسن أخلاقـه فلقد كان يعيش على أرض مكة والذين فى مثـل سِنّه يشربون الخمر ويلعبون الميـسر ويطاردون النساء ويعملون بكل قــوتهم على إذلال الضعيف وسلب حق الآخــرين. . أما سيدنا مــحمد ﷺ فهــو الشخص الكامل فى أخلاقـه. . يعطف على الضعـيف ويساعده ويأخـذ بيده ويحنو عليه. . لم يشرب خمرًا ولم يعرف العرب الذين يعايشونه أنه طارد امرأة أو نظر إليها بريبة وإنما كانوا يلحظونه وهو يغض بصره حـياءًا. . ثم ما كان يتمتع به من حـلم وسعة الصدر وبعد النظر والوفاء والصدق والأمانة بل كان يشترك مع الكبار فى تأسيس (حلف الفضول) الذى تم تأسيسه فى دار عبد الله بن جدعان حـيث تحالف أهل الفضل مع بعضهم وتعاقدوا أن ينصروا المظلوم من أى جنس كان وأن يـطعموا الجائع وأن يساعدوا الضـعيف. . ويقول ﷺ: «لقد شهدت مع عـمومتى حلفًا فى دار عبد الله بن جدعـان ما أحب أن لى به حمر النعم ولو دعيت به فى الإسلام لأجبت. .»، ذلك لأنه عليه الصلاة والسلام مبعوث بمكارم الأخلاق. . وهذا الحلف يشبه الآن (الجـمعيات الخيرية). . لقد كـان عليه الصلاة والسلام أحسن قومه خلقًا وأبعدهم عن الفُحش والأخلاق التى تُدنِّس الرجال حتى كان أفضل قومه مروءة وأعظمهم حلمًا وخيـرهم جوارًا وأكرمهم مخالطة وأصدقـهم حديثًا وأعظمهم أمانة وكان مع ريعان شبابه وفتوته وقوة عضلاته يتسم بالتواضع والجود والكرم والعفة والحياء. .

وهذه هى صفات الزعامة والمؤهلات التى يحملها القائد العظيم. .

هذه الشخـصية الكريمة التى لم يبـرز فى التاريخ من يدانيهـا. . عندما بلغ الأربعين من عمره. . اختاره الله تعالى ليكون رســولاً للعالمين. . وقد كان هذا الرجل العظيم حُبِّبَ إليه الخلاء. لأنه كان يتألم نفسيًا مما يراه فى المجتمع من عمل لا يليق. . لذلك كان يخلو بنفسه فى غار حراء. . يفكر فى الكون وما فـيه ويتأمل لتصفو نفسه وتســمو روحه. . وبينما هو فى حالة نفـسيــة هادئة مستـقرة فـاجأه الملك جبـريل، وقال له: (أبشـر يا محــمد. . أنا جبريل. . وأنت رســول الله إلى هذه الأمة) ثم قال له (اقرأ) فقــال. . ما أنا بقارئ. . لأنه عليه الـصلاة والسلام أُمِّى لم يتـعلم القراءة ولم يـتعلم الكتــابة. . لكن جبريـل ضمّه إلى صــدره بشدّة ثـم أرسله وقــال لـه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٥]. . وانصــرف

الملك.. ورجع محمد ﷺ إلى زوجته الأصيلة الكريمة العفيفة الطاهرة (خديجة بنت خويلد رضى الله عنها).. وكان يرتعش جسده من شدة الخوف بعد مقابلة المَلَك وقال لخديجة زملونى زملونى.. أى لفونى فى ثوبى وغطونى ليزول عنه الخوف الذى ألَمَّ به.. فلما هدأت نفسه أخبر خديجة بما حدث، وقال لها: لقد خشيت على نفسى.. لكنها قالت له بلغة الواثق المطمئن.. لماذا تخاف؟.. (والله لن يخزيك الله أبدًا.. ثم بررت هذا بقولها.. إنك لتَصِل الرحم وتحمل الكَلّ وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق فلا يسلِّط الله عليك الشياطين والأوهام).. إن خديجة ألصق الناس بمحمد فهى زوجته تعرف عنه ما لا يعرف الغير.. لذلك عبرّت بكلمات لترسم أمام عينيك شخصية الرجل العظيم الذى يتمسك بالأخلاق ويعيش بها ولها ومن أجلها.. إن بعض الناس يظهرون فى المجتمعات بأخلاق غير التى يتعايشون بها فى بيوتهم.. وهذا هو انفصام الشخصية لكن الرجل الكريم يعيش فى المجتمعات وفى بيته وفى خلوته بنفس الأخلاق وهذه هى الشخصية الكاملة المتكاملة ولن تكون إلاّ لسيدنا محمد..

ورقة بن نوفل

رجل يعرف القراءة والكتابة وقد اطلع على كتب الأقدمين وكان قد تنصَّر فى الجاهلية وله إلمام بالإنجيل والتوراة.. خديجة بلباقتها وحُسْن تفكيرها اصطحبت النبى العظيم معها وذهبت إلى ابن عمها ورقة.. وقالت لمحمد قُصّ على ورقة ما حدث.. وتكلم محمد وأنصت ورقة وعندما انتهى النبى من كلامه صاح ورقة: (هذا هو الناموس الذى نزل على موسى، يا ليتنى فيها جذعًا (شابًا جلدًا) إذ يخرجك قومك.. فاستغرب عليه الصلاة والسلام من قول ورقة ومحمد يعلم أن قومه يحبونه لاتصافه بمكارم الأخلاق حتى أطلقوا عليه الصادق الأمين.. لذلك سأل النبى ورقة وقال: أومخرجىَّ هم؟ قال: نعم.. لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلاّ عُودى.. وإن يدركنى يومك أنصرك نصرًا مؤزّرًا)..

ونظرًا لأن ورقة كان شيخًا كبيرًا قد كُفّ بصره لم يلبث إلاّ قليلاً حتى توفى..

لقد عرف محمد من أول لحظة أنه سيهاجر من مكة إلى بلد آخر وسوف يحمل معه أمانة الله التى حمَّلها إيَّاه.. لهذا فإن الأمر يتطلب الاستعداد.. وإذا كان هو قد تهيّأ نفسيًا للهجرة فسوف يترك الأمور إلى أن ينجلى الموقف قليلاً ويمدّه الوحى بما يحدد على هُداه خطاه..

ولقد توالى الوحى على رسـول الله ﷺ وكلف بتبليغ الدعوة. . وفى ذهنه كـلام ورقة عن الهجرة. . إذًا فليبدأ فى إعداد العدة والاستعداد لما سوف تكشف عنه الأيام. .

تربيـة الرجـال

القائد الـعظيم هو الذى يحرص على إعـداد جيل من الكوادر المتـميز لحـمل المسئـولية والنهوض بأداء الدور الذى يؤديه الإنسان على مسرح الحـياة ومحمد أعظم العظماء. . وهو رسول الله على الأرض إذًا فليبدأ فى إعداد قيادات طبـيعية من الشباب. . لأنهم أقدر على الفهم والاستيعاب وعندهم قـدرة على سرعة الحركة. . لذلك بدأ النبى يفكر. . وهو يدعو ويبلِّغ سِرًا وقد آمن به. .

١ ـ من النساء. . خديجة.

٢ ـ من الرجال. . أبو بكر.

٣ ـ من الصبيان. . على.

٤ ـ من العبيد. . زيد بن حارثة.

على أكتاف هؤلاء بدأت الحركة الاجتماعية لتوصيل الدعوة الإسلامية إلى مسامع الناس (سِرًا) وبدأت الدعوة تأخذ مجالها العالمى وذلك على الوجه الآتى:

١ ـ من إفريقيا. . وهى قارة كبيرة. . أسلم «بلال».

٢ ـ من الروم. . وهى قارة أوربا. . أسلم «صهيب».

٣ ـ فارس. . وهى كذلك دولة فى قارة عظيمة أسلم «سلمان».

ماذا يعنى هذا؟. . يعنى أن الدولـة بدأت تأخذ شكلها العـالمى وإن كانت محبـوسة فى قلوب مَنْ آمنوا بالدعوة أولاً. . ولقد قلنا بأن الداعية الأول له فكر ثاقب وعنده بعد نظر. . إذًا فليتخذ مقرًا يجتمع فيه هو ومن آمنوا به وصدّقوا برسالته ليبلّغهم أولاً بأول ما يتلقاه من وحى الله وقد وقع الاخـتيار على (دار الأرقم) وهى فى الحقـيقة أول جامـعة تخرج فيـها فحول العلمـاء والقيادات الطبيعـية التى تأصّلت فيها العـقيدة وتهيّأت أنفسـهم لتحمل كل صنوف العذاب دون التـخلى عن العقيدة أو البعـد عنها مهمـا كان الثمن ﴿**رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ**﴾ [الأحزاب: ٢٣] والذين تعلموا فى دار الأرقم استطاع كل واحد منهم أن يؤثر فى غيره. . فلقـد قامت خديجة بدور رائد بين النساء. . كـما قام أبو بكر بدور عظيم بـين الرجـال. . كما قـام على بن أبى طالب بدور هـام جدًا بين الفتيان والشـباب وكذلك

زيد بن حارثة . . وبدأت قريش تعرف أن محمـدًا يقوم بدور خطير جدًا وله الآن أتباع لكن معظمهم من الفقراء والعبيـد وقليل جدًا من أغنياء القوم وساداتهم وبدءوا يخططون لوقف هذا التيار الجديد.

التعذيـب

بدأ المشركون يصبون غضبهم على الضعفاء والعبيد وحدثت سلسلة ضخمة من التعذيب لمن آمن بمحمد . . وبدأ المشركـون يبتكرون أساليب جديدة وطرقًا غير معـروفة فى التعذيب لكن المفاجأة التى هزّت أعماق المشـركين أن المسلمين تحملوا هذا العذاب بِجَلَد وصبر . . بل إن المسلمين كانوا وهم تحت العذاب يسخرون من المشركين ويستهزءون بهم.

المقاطعـة

أسلوب جديد للضغط على النفس لأن المشركين تعاهدوا مع بعـضهم أن يقيموا حصارًا على المسلمين لا يبيعون لهم ولا يشتـرون منهم ولا يتزوجون من نسائهم ولا يزوجونهم . . ودام الحصـار فترة لاقى فـيه المسلمين العنف والإرهاق ومع ذلك صـبروا وكانوا أصـحاب عزيمة قوية وإرادة لا يـؤثر عليها الضغط النفـسى والعصبى . . وكما فـشل أسلوب العذاب فـشل كذلك أسـلوب المقاطعـة . . لأنه مع هذا كـان المسلمـون يزيد عـددهم فى كل يوم بالعشرات . .

المسـاومـة

لقد تيقن المشركون أن محـمدًا يفكر فى إنشاء دولة لأن إعداد هذه الكوادر بهذه الصورة أمر يسترعى الانتباه ويلفت النظر . . إذًا هناك تصـور فى ذهن محمد . . ولكى نتعرف عليه فلابد من استـقراء فكر محمـد . . لذلك أرسلوا إليه وفدًا من عظمائهم يسـاومونه على أن المشركين يريدون أن يجلسوا معك بشرط:

١ ـ سادة قريش وأغنياؤها يريدون منك أن تطرد الفقراء والعبيد من حولك.

٢ ـ إذا كنت لن تقـبل طرد الفقـراء فـاجعل لنا يومًا ولهم يـومًا لأنه لا يليق بنا ونحن السادة والعظماء أن نجالس الفقراء والمساكين.

٣ ـ فى أثناء هذا النقاش وعرض هذه الأمور جاء عبد الله بن أم مكتوم وهو رجل أعمى يقول لرسول الله ﷺ: «علمنى ما نزل عليك من الوحى» فتغامز المشركون وضحكوا ولسان حالهم يقول أبمثل هذا ينجح محمد؟ ويجيبون على أنفسهم.. لا.. واصبروا فغدًا يموت.

النبى محمد ﷺ تأثر نفسيًا لكل هذه العوامل.. ولأنه مسدد الخطى موجه بأمر الوحى انتظر الإجابة من السماء التى جاءته تبيّن له معالم الطريق الحق وعليه أن يتبعه ولا يحيد عنه وذلك.

١ ـ بالنسبة للبند الأول.. جاء الرد: ﴿**وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ [الأنعام: ٥٢].. إذًا طلبكم مرفوض يا أهل الغنى والثراء.. فالرجل يُقدّر بخلقه ولا يُقدّر بماله..

٢ ـ بالنسبة للبند الثانى.. جاء الرد على الوجه الآتى: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا * وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾ [الكهف: ٢٨، ٢٩].

إذًا فطلبكم يا أهل مكة مرفوض لأن الحق له وجه واحد يقابل الناس جميعًا بلا تفرقة.

٣ ـ بالنسبة لعبد الله بن أم مكتوم.. يا أهل مكة لماذا تسخرون منه؟ إن العاهة التى به ليست من صنع يده.. ولكن هذا قدر الله.. والرجل الفطن الذكى يرضى بقضاء الله وقدره.. وأنت يا محمد لِمَ تشيح بوجهك عن الأعمى وهو عند الله عظيم يساوى آلاف الرجال الذين هم أمامك فهذا الأعمى جاء إليك يسعى يطلب العلم.. أما هؤلاء فقد جاءوا يساومونك فَلِمَ تميل إليهم وقد وضّح الله ذلك بقوله: ﴿**عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ * أَن جَاءَهُ الأَعْمَىٰ * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ * فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ * وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّىٰ * وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ * وَهُوَ يَخْشَىٰ * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ**﴾ [عبس: ١ ـ ١٠].

إنه عتاب رقيق وفيه يكشف عن معادن الرجال ويبيّن أن الرجل بقلبه وفكره وعلو همته وحُسْن أخلاقه لا بمنصبه وجيبه وعدد ما يمتلك من أسهم وسندات.. إن بناء الدولة يحتاج إلى العناصر المؤمنة المخلصة الصادقة والاعتماد على أصحاب العقيدة وليس على أصحاب الخزائن والأموال.

إن التفكير فى إنشاء الدولة بدأ يتسع رويدًا رويدًا خاصة وأن عدد المسلمين بدأ يزداد لذلك لابد من نشر الدين والإعلان عن مبادئه فى أرض جديدة فإلى أين وما هى؟.

الحبشة

أفريقيا موقـعها على الخريطة موقع استراتيـجى هام ذات خصب ونماء تتصل بالعالم كله عن طرق. . برية وهى وعرة وليست سهلة. . بحـرية وتتسم بالأمان. . وكذلك هناك بلاد تجارية يفد إليها التـجار. . وكان بُعد النظر من سيدنا محمد أن اختـار من قارة أفريقيا البلد التجارى الذى له صلة بالبحر ووسائل النقل إلى قارات العالم فاختار الحبشة وقال لأصحابه اخرجوا إليها فإن بها ملكًا لا يُظلم فى جواره أحد. . وقد أراد الرسول ﷺ بهذا التوجيه:

١ ـ أن يخفف الأذى عن المسلمين الذين لاقوا عذابًا أليمًا من المشركين.

٢ ـ أن الحبـشة ملكها نـصرانى. . والنصارى أقـرب مودة للمسلمـين وعندهم رقة فى قلوبهم وعاطفة إنسانية فى تعاملهم.

٣ ـ الحبـشة سوق تجـارى عالمى وبتـواجد المسلمين بأرض الحبـشة سيـحتكون بالتـجار ويعرضون عليهم أفكارهم وما حمله النبى ﷺ من وحى وبـلّغه إليهم. . ولهذا فإن التجار سوف ينشـرون ما سمـعوه ويأتى من وراء ذلك نتيـجة عظيمة وفـوائد متعـددة. . وكانت الهجرة إلى الحـبشة فى أول الأمر بعدد مـحدود. . فلما وجد المسلمون الأمن والاسـتقرار وعاد بعـضهم وبقى بعضـهم كانت هناك هجرة ثانيـة، وفى الوفد الثانى اخـتار النبى ﷺ جعفـر بن أبى طالب ليكون سفيرًا فـوق العادة والمتحدث الرسمـى باسم الإسلام. . ولقد أحسن جعفر صنعًا فعرض الإسلام بأسلوب رائع مما جعل ملك الحبشة يقسم أن هذا والذى جاء به عيسى بن مريم يخرج مـن مشكاة واحدة. . وقد أمَّنَ النجاشى المسلمين الذين نزلوا على أرض بلده ومنحهم حرية التنقل فى مملكته والحديث إلى من شاءوا. . وبهذا الأسلوب استطاع المـسلمون أن ينقلوا فكرهم إلى التـجار الذين سـاحوا فى قارات الدنـيا آنذاك وكل ينقل ما سمع.

وفـد نجـران

إذا كان الرسول ﷺ ببعد نظره قد وجَّه أصحـابه إلى الهجرة إلى الحبشة وهو مع بعض أصحـابه فى مكة يعانون ما يـفعله المشركـون من ظلم بهم وإجحاف عليـهم، ولكن النبى العظيم لم يَنْسَ أبدًا أنه يبنى أمـة ويؤسس دولة. . لذلك اسـتقبـل وفد من نصـارى نجران حيث بلغهم خبر النبى ﷺ من بعض التجار العائدين من الحبشة[1]، وهذا الوفد أول ثمرة

(١) نور اليقين للخضرى ص٧٢.

تُجنى من ثمار رحلة الحبشة وكانوا قرابة عشرين رجلاً وقد آمنوا كلهم. . فقابلهم أبو جهل يسفِّه رأيهم ويتطاول عليهم لكن أحدهم ردّ عليه بقوله (سلام عليكم لا نجاهلكم) وقد أنزل الله ما يوضح ذلك فى سورة القصص وهى من السور المكية، يقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٢ ـ ٥٥]

ولك أن تتأمل فى هذا لتتعرف على عظمة الإسلام وكيف أنه يُنير النفس ويُهدِّئ الخاطر من القلق والاضطراب.

وفـد دوس

كذلك قَدِمَ على رسول الله ﷺ وهو بمكة يعانى ما يعـانى من الظلم والاضطهاد استقبل (الطفيل بن عمرو الدوسى) وهو من أشراف قومه شـاعرًا نبيلاً فأسلم وَحَسُنَ إسلامه وكان ممثلاً لقومه وقبيلته وقد رجع إليهم فأسلموا جميعًا[١].

هجـرة الطائـف

مرَّ الرسول ﷺ بفترات عصيبة كان أصعبها على نفسه هذا العام الذى تُوفيت فيه السيدة خـديجة رضى الله عنهـا وكذلك توفى أبو طـالب والاثنان كانا مـرفأ أمن لـه. . وعـامل استقرار نفـسى. . ولقد توفيا فى عام واحد وسمَّى النبى ﷺ هذا العام بـعام الحزن واشتد سعار قريش حتى كانوا ينثرون التراب على رأس رسول الله ويضعون أوساخ الشاة عليه فى صـلاته. . وكانوا يتـجـاذبونه بشـدة ويقولون له (أأنت الذى تـريد أن تجعل الآلهـة إلاهًا واحدًا؟) ويرفعون أصواتهم فى وجهه ويشيـرون إليه قائلين. . كما يقول القرآن: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

فى وسط هذا الجو المكفهر المشحون بالكره والبغضاء ترك النبى ﷺ مكة واتجه إلى قبيلة ثقيف بالطائف (بلد فى الجنوب الشرقى من مكة) وكان ﷺ يرجـو منهم نصرته على قومه ومسـاعدته له حتى يُبلغ وحى الله. . وقـد قصد بهذا الخـير لأهل الطائف ومسـاعدتهم له

---

(١) نور اليقين للخضرى ص٧٨.

لأنهم أقرب الناس إلى مكة وبالطائف أخوال النبى ﷺ لكـن أهل الطائف كانوا أسوأ حالاً من أهل مكة فرموه بالحجارة وتطاولوا عليه وجمعوا له النسـاء والصغار والسفهاء يصيحون فى وجهه ويقذفونه بأفظع الكلمات ويرمونه بالحجارة، فلما بلغ به التعب واشتد به الكرب جلس تحت شجرة ليسـتظل بها وكانت الشجرة بجوار بسـتان لعتبة وشيبـة ابنى ربيعة وهما من أعدائه. . وقد رفـع يديه إلى السماء وهو يقول: «اللهم إنى أشكو إليـك ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى إلى مَنْ تكلنى إلى بعـيـد يتجـهمنى أم إلـى عدو ملّكتـه أمرى إن لم يـكن بك غضب علىّ فـلا أبالى»[1].

موقـف مؤثـر

عتبة وشيـبة كانا فى بستانهما ينعمـان وقد سمعا ورأيا ما يقول محـمد وموقفه فى أهل الطائف وكانـا من ألد أعدائه وخصـومه لكنهـما تأثرا بما سمـعاه ومـا رأياه. . ولقد دبّت الرحمة فى قلبيـهما وظهرت الشفقة عليهمـا بما تأثرا به لذلك أرسلا بعنقود من العنب مع خادم لهما نصرانى يُسمّى عـدّاس وبدأ الرسول ﷺ يأكل من العنب مبتدءًا بقوله (بسم الله الرحمن الرحـيم) فقال عدّاس هذا كـلام ما يقوله أهل هذه البلاد فـسأله النبى ﷺ من أى البلاد أنت ومـا دينك؟ قال. . نصـرانى من نينوى. . فقـال ﷺ من قرية الرجل الـصالح يونس بن متى؟ فقال عدّاس. . وما علمك بيونس؟ قال: هو نبى وأنا نبى. . وأسمعه قصة يونس من القـرآن. . فلما سـمع ذلك أسلم[2]. . وهذا خـير كـثيـر. . فكأن الرحلة أتت ثمارها وفضل الله كثير وخيره عظيم.

رحمـة

بعث الله النبى محمدًا ﷺ رحمة للعالمين يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبيـاء: ١٠٧]. . لكن النبى ﷺ أُوذى أذى كـثـيـرًا من أهـل الطائف. . لذلك روى البخـارى أن عائشة رضى الله عنهـا قالت لرسول الله ﷺ: (هل أتى عليك يوم كـان أشد عليك من يوم أحد؟ قـال. . لقد لقيت من قومك وكـان أشد ما لقيت منهم يوم العـقبة إذ

---

(١) المرجع اسابق ص٧٦.

(٢) المرجع السابق ص٧٧.

عرضـت نفسى على ابن عـبد ياليل (وهو مـن زعمـاء الطائف) فلم يجبنى إلى مـا أردت فانطلقت وأنا مهمـوم على وجهى فلم أستفق إلاّ وأنا بقرن الثعـالب فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلّتنى فنظرت فـإذا فيها جبريل عليه السلام فنادانى فـقال إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردّوا عليك وقـد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شـئت فيهم فنادانى ملك الجبال فسلّم علىّ ثم قال.. يا محمد.. قد بعثنى الله إليك، وإن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجـبال قـد بعثـنى إليك ربك لتأمـرنى بما شـئت.. إن شئت أطبق عليـهم الأخشبين (الجـبلين)؟ فقال رسول الله ﷺ «أرجو أن يخرج الله من أصـلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا»[1] [أخرجه البخارى ومسلم].

هذا هو معدن النبوة وكرامة النفس المؤمنة وسماحة التقى النقى، إنه يرجو السلامة لكل البشر حتى لإعدائه.. وهذا هو المعدن الأصيل وبه يقتدى الناس فى أفعالهم وسلوكهم.

* * *

(١) المرجع السابق ص٧٧.

الفصل الثالث

الجـــن

عالم من خلق الله. . غـيبى عن أعيننا لا نراه على أصل خلقتـه. . وهذا العالم يشكل مجتمعًا يتعايشون مع بعضهم لهم نظام حـياتهم ونظم معيشتهم وهم مكلفون مثلنا تمامًا. . فقـد أوجب الله عليهم ما أوجـب علينا. . والنبى ﷺ عائد من الطائف وكـان بواد يسمّى نخلة وفـد عليه نفـر من الجن، وكان ﷺ يقـرأ القرآن. . فلمـا انتهى الرسـول من تلاوته رجعوا إلى قـومهم فأخبروهم بما اسـتمعوا إليه وفـيهم نزل قول الله حيث يقول سـبحانه: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩ ـ ٣٢].

وهكذا يتبيّن لنا أن الحق سـبحانه يجمع على نبـيّه العديد من الإنس والجن. . لهذا وإن كان ينزل العـذاب على النبى وأصحابه ويُضيّق عليـهم إلاّ أن المؤمنين يزداد عددهم كل يوم وتقوى شوكتهم.

إنه خـلال المرحلة المكية كـان مع الفتـح على الآفاق الدوليـة تربية الرجـال وصهـرهم وتدربهم على حمل المسئولية بكفاءة واقتدار. . وهكذا يكون الإعداد للتغلب على الأزمات والقدرة على مواجهة المشاكل وحلّها وإيجاد البدائل تيسيرًا لمهام الدولة وتعظيمًا لشأنها حتى يحتمى بها الصديق ويلجأ إليها العدو.

التخطيط والتنظيم

بدأت الدعوة تتخذ مسارًا عظيـمًا. . وتخطت الحدود وتغلبت على الكثير من الصعاب، إذًا لابد من التخطيط لبناء الدولة لتكون شـامخة لها نشيد قومى وعلم ولـها كل المؤسسات التى تؤدى دورها لحـماية الحق ونشر العـدل. . لهذا اتجـه النبى ﷺ إلى عرض نفـسه على القبـائل خاصة فـى موسم الحج وقَدِمَ وفد من (يثـرب) وعرض النبى ﷺ عليـهم الإسلام فقبلوه وطلبوا من النبى ﷺ أن يُوفد معهم من يفقههم فى الدين ويتلو عليهم القرآن. . وهنا اختـار النبى ﷺ (مصعب بن عمـير) وهو شاب يتـميز بالحصـافة وبعد النظر وعلو الهـمة

واللباقة فى الحديث والكياسة وذهب مصعب إلى يثرب وبدأ يتعرف على كافة الاتجاهات ويضع عينه على الشخصيات البارزة ذات الثقل الجماهيرى والتى تتميز بشعبية عظيمة لذلك تعامل مع سعد بن معاذ وهو رئيس قبيلة الأوس وسيد قومه وقد أسلم وبفضل ذكاء مصعب أسلم العديد من رجال الأوس والخزرج وانتشر الإسلام فى يثرب ودخل فى كل بيت. . وعاد مصعب فى العام الثانى ومعه الكثير من رجال يثرب ونسائها. . وبفضل التخطيط الجيد والسفير فوق العادة مصعب بن عمير كان النجاح العظيم وبدأ التخطيط للهجرة.

غربلة

لا تقوم الدولة إلاّ على أكتاف أصحاب العقيدة القوية. . ومن هنا قلنا بأن المسلمين كثر عددهم فى مكة فيهم ضعيف الإيمان وفيهم من أسلم طمعًا فى أى مغنم. . ولكى تنجح الدولة إذًا لابد من تنقية المجتمع من أصحاب العقيدة الواهية لتنحيتهم وحتى لا يتولى أحدهم قيادة عمل فيتخاذل فيه وتكون الطامة الكبرى، ولكن كيف يمكن غربلة هؤلاء ليميز الله الخبيث من الطيب. . كان حادث الإسراء والمعراج هو المحك الحقيقى لمعرفة أصحاب العقائد القوية والنفوس العظيمة من الضعفاء المتخاذلين وقد وقع حادث الإسراء والمعراج قبل الهجرة للرسول يقظة وبجسده وروحه. . وكان الإسراء من مكة إلى بيت المقدس فى جزء يسير من الليل والمعراج من بيت المقدس إلى السموات العلا حيث دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى. . والعبرة من ذلك:

١ ـ الاجتماع بالأنبياء فى بيت المقدس وإعلانهم مبايعة النبى ﷺ ومعنى ذلك انتقال النبوة وإلى الأبد من بنى إسرائيل ووضعها فى العرب الذين هم أقدر الناس على تحمل المسئولية وصيانة الحق والدفاع عنه.

٢ ـ التسرية عن رسول الله ﷺ وإطلاله على الملك والملكوت وتعريفه عن قرب بقدرة الله سبحانه الذى له ملك السموات والأرض.

٣ ـ فرض الصلاة عليه فى الملأ الأعلى بدون واسطة لتكون هدية الله إلى خلقه ومدد السماء إلى أهل الأرض.

ضعاف الإيمان تعجبوا وقالوا مسافة نضرب إليها الإبل شهرًا تقطعها أنت فى جزء من الليل وتعود وارتدوا عن الإسلام وقالوا لقد كان أمرك قبل اليوم سهلاً أما الآن فلا. . وكان ذلك بمثابة غربلة لأن الرسول ﷺ مُقْدِم على عمل جيد وبناء ضخم يقوم على أكتاف العمالقة من الرجال. . فالإسلام ليس لعبة الصغار.

وجه الرسول ﷺ الدعوة إلى الهجرة. . ولما كانت التنقية قد تمت فإن المسلمين الصادقين استجابوا على الفور وتركوا كل شيء في سبيل تنفيذ توجيهات النبي ﷺ. . ونجحت الهجرة وتمت بسلام وأمان وهاجر المسلمون دون ضغط عليهم أو إكراه. . وبعد أن اطمئن الرسول ﷺ على أصحابه هاجر هو الآخر وبدأ الوضع الاجتماعي يتخذ نمطًا جديدًا تصادفه عقبات مثل أزمة الإسكان. . أزمة المعيشة. . أزمة المواصلات. . وكانت كلها تُحل بروح التعاون والتفاهم والإيثار ذلك لأن الإيمان يصنع المعجزات وما أحلى طعمه في فم الإنسان. . وأنعم باليقين والإخلاص في وجدان الإنسان وأحاسيسه، كل ذلك نتيجة الإخلاص لله ولرسوله والحرص الشديد على المساهمة في وضع لبنة في المجتمع الجديد الذي يقام باسم الله ومن أجل الله وفي سبيل سعادة الإنسان ورفاهيته.

كان النبي ﷺ في مكة قد وضع بعض النظم الاجتماعية التي تنظم شكل السيطرة والسيادة. . فكانت هذه الحالة أشبه بتنظيم سياسي متطور. . إذًا عندما نتكلم عن الدولة الإسلامية في مكة نقول بأنها كانت تمهيدًا لتنظيم سوف يأخذ وضعه الطبيعي في النمو حتى تقف الدولة شامخة عندما تتهيأ لها الظروف وحتى لا يقال بأن الدولة الإسلامية قامت بطريق الصدفة. . ومن المعلوم أن القائد السياسي الذي يخطط لقيام دولة نقول عنه بأنه (رجل سياسي) ومعنى هذا أنه يتواجد وبشكل دائم بين الناس يعايشهم ويتعرف على مشاكلهم وتستهوى صفاته المؤيدين له عن قرب وتؤثر صفاته في المعارضين له. . والرسول ﷺ كان نبيا يوحى إليه وليس في حسبانه أبدًا أنه يطلب الزعامة لأن قريشًا عرضوا عليه هذا الأمر فرفض لأنه رسول مبلِّغ عن الله. . قدوة للناس في سلوكه لهذا. . عندما هاجر بدعوته من مكة كان في المدينة يخطط تخطيطًا دقيقًا لأنه وجد في يثرب أرضًا صالحة للدعوة ومن هنا بدأ يفكر في أمور ثلاثة:

١ ـ توحيد صف المسلمين لأنهم يتشكلون من عناصر ثلاثة:

أ ـ المهاجرون.

ب ـ الأوس. . وهي قبيلة لها شأنها وفيها شخصيات تتسم بالزعامة.

جـ ـ الخزرج. . وهم كذلك قبيلة لها شأنها وبها شخصيات فيها مقومات الزعامة.

من هنا كان لابد من إدماج هؤلاء في بوتقة واحدة ينصهر كيانها ليظهر منهم جميعًا الصف القوى والقيادات الطبيعية وعناصر القوة حتى يمكن الدفاع عن الدين والعرض

والوطن.. لهـذا آخى الرسول ﷺ بين كل اثنين واحـد من المهاجـرين وآخر من الأنـصار الذين تبوأوا الدار والإيمـان يحبون من هاجـر إليهم بنفس طيـبة وتسامح كـريم، وقد تمت الأخوة بصـدق ومن خلالهـا استطاع الرسـول ﷺ أن يتغلب على مشـاكل الإسكان وحل الأزمة الاقتصادية وسادت روح الأخوة الجـميع وبهذا تم ترتيب المجتمع الجديد على أساس إيمانى يتسم بالصدق والإخلاص.

٢ ـ العلاقة مع غير المسلمين.. يثرب بها يهود يتكون منهم طوائف ثلاثة:

أ ـ بنو قينقاع.

ب ـ بنو النضير.

جـ ـ بنو قريظة.

هذه الطوائف الثلاثة عـرض النبى ﷺ عليهم الإسلام فـأبوا، لهذا كتب مـعاهدة بينهم عاهدهم فـيها أنه ﷺ يقرهم عـلى دينهم مع صيانة أموالهـم وحريتهم فى ممارسة شـعائر دينهم.. وأهم بنود هذه المعاهدة هى:

أ ـ لليهود دينهم وللمسلمين دينهم.

ب ـ أن على اليهود نفقتهم.. وعلى المسلمين نفقتهم.

جـ ـ أن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم.

د ـ وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.

هـ ـ اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين وأن بينهم النصر على من دهم يثرب.

و ـ لا تُجار قريش ولا مَنْ نصرها.

ز ـ وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم.

ح ـ ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله ﷺ[١].

٣ ـ بناء المسجد.. لتـقام فيه الصلوات وهناك اعتبـار عظيم يجب أن نلتفت إليه هو أن المسجد أهم ركـيزة فى بناء المجتمع فـمع كونه موضع أداء الصلاة فهـو جامعة يتلقى فـيها المسلمون العلم مع تعليـمات الإسلام وتوجيهـاته ثم هو قاعدة لإدارة شئـون الحياة وبرلمان لعقد المجـالس الاستشارية والتنفـيذية.. وفى أوائل الهجرة شُرع الأذان الذى أصـبح نشيد الأمة الإسلامية فهو عُلوى الكلمات التى تدوِّى فى الآفاق كل يوم خمس مرات والتى ترتج لها أنحاء عالم الوجود.

---

(١) ابن هشام (١٤٧/٢) وما بعدها.

بهذه الحكمة وبهذه الحصافة وبُعـد النظر أرسى النبى ﷺ قواعد مجتمع جديد. . وعلى هذه الأسس استطاع النبى محـمد ﷺ أن يبنى هذا المجتمع. . أروع وأشرف مجـتمع عرفه التاريخ وأن يضع لمشاكل هذا المجـتمع الحلول. . وقضى على المشاكل الداخليـة وأصبحت الدولة متوافقـة الأجناس متناسقة وأصبحت بحق عاصمـة الإسلام. . كما وضع النبى ﷺ دستورًا لأهل المدينة وبه اكتملت معالم الدولة.

نمو الدولة الإسلامية

لا شك أن الدولة فى يثرب أخـذت وضعهـا واستقـرت وغير الرسـول اسم يثرب إلى (المدينة) لأنها أصـبحت أكثـر آمنًا واستقرارًا وتنظيـمًا وقد بدأت تنمو بسـرعة وتتطور وزاد حجم شعبها الأمر الذى فرض حكمه على الواقع فـاتسعت رقعتها وتطور بالتالى دستورها وتغيـر قانونها كل ذلك ليشـمل الأقاليم التى بدأت تنضم إلى المدينة. . ولقـد كان الوحى ينزل على رسول الله ﷺ فنزلت جميع النصوص المتـعلقة بـ «تنظيم الأسرة»، «المعاملات، بقية العبـادات، الحدود» وهكذا أخذ مجتمع المدينة يأخذ بكل مظاهر السـيادة فالدستور. . مقدس والقـانون واجب التنفيذ والحاكم أوامره نافـذة وسلطانه على كل فرد. . ومن خلال ذلك نشأت السلطة القـضائية وبدأت معالـم المصادر المالية تتضح إلى غـير ذلك من الأمور التى هى قوام الدولة.

مصادر الشرعية الدستورية
فـى الدولـة

لا شك أن الدولة الإسلامـية مصادر دسـتورها وقانونها من عند الله تعـالى بما شرع فى كتـابه وبما جاء على لسان رسـول الله ﷺ. . ونصوص الشرع مـحدودة متناهيـة وحوادث الزمان غـير متناهيـة، لذلك قررت الشـريعة مبـدأ (الاجتهـاد) ثم زادت مصادر الشـريعة الإسلامية، فدخل فيها (القيـاس والإجماع) بشرط ألاّ يتصادم مع نص ثابت من كتاب الله أو سُنَّة رسوله وأن يكون التـشريع مبنيًا على تحـقيق المصالح للمـسلمين ودفع الضرر عنهم ودرء المفاسـد ورفع الحرج. . ثم زادت بعد ذلك فى المجتـمع الإسلامى اللوائح التنظيمـية التى ترسم خطط التنظيم لحماية الفرد والجماعة. . إنه فى كل يوم تظهر حاجة المجتمع إلى تنظيم وقـد أوكل الإسلام إلى ولى الأمـر أن يضع من التنظيـمات مـا يلائم التطور ويرقى بالمجتمع وينهض بالأمة.

تعريف الحاكم

حَكَمَ أصله منع منعًا للإصلاح، ومنه سميت اللجام حكمة الدابة.. فقيل حَكَمْتُهُ وَحَكَمْتُ الدابة.. منعته بالحكمة وأحكمتها جعلت لها حكمة.. والحكم بالشىء أن تقضى بأنه كذا أو ليس بكذا سواء ألزمت ذلك غيرك أو لم تلزمه، قال تعالى: ﴿**وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ**﴾ [النساء: ٥٨]، ويقال حاكم وحكام لمن يحكم بين الناس، والحَكَمْ المتخصص بذلك فهو أبلغ، قال تعالى: ﴿**أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا**﴾ [الأنعام: ١١٤]، وقال: ﴿**فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا**﴾ [النساء: ٣٥] وإنما قال حكمًا ولم يقل حاكمًا تنبيهًا أن من شرط الحكمين أن يتوليا الحكم عليهم ولهم حسب ما يستصوبانه من غير مراجعة إليهم فى تفصيل ذلك، ويقال الحكم للواحد والجمع[1].

إن الرسول ﷺ هو مؤسس هذه الدولة والحاكم لها فى نفس الوقت الدعوة إلى الدين الجديد سمة هذه الدولة وكل فرد من أفراد الشعب يدعو لهذا الدين ويجاهد فى سبيل نشره ويوالى أصحابه ويعادى أعداءه بسبب هذا الدين.. وكل فرد فى هذه الدولة يشارك فى بناء هذه الدولة بالسمع والطاعة ولزوم الجماعة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وهذه الدولة نشأت على أسس ثابتة وقواعد قوية فهناك تعاقد بين رئيس هذه الدولة (النبى ﷺ) وبين ممثلى الشعب من الأنصار أولاً الذين بايعوا فى ليلة العقبة على إرساء دعائم الدولة، إذًا فمؤسس الدولة الإسلامية وحاكمها الأول كان نبيًا ورسولاً، وقد أمره الله أن يحكم بين الناس بالعدل.

العدالة

العدالة التى أمر بها الإسلام.

العدل أساس الحكم فى دولة الإسلام لأن الحاكم ينفذ أمر الله وهو سبحانه أعدل العادلين وهو القائل: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ [النحل: ٩٠].

والعدل من الأسس التى قام عليها عمارة الكون وصلاح العباد.. ولهذا تجد من أسماء الله سبحانه (الحكم العدل) فهو الحكم الذى لا يحكم إلا بالحق ولا يقول إلا الحق لذلك

(١) الراغب الأصفهانى فى مفردات غريب القرآن ص١٢٦ وما بعدها.

سُمِّى عدلاً لأنه سبحانه هو القائل: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].. وجاء فى الحديث القدسى: «يا عبادى إنى حرّمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرّمًا فلا تظالموا» [رواه مسلم].

والعدل واجب فى الحكم على الأصدقاء والأعداء لأن المسلمين هم حملة المنهج الربانى الذى أنزله الله على سيدنا محمد ليقيم العدل والقسط بين الناس جميعًا، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].. وفى الحديث عن رسول الله ﷺ: «إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلسًا إمام عادل وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذابًا إمام جائر» [رواه الترمذى].

إن الدولة الإسلامية دولة دينية فالدين سبب نشأتها به قامت وصار هدفها وغايتها تسعى لنشره وتبليغه وقد أخبر الحق سبحانه وتعالى أن من تحاكم أو حكم بغير ما أنزل الله فقد تحاكم إلى الطاغوت وهذا كفر والعياذ بالله، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

الطاغوت كل ما تجاوز به العبد حدَّه من معبود أو متبوع أو مطاع.. قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

دخل عدى بن حاتم على رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية فقال: يا رسول الله.. إنا لم نتخذهم أربابًا.. قال: بلى.. أليس يُحِلُّونَ لكم ما حرّم الله فتحلونه ويحرمون عليكم ما أحلّ الله فتحرّمونه؟ قال: بلى.. قال: فتلك عبادتهم. [رواه الترمذى].

وكما أن الإعراض عن شرع الله اتباعًا للأحبار والرهبان عبادة لهم من دون الله.. فكذلك الإعراض عن شرع الله اتباعًا للهوى فتلك عبادة لغير الله أيضًا.. قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣]. ويقول سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣].

إن كل انحراف عن شرع الله بدافع الهوى ينافى كمال التوحيد.. لذلك قال الرسول ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به».

قال ابـن كثيـر: (مهـما اسـتحـسن من شيء ورآه حسنًا في هوى في نـفسه كـان دينه ومذهبه)[1]. ولهذا حثّ النبي ﷺ على التمسك بآداب الشـرع في قوله: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى، كتاب الله وسنتى» [أخرجه مالك فى الموطأ].

نظـريـات الدولـة

المجتمع الدولى نشأت فيه نظريات تؤصل نشأة الدولة منها:

١ ـ نظرية التغلب والقوة.. وهذه النظرية برزت إلى الوجود يوم أن كانت قوى البشرية فى صراع دائم وكان المنتصر يفـرض إرادته على المغلوب وتكون إرادة المنتصر على المجموع بعد ذلك ويكون بمثـابة السلطة الحاكمة وهذه النظرية تلاشت لما طرأ علـى المجتمع الدولى من تحضر كما أن هناك مـؤسسات دولية قامت لتصون حدود المجـتمعات وتحول بين الظالم وبين ما يتمناه.. هذا فى الشكل.. أمـا المضمون فهناك الشعوب القوية صناعـيًا واقتصاديًا وزراعيًا وتجـاريًا تتحكم فى الدول الفقـيرة وتجعلها تعـيش فى تخلفها ولا تخـرج من حيّز نطاقها وإلاّ فـالويل لها وهذا هو سلاح القوة الذى تـستعمله الدول القوية وهـو أكثر بطشًا وفتكًا فى الدول الضـعيفة من الأسـلحة ولنا أن نتأمل فى التـاريخ ونقرأ كيف أقام اليـهود دولتهم على أرض فلسطين، وكيف أقامت الهند دولة بنجلاديش ومـا تفعله بمسلمى كشمير وها هى روسيا أمـام أعيننا تدمر المجتـمع الشيشانى وتمنع الإعانة عـن اللاجئين وقبل ذلك شرَّدت مئات الآلاف من البوسنة والهرسك وكوسوفا علاوة على ما يجرى على العراق من حصار ومعها ليبيا إلى غير ذلك من الأمور التى لا تغيب عن البال.

٢ ـ التطور التاريـخى.. تقوم الدولة عندما يتـجمع جمـاعة من البـشر ويتفـقون على تكوين نظام معين لـهم وأسس تحكم كيانهم وهذه النظرية مـن أكثر النظريات توفـيقًا فكل مجتمع يتكون وفقًا لظروفه الخاصة (وبذلك تتطور المجـتمعات تبعًا لعدة عوامل تختلف من مجتمع لآخر الأمـر الذى يستتبع عدم جواز إسناد السلطة إلى قاعدة عـامة بالنسبة إلى كل الدول بل يقتضى الأمر بحث هذا الموضوع بالنسبة إلى كل دولة على حدة)[2].

ويؤخذ على هذه النظرية أن كل اختلاف سيـاسى لا يؤدى حتمًا إلى إنشاء دولة كما أن

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٠٩).

(٢) د. فؤاد العطار النظم السياسية ص١٠٦.

هذه النظرية تضفى صفة الدولة على التجمعات البشرية القبلية وهو من انفرد به (روجى من بين الفقهاء)[1].

٣ ـ نظرية العقد الاجتماعى. . كان السفسطائيون يعتقدون قديمًا أن العقد الاجتماعى أساس لنشأة المجتمع السياسى. . لهذا فإن النظام السياسى عندهم هو نظام اتفق الأفراد على تكوينه للسهر على مصالحهم ومن ثم فلا يجوز أن يكون هذا النظام حائلاً دون تمتعهم بحقوقهم الطبيعية ولا يتقيد الأفراد بالقانون إلاّ إذا كان متفقًا وهذه الحقوق الطبيعية[2].

إذا ما قارنا هذه الأمور بنظام الدولة الإسلامية فإننا نرى فوارق متعددة أهمها:

١ ـ الدولة الإسلامية يخضع فيها الحاكم والمحكوم لحكم الشرع لأن الدولة أساسها العقيدة الصحيحة وقد نشأت على تعاقد حقيقى ثم بين الأفراد والقائد.

٢ ـ أن وجوب السمع والطاعة على الأفراد فى الدولة للحاكم وعدم الخروج عليه إلاّ إذا أخلّ بالأسس الصحيحة ونصوص الدستور الصريحة.

٣ ـ أن الدولة الإسلامية غايتها إرساء دعائم الحق والعدل والمساواة وحفظ حقوق الأفراد وضمان حرياتهم ودعوة الناس فى دخول دين الله والضرب بقوة على أيدى العصاة والمجرمين وجهاد المعاندين مع تحقيق الرفاهية للأفراد.

نظريات حول الحاكم

نشأ فى المجتمع الدولى نظريات حول الحاكم. . وهذه النظريات هى:

١ ـ تأليه الحاكم.

٢ ـ الحق الإلهى المباشر.

٣ ـ الحق الإلهى غير المباشر.

تأليه الحاكم

هذه النظرية وجدت مجالاً رحبًا فى العصور السحيقة ولقد سجل القرآن الكريم ما حدث فى مصر عندما قال فرعون لقومه الذين كانوا يؤلهونه ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]. كذلك ما جاء على لسان فرعون يبرر زعمه فى ادعاء الألوهية ﴿وَنَادَىٰ

(١) د. طعيمة الجرف، نظرية الدولة والمبادئ العامة للأنظمة السياسية ونظم الحكم ص٢٢.

(٢) د. فؤاد العطار، المرجع السابق ص١٠٨ وما بعدها.

فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١]، وما قاله أيضًا: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]. ولقد انتشرت هذه النظرية فى بلاد فارس والروم فقد كان الحاكم يصطبغ بصبغة إلاهية، وفى العصر الحديث وجدت هذه النظرية مجالاً للتطبيق.. ففى اليابان وحتى عام ١٩٤٧ كان اليابانيون يضفون على الإمبراطور طابعًا إلاهيًا[١].

ومع تقدم الحضارة وانتشار الأديان السماوية واتساع دائرة الإعلام فقدت هذه النظرية مكانتها وقوتها لأنها كانت تمنع مساءلة الملك عن أى شىء والطاعة العمياء له فشخصيته مقدسة وأوامره نافذة.

الحق الإلهى المباشر

تقوم هذه النظرية على أن الله سبحانه وتعالى هو الذى خلق كل شىء وخلق الدولة وهو الذى يختار الملوك مباشرة لحكم الشعب.. ويترتب على هذه النظرية ما يأتى:

١ ـ أن الحاكم ليس إلاهًا ولا نصف إلاه.

٢ ـ هو بشر اختاره الله من بين الشعب.

٣ ـ ليس لأحد من الرعية أن يسأل الملك، فله أن يفعل ما يشاء ولا سلطان عليه إلاّ ضميره والله الذى اختاره وأقامه.

وهذه النظرية سادت أوربا عندما اعتنق الإمبراطور (قسطنطين) الدين المسيحى فخرج الباباوات على الناس بهذه النظرية.. ومما يؤثر عن لويس الرابع عشر ملك فرنسا: (إن سلطة الملوك مستمدة من تفويض الخالق فالله مصدرها وليس الشعب)، وجاء فى مقدمة قانون أصدره لويس الخامس عشر: (إننا لم نتلق التاج إلاّ من الله فسلطة عمل القوانين هى من اختصاصنا وحدنا لا يشاركنا فى ذلك أحد ولا نخضع فى عملنا لأحد)[٢]. والملوك عندما تمسكوا بهذه النظرية دب الصراع بينهم وبين شعوبهم لكنهم برروا هذه النظرية باستعمار البلاد واسترقاق الشعوب.. وقال امبراطور ألمانيا غليوم الثانى: (إن الله قد وقع اختياره على ألمانيا لتحكم العالم)[٣].

---

(١) د. محمد الميرغنى، مبادئ القانون الإدارى ص١٣ وما بعدها.

(٢) د. محمد كامل ليله. النظم السياسية الدولة والحكومة ص٧٧.

(٣) د. محمد ميرغنى، مبادئ القانون الإدارى ص١٤.

الحق الإلهى غير المباشر

لما حدث صراع بين الحكام والشعوب على النظرية (الحق الإلهى المباشر) بدأ الحكام يعدلون فى فكرة الحق الإلهى المباشر التى أصبحت غير مستساغة من الشعوب. . لذلك بدأوا يطورون هذه النظرية التى قالوا عنها (إن الله لا يتدخل بإرادته المباشرة فى تحديد شكل السلطة ولا فى طريقة ممارستها. . وأنه لا يختار الحكام بنفسه وإنما يوجه الحوادث والأمور بشكل معين يساعد جمهور الناس على أن يختاروا بأنفسهم نظام الحكم الذى يرتضونه والحاكم الذى يزعنون له. . وهكذا فالسلطة تأتى من الله للحاكم بواسطة الشعب)[1]. ولما كانت الكنيسة ممثلة للشعب المسيحى باعتبارها وسيطًا بينه وبين السلطة المقدسة التى تأتى من لدن الله فالحاكم يمارس سلطته باعتبار ذلك من حقه الشخصى استنادًا إلى اختيار الكنيسة له. . وظهرت هذه النظرية واشتهرت وكان شكلها الرسمى هو (تعميد الملوك فى الكنيسة) وبقيت أساسًا لسلطان الملوك حتى قضت الثورة الفرنسية على هذه النظرية ونادت بنظرية سيادة الأمة.

فروق بين النظريات والدولة الإسلامية

إن الدول التى تبنّت هذه النظريات كانت أبعد ما تكون عن الدين وكانت تتخذ هذه النظريات ستارًا تحتمى به من غليان الشعب الذى كان يحكم حكمًا استبداديًا.

وهل هذه النظريات تتفق مع الكيان الإسلامى؟ لا. . لأن محمدًا ﷺ يعلن دائمًا أنه بشر يوحى إليه بقول القرآن عن لسانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦]. . ويقول أيضًا: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]. والحكم بين الناس يلتزم به النبى ﷺ حسب نظام الوحى الذى يوحى إليه، يقول الله تعالى له: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ

(١) د. طعيمة الجرف، مرجع سابق، ص٣٠.

ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيـــرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ * أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٤٨ ـ ٥٠].

والقرآن الكريم حرص على إظهار هذه الحقـيقة بين الناس ويعلن أن رسول الله ﷺ بشر يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق.. لكنه ﷺ إذا كان يتلقى الوحى من السماء فهو لم يعلن أبدًا أنه فوق أحكام الشرع بل إنه يطبق القانون على نفســه ويلتزم بتطبيقه على أحب الناس إليه ويعلن بصــراحة: «والذى نفسى بيـده لو أن فاطمة بنت محــمد سرقت لقطع محــمد يدها» [حديث متـفق عليه].. إن محمـدًا بشر كان يجتـهد برأيه فيما ليـس فيه نص فكان يصيـب فى حكمه أحـيانًا ويخطئ فى أحـيان أخرى فـينزل عليـه الوحى منبّها ومـصحِّحًا فيسارع إلى الرجوع إلى الحق وتدارك الخطأ ويعترف ولا يجادل ويقر بأن أمور الدنيا تحكمها الخبرات الإنسانية لذلك كان يقول: «أنتم أعلم بأمور دنياكم» [حديث متفق عليه].

ومن المؤكد أن الدولة الإسـلامية نشـأت نتيجـة صراع دب بين أهل الإيمان بقـيادة النبى العظيم محمد وبين المـشركين الذين تطاولوا على مقام الألوهية ولم يستـجيبوا لنداء الفطرة فى أنفسهم ويؤمنوا بالله الواحـد.. وكان الصراع فى بداية الأمر تعبـيرًا عن خلاف فكرى عقـائدى اجتـماعى ثم تبلور إلى خلاف سـياسى وتطور الصـراع حتى كـان الاحتكام إلى السيف وكـان النصر للمـؤمنين وتمكنوا بذلك من تقوية صف المسلمين وبـسط نفوذ الدولة الإسلاميـة على معظم المعمورة.. وكـان للقوة دخل كبير فى هـذا الصراع إلاّ أن الشواهد التاريخية تؤكد أن الإسلام لم يقم بالسيف وهذا التأكـيد آتٍ من استقراء الأحداث والتعرف على أسباب غزوات النبى ﷺ الذى كان دائمًا يرفع راية السلام وينادى على البشرية لتدخل فى السلام وتحت رايته حقنا للدماء وتعميرًا للمجتمع.

* * *



الباب الثالث: تشريع الله للإنسانية

الفصل الأول

نظام الحكم فى الإسلام

يقوم نظام الحكم فى الإسلام على شريعة الإسلام. . فهناك:

١ - الولاية. . وهذه الكلمة تطلق على الإمارة والسلطان. . وفيها (الإمارة) هى النصرة والولاية. . قال ابن الأثير: «كأن الولاية تشعر بالتدبير والقدرة والفعل وما لم يجتمع ذلك فيها لم ينطلق عليه اسم الولى»[١]. . والإِمَارة والإِمْرَة كالولاية والتأمير تولية الإمارة وأمير الأعمى قائده لأنه يملك أمره، والأمير الملك لنفاذ أمره وأولو الأمر الرؤساء والعلماء[٢]، والسلطان هو المتسلط والاسم سلطة. . والسلطان الحجة والبرهان والتسلط إطلاق السلطان. . ولذلك قيل للأمراء سلاطين من تسلطهم أو لأنهم الذين تقام بهم الحجة والحقوق[٣].

٢ - الخليفة. . الخلافة. . استخلف فلانًا من فلان جعله مكانه. . وخلف فلان فلانًا إذا كان خليفته كما جاء في لسان العرب. . والخليفة السلطان الأعظم، قال الفرّاء فى قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣٩]. أى جعل أمة محمد خلائف كل الأمم وقيل خلائف فى الأرض يخلف بعضكم بعضًا[٤]. قال الزجاج: جاز أن يقال للأئمة خلفاء الله فى أرضه. . يقول الله تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦][٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: والخليفة من كان خلفًا عن غيره، والمراد بالخليفة أنه خلف من كان قبله من الخلق. . والخلف فيه مناسبة كما كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه خليفة رسول الله ﷺ لأنه خلفه على أمته بعد موته. . ولهذا لمَّا قالوا لأبى بكر يا خليفة الله. . قال: لست بخليفة الله، ولكنى خليفة رسول الله ﷺ وحسبى ذلك.

إذًا الخلافة هى تولى الأمر على شعب من الشعوب وفى دولة من الدول وقد يكون الخليفة أعم من ذلك فيشمل عدة دول ويعنى لفظ الخلافة أن يكون فى محل رسول الله

(١) لسان العرب (٦/ ٤٩٢٠).
(٢) لسان العرب (١/ ١٢٨) ومختار الصحاح ص٣٦.
(٣) لسان العرب (٣/ ٢٠٦٥).
(٤) لسان العرب (٢/ ١٢٣٥).
(٥) لسان العرب (٢/ ١٢٣٥).

ﷺ فى قيـادة الأمة بشرع الله تعالى تأسيًا واقـتداءً برسول الله ﷺ وتكون عـامة على دار الإسلام، وغايتها حفظ الدين وسياسة المجتمع أو المجتمعات به.

٣ ـ الإمامـة.. الإمام هو الذى يأتم به القـوم سواء كانوا صـالحين أم طالحين.. وإمام القوم هو الذى يتقدم عليهم ويقتدى به.. فإمام كل شىء قَيِّمُه.. فالقرآن إمام المسلمين.. وسيدنا مـحمد ﷺ إمام الأئمة.. والخليـفة إمام الرعيّة.. وإمـام الجند قائدهم.. والإمام دليل فى السفر.. وقد وردت كلمة الإمام فى القرآن كـثيرًا.. وقد وردت فى الخير والشر، فهى إذا أُطلقت تفـيد الهداية إلى الخـير كمـا فى قوله سبـحانه: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [السجدة: ٢٤]. لكن القرآن إذا أوردها بمعنى الشر فتـأتى مقيدة كما فى قـول الحق سبحانه: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٢]. وكمـا فى قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: ٤١]. وتعنى الإمامة:

١ ـ رئاسة عامة فى مهمات الدين والدنيا.

٢ ـ رئاسة عامة لشخص مخصوص بحكم الشرع ليس فوقها يد[١].

٣ ـ الإمامة موضوعة لخلافة النبوة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به[٢].

٤ ـ حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مـصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها إذ أحوال الدنيا ترجـع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة فـهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به[٣].

وواضح من هذه التعريفات أن هناك تركيز على أمر الخلافة.

ما المقصود بنظام الحكم

نظام الحكم هو أن نتعرف على القواعـد والأحكام التى تتعلق برئيس الدولة مع توضيح كيفية اختياره وعلاقة الأمة به والمهام التى يقوم بها ويتحرك فى دائرتها.. فعموم الولاية أو الخلافة هى رئاسـة عامة والغرض منهـا حمل الكافة على الالتزام بالضـوابط والقواعد التى تضمن الأمن فى المجتمع.

---

(١) البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار، لأحمدبن يحيى المرتضى (٥/ ٣٧٤).

(٢) الماوردى فى الأحكام السلطانية ص٥.

(٣) ابن خلدون فى مقدمته ص١١٩.

والغاية من ذلك حفظ الدين ونشره بين العامة والخاصة وحراسة المجتمع وقيادة الأمة . . والخلافة والإمامة هى الحكومة الإسلامية الشرعية .

هل يوجد نظام حكم فى الإسلام؟

نعم . . لأن من خصائص الإسلام أنه دين شامل للدين والدنيا معًا، لهذا نرى أن القرآن الكريم نبّه على الحكم والعدل والشورى والحكم بما أنزل الله ولزوم طاعة الحكام . . وعندما تقرأ السُّنَّة النبوية تجد التوجيهات المتعددة والكثيرة فى لزوم الجماعة . . فمن ذلك قول الرسول ﷺ: «إذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤَمِّروا أحدهم» [رواه أبو داود].

ويقول الإمام ابن تيمية تعليقًا على هذا الحديث وحديث آخر هو: «لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلاّ أمّروا أحدهم» يقول ابن تيمية: (فإذا كان قد أوجب فى أقل الجماعات وأقصر الاجتماعات أن يولّى أحدهم كان هذا تنبيهًا على وجوب ذلك فيما هو أكثر)[1].

والإسلام دين ودولة . . مسجد ومصنع . . مصحف وسيف . . ومع هذا فإن رسول الله ﷺ لم يكن رسولاً فحسب وإنما كان بجوار ذلك حاكمًا ورئيسًا لدولة . . يقول هاملتون جب: (ليس الإسلام دينًا بالمعنى المجرد الخاص بل هو مجتمع بالغ تمام الكمال يقوم على أساس دينى وشكل كل مظاهر الحياة الإنسانية وهو مجتمع لا تزال تتردد فى صميمه هذه الفكرة، والحق أن نمو هذه الفكرة فى الإسلام فاق كثيرًا ما وصلت إليه أوربا من متانة الصلة بين الحكومة والحياة الدينية والاجتماعية التى كانت ركنًا أساسيًا من فكرة المسلمين عن نظام العالم . . حتى كان اضطراب هذه الصلة من أكبر أسباب الأزمة الحديثة فى الإسلام)[2].

أقوال العلماء فى هذا

أجمع الفقهاء على أن نصب الخليفة واجب بالإجماع . . يقول الإمام الماوردى (الشافعى)، وأبو يعلى (الحنبلى): (عقد الإمامة لمن يقوم بها فى الأمة واجب بالإجماع)[3].

---

(١) فتاوى ابن تيمية (٢٨/ ٦٥).

(٢) الإسلامية نظام مجتمع ومنهج حياة، للأستاذ أنور الجندى ص٣٩.

(٣) الأحكام السلطانية للماوردى ص٣، والأحكام السلطانية لأبى يعلى الحنبلى ص٣.

ويقول الإمام ابن تيمية: (يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين لا قيام للدين إلا بها)[1]. وابن حزم يرى الإجماع على وجوب الإمامة[2].

يقول ابن خلدون: (إن نصب الإمام واجب.. فقد عرف وجوبه فى الشرع بإجماع الصحابة والتابعين لأن أصحاب رسول الله ﷺ عند وفاته بادروا إلى بيعة أبى بكر رضى الله عنه وإلى تسليم النظر إليه فى أمورهم وكذا فى كل عصر من الأعصار، واستقر ذلك إجماعًا دالاً على وجوب نصب الإمام)[3].

شروط من يتولى الإمارة

الإمارة والولاية والخليفة والملك والسلطان كل هذه ألفاظ مترادفة لأمر واحد هو (حكم البلاد) وإن اختلفت الدلالات والنظم إلا أننا نضع قواعد عامة لمن يتولى هذا المنصب.. وقد اشترطوا لذلك جملة شروط خلاصتها (أن يكون الشخص كفئًا للنهوض بأعباء هذا المنصب الخطير على الوجه الذى يرضى الله تعالى ويحقق مصلحة الأمة بكفاءة وأمانة)، وذكر الفقهاء شروطًا منها:

١ - لما كانت الخلافة.. أو الإمارة.. أو غير ذلك من أعظم الأمور.. ومهمتها الأساسية حفظ الدنيا وصيانة المجتمع فلا يتولاها إلا (مسلم)، فالإسلام شرط أساسى لقول الله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ [النساء: ١٤١]، ويقول سبحانه: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] ومنكم أيها المسلمون.

٢ - أن يكون رجلاً لقول الله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤]، ولقول الرسول ﷺ: «لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة» [رواه البخارى]. والمرأة لا تقدر بأى حال من الأحوال على النهوض بمهام رئاسة الدولة لأنها كثيرة ومتشعبة وجسيمة وتحتاج إلى متابعة دائمة وقد يكون هناك سهر متواصل وانتقال من مكان إلى مكان.. ومن يجد فى نفسه شيئًا من ذلك نقول له.. نحن نؤمن بأن هناك قلة قليلة وعدد ضئيل من النساء تولَّين رئاسة الدولة.. منهن من ذكرها القرآن وأشاد بها العلماء كبلقيس وبعض شخصيات نسائية كذلك، لكن هذه فلتات يندر أن تجد مثلها.. والإسلام يعمل دائمًا من جانبه على رعاية ظروف المرأة

---

(١) السياسة الشرعية لابن تيمية ص١٣٨.

(٢) الملل والنحل لابن حزم (٤/ ٨٤).

(٣) مقدمة ابن خلدون ص١٩١.

وتقدير وضعها وصيانة جانبها والبعد بها عن العمل المتعب المرهق وحفظها من قالة السوء.. لهذا.. إذا كانت لظروف استثنائية ونادرًا ما تولّت أمر الدولة فهذه قاعدة غير مطّردة.

٣ ـ أن يكون الشخص المختار عدلاً فى دينه عارفًا بأمور السياسة عالمًا بشئون الحكم، لديه القدرة على إقامة حدود الله.. عنده دراية بمصالح الأمة وسبل تحقيقها وحرصه عليها وتقديمه لها[١].

هناك من تكلم أن يكون الحاكم من قريش.. وهناك حديث صحيح: «الأئمة من قريش»، والحكمة من هذا الشرط كما يقول ابن خلدون: «أن مقصود الخلافة يحصل بالاجتماع ووحدة الكلمة وترك النزاع وانقياد الأمة لرئيسها.. وهذا يحصل إذا كان الخليفة ممن تسكن إليهم النفوس ويعترف لهم بالفضل والتقدم وهذا الاعتراف وذاك السكن كان متحققًا فيمن يولّى من قريش لأن قريشًا كانت ذات قوة وشوكة وتعترف لها العرب بالتقدم والفضل والزعامة ولم ينازعوها فى ذلك مما يجعل أمر اجتماع الكلمة وحصول الطاعة لهم أقرب احتمالاً وأسهل منالاً من غيرهم، ولذلك جاء الحديث بالتنويه بهم وأن الأئمة منهم ليحصل الائتلاف ويسهل الانقياد ويتحقق مقصود الخلافة»[٢]. والرأى المرجوح فى ذلك أنه إذا وجد قرشى وغير قرشى وكان غير القرشى يتميز بالكفاءة والقدرة فإن اختيار غير القرشى أصلح للمسلمين.. ثم إن الكلام عن القرشى يرجع إلى قوة تحميه وجماعة قوية تسانده ليحمل ذلك الناس على أن ينقادوا له ولا ينقضوا عليه.

وقد أجمع أهل السُّنَّة والجماعة على أن خلافة الخلفاء الراشدين هى خلافة النبوة وأن من بعدهم من الخلفاء كانوا ملوكًا أو بتعبير أدق خلافتهم خلافة مُلْك.. يقول الرسول ﷺ: «خلافة النبوة ثلاثون سنة ثم يؤتى الله ملكه (الملك) من يشاء» [رواه أبو داود والترمذى وأحمد].

ويجوز تسمية مَنْ بعد الراشدين خلفاء وإن كانوا ملوكًا لقول الرسول ﷺ: «وستكون خلفاء فتكثر.. قالوا فما تأمرنا؟ قال: فوا ببيعة الأول فالأول» [رواه مسلم]. وفى الأثر أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سأل سلمان الفارسى: (أملك أنا أم خليفة؟ فقال سلمان: إن أنت جَبيت من أرض المسلمين درهمًا أو أقل أو أكثر ثم وضعته فى غير حقه فأنت ملك غير خليفة).

---

(١) الماوردى ص٤، ومقدمة ابن خلدون ص١٩٣.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص١٩٥.

كيف يتم اختيار الخليفة (الحاكم)

يتم اختيار الحاكم الذى يحكم البلاد على مراحل:

١ - أهل الحل والعقد.. لأنهم نواب ووكلاء عن الأمة فهم يباشرون انتخاب رئيس الدولة نيابة عن الأمة.. والأمة هى التى اختارتهم لينوبوا عنها وقد رفعتهم إلى هذه المنزلة باختيارها، وقد ذكر الفقهاء عدة شروط يجب أن يلتزم بها أهل الحل والعقد منها:

أ - العدالة الجامعة بكل شروطها.

ب - العلم بمعرفة الشخص الذى يتم اختياره بالشروط المعتبرة فيه.

جـ - الرأى المتبادل والحكمة والحصافة وبُعد النظر لاختيار من هو أصلح بتدبير مصالح الأمة[1].

ويذهب البعض الآخر إلى (أولى الأمر جماعة أهل الحل والعقد، وهم الأمراء والحكماء والعلماء ورؤساء الجند وسائر الرؤساء والزعماء الذين يرجع إليهم الناس فى الحاجات والمصالح العامة)[2].

ويفهم من كل هذا أن الفقهاء ذكروا أن أهل الحل والعقد.. هم المتبعون فى الأمة الحائزون على ثقتها ورضاها لِمَ عُرِفوا به من التقوى والعدالة والإخلاص والاستقامة وحُسن الرأى والحرص على مصالح الأمة.

إن الأمة التى أنابت عنها أهل الحل والعقد (مجلس الشعب والشورى) قد انتخبهم الشعب انتخابًا مباشرًا حرا دون ضغط أو إرهاب أو تزوير إذًا فقد نالوا ثقة الأمة.. وهذه الثقة من أوجب واجباتها ألاّ يخونوا الأمة ويلعب بهم الهوى.

أساس حق الأمة فى انتخاب الحاكم

الأمة كلها هى التى تختار الخليفة.. وقد فوضت أهل الحل والعقد (مجلس الشعب والشورى) فإن وجدت الأمة أن هؤلاء مالوا أو هم لم يحضروا بأكملهم جلسة الاختيار فإن على الشعب أن يجنبهم وأن يقوم الشعب بالاختيار ويباشر حقه فى انتخاب الرئيس.. وقد استدل العلماء على ذلك بقول الله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨] ولما كان اختيار الحاكم من أعظم الأمور فإن على المسلمين أن يتشاوروا.

---

(١) يراجع فى كل ذلك الأحكام السلطانية للماوردى ص٤، وأبو يعلى الحنبلى فى الأحكام السلطانية له ص٣، ٤.

(٢) تفسير المنار لرشيد رضا (٥/ ١٨١).

جاء فى تفسير الرازى: (إذا وقعت واقعة اجتمعوا وتشاوروا فأثنى الله عليهم، أى: لا ينفردون برأى ما لم يجتمعوا عليه)[1].

إن أساس حق الأمة فى انتخاب الخليفة.. لأنها هى المخاطبة فى القرآن لتنفيذ أحكام الشرع وإقامة المجتمع السليم ونشر الإسلام فى الآفاق فالأمة إذًا مطالبة باختيار الحاكم من تحديد مسئوليتها عن تنفيذ أحكام الإسلام.. وهذه السلطة أوكلها إليها الشارع ثم كلفها أن تختار خليفة عنها ليقوم بمباشرة السلطة فى تنفيذ ما هى مكلفة به لأن إنابة الملك غيره فى مباشرة ما يملكه أمر جائز كما هو معروف فى الفقه الإسلامى.

ونستعرض معًا النصوص التى كلّف الله بها الأمة متضامنة مع الحاكم فى إقامة حدود الله فى المجتمع.. يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا﴾ [النساء: ١٣٥]، ويقول أيضًا: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١]، ويقول سبحانه: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]، ويقول سبحانه: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢].

وهناك نصوص كثيرة تدل على مسئولية جماعة المسلمين عن تنفيذ أحكام الإسلام.. فعلى الأمة أن تعاون الحاكم الذى اختارته وأن تعاون أهل الحل والعقد على ممارسة أعمالهم بهمة ونشاط.

جاء فى كتاب المغنى: (من اتفق المسلمون على إمامته وبيعته ثبتت إمامته ووجبت معونته)[2].

عزل الحاكم

الأمة هى التى تختار الحاكم بإرادتها الحرة وبمباشرة حقها الممنوح لها من قبل الحق سبحانه، (ومن يملك حق التعيين يملك حق العزل) والمبرر الحقيقى الشرعى لعزل الخليفة

(١) تفسير الرازى (٢٧/ ١٧٧).

(٢) المغنى لابن قدامة الحنبلى (٨/ ١٧).

ينحصر فى:

١ ـ خروجه عن مقتضى وكالته عن الأمة خروجًا يبرر عزله.. كأن يخون الأمة أو يتفق مع أعدائها أو يتستر على المجرمين المنحرفين.

٢ ـ يصاب بالعجز وعدم قدرته على القيام بمهام أمور الرئاسة كأن يصاب بالمرض والشلل وغير ذلك.. يقول الفقهاء فى هذا: (وللأمة خلع الإمام وعزله بسبب يوجبه مثل أن يوجد منه ما يوجب اختلال أحوال المسلمين وانتكاس أمور الدين كما كان لهم نصبه وإقامته لانتظامها وإعلائها)[١].

٣ ـ الظلم وهو فى اللغة وضع الشىء فى غير موضعه.. وقد وردت كلمة الظلم بمعنى (الشرك)، (الذنب)، (النقص)، (الضرر)، (الجور)، (الجحود للقرآن وكل ما جاء فيه)، (ظلم الناس)[٢]. فالحاكم إذا ظلم وجار فعلى أهل الحل والعقد أن ينصحوه برفق ولين فإن استجاب وإلاَّ وُوجِهَ بما يفعله فإن أصرّ على موقفه بعد بيان الحقيقة أمام عينيه فإنه يُعزل.. فإن خاف المجتمع الفتنة فإنه يستمر وتدعو الرعية له بالصلاح لعل الله يصلح أمره.

٤ ـ الجنون وهو فقد العقل الذى هو شرط أساسى عند الإمام فإن أصيب بالجنون عُزِل.. والجنون ينقسم إلى جنون دائم.. وجنون مؤقت.. والأمر هنا متروك لأهل الحل والعقد إن رأوا أن الجنون المؤقت لا يقدح فى صحة الولاية ولا يحول دون أداء مهام منصب الرئاسة كذلك إن أصيب بالعمى أو الصمم أو الخرس أو فقد اليد أو اليدين أو الرجل أو الرجلين.. فى هذه الحالة يجب النظر فى أمره فورًا.

٥ ـ أن يقع الخليفة فى الأسر سواء أُسِرَ فى بيته أو عند الأعداء، فإن أُسِرَ فى يد البغاة وكان مرجو الخلاص ظل على إمامته ورئاسته، وإن كان ميئوسًا من خلاصه تم اختيار غيره.

كيفية إقالة الحاكم

١ ـ الحاكم قد يتقدم برغبته بطلب يبيّن فيه أنه أصبح غير قادر على تسيير الأمور وأنه يشعر أن الشللية من حوله تعوق عمله فيتقدم هو بهذه الاستقالة طالبًا فيها إعفاؤه من منصبه وتكون هذه الاستقالة فيها مصلحة كبرى لأنه حفظ على المسلمين دماءهم وأخمد

(١) النظريات السياسية الإسلامية للأستاذ ضياء الدين الريس ص٢٧١.

(٢) يراجع فى ذلك قاموس القرآن، إصلاح الوجوه والنظائر فى القرآن للفقيه الدامغانى ص ٣٠٨ وما بعدها.

فتنة كادت تنزل بالمسلمين فحقن دماءهم، ونستدل على ذلك بما فعله الحسن بن على رضى الله عنه عندما تنازل برضاه عن الخلافة لمعاوية بن أبى سفيان وذلك حقنًا لدماء المسلمين، ولذلك سمّى المسلمون العام الذى تنازل فيه الحسن بـ (عام الجماعة).

كما أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه كان دائمًا يصيح فى المسلمين (أقيلونى أقيلونى) فيقولون له لا نقيلك ولا نستقيلك.. فالرئيس إذًا إذا شعر من نفسه العجز وتقدم باستقالته كان ذلك دليل على بُعد نظره وحصافة رأيه.

ونذكر فى هذا المقام الرئيس (سوار الذهب) فبعد أن استتب الأمر الذى كان ينشده تقدم باستقالته وتفرغ لأعمال اجتماعية خيرية دولية.. وهناك غيره الكثير.

٢ ـ الإقالة.. إذا فقد الحاكم أى شرط من الشروط المعتبرة فيه والتى تؤثر فى تحقيق قدرته على النهوض بأداء واجباته ولم يقم هو بتقديم طلب من جانبه (الاستقالة) جاز لأهل الحل والعقد فى الدولة أن يقيلوه من منصبه ويعزلوه.. ولا يحكم بعزله إلاّ بعد اليأس من إصلاحه.. مع مراعاة الحفاظ على النظام العام وعدم قيام حرب أهلية فى المجتمع تضرُّ به وتؤخِّره.. فإن رأى أهل الحل والعقد أن العزل سيكون سببًا فى إثارة فتنة وأن الأمة سوف تدفع ثمن ذلك الكثير والكثير من دمائها وقوّتها وأمنها فلا يجوز لهم عزل الإمام.. ولعلنا نذكر أنه لما أراد جماعة عزل الخليفة عثمان بن عفان صارت فتنة عظيمة لم تنته إلى يومنا هذا.. وانقسمت الأمة بسبب ذلك إلى فرق وطوائف وشيع وأحزاب وحدث تأويل لكثير من النصوص وكل ذلك أُخذ على المسلمين واتهموا بأنهم لا يستطيعون إدارة مجتمعهم، ولكن الحقيقة أن الذين قاموا بالفتنة على عثمان والخروج عليه كانوا من المنحرفين الضالين وليسوا أهل حل وعقد.. لذلك نحن لا نتخذ الخروج على عثمان قاعدة وإنما هى فتنة كما جاء عن رسول الله ﷺ: «هلاك أمتى على يد غلمة من قريش» [رواه البخارى]، وفى حديث آخر: «هلاك أمتى على يدى أغيلمة سفهاء»، وفى حديث آخر: «إنما أخاف على أمتى الأئمة المضلين» [رواه الترمذى]، وفى حديث آخر: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا، فقال رجل: يا رسول الله أنصره إذا كان مظلومًا أفرأيت إن كان ظالمًا فكيف أنصره؟ قال: تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره» [أخرجه البخارى].

والخلاصة فى هذا الموضوع

أن الحاكم هو الذى يقدم مصلحة الأمة على مصلحته وأنه أقسم اليمين على أن يكون أمينًا على مصالح الأمة صادقًا معها. . فإن أحسَّ بضعف أو عدم قدرة فعليه أن يعمل من جانبه على أن تظل صورته مشرقة محفوظة بالإعزاز والإكبار فى ذهن الجماهير فعليه أن يتقدم باستقالته وطلب إبقائه. . ونذكر فى هذا المقام أن لاعب الكرة عندما ينوى أن يعتزل يبدأ قبل الاعتزال وقبل الإعلان عنه تجده فى الملاعب يتألق ويُتْقن الدور الذى يقوم به ويُبرز من مواهبه وكفاءته ما يجعل الجماهير تتعلق به. . وفجأة وهو فى تألقه وتوهجه ونجوميته اللامعة وأساليبه المبتكرة فى الفر والكر والهجوم والصد. . وقد شعر بأن الجماهير تعلقت به وهتفت باسمه ليعلن فجأة أنه سيترك الملعب لأنه أعطى خير ما عنده. . تجده بعد ذلك حديث الناس فى كل مكان يحتفظون بصورته ويتناقلون كلماته التى يعتبرونها من الحِكَم الغالية لأن صاحبها أخلص لفنّه وملعبه. . ولعلنا نذكر أن بعض حكام الدول الكبرى عندما يصدر منهم ما يمسّ الشرف أو يسىء إلى أى وضع اجتماعى أو يتسبب فى أى خلل إما أن يحاكم كما حدث مع كلينتون أو يعزل كما حدث مع ريجان فى قضية ووترجيت، وكما حدث من وزير البترول فى دولة الكويت عندما اشتعلت النار من إحدى مصافى البترول واعتبر الرجل نفسه مسئولاً عن هذا الحدث. . وإذ نقرر ذلك نرفض التصفية الجسدية كما حدث فى بعض المواقف التى حدث فيها قصور، وتمت تصفية جسدية لبعض الشخصيات دون الإعلان عن محاكمة.

* * *

الفصل الثانى
الإسلام ونظام الحكم

إن أساس نظام الحكم ينبع من ضمير الأمة. . ونحن هنا أمة إسلامية فنظام الحكم ينبع من عقيدتنا. . وعقيدتنا تحتم علينا أن نتمسك بأمور قيمية وأخلاقية وسلوكية. . لهذا فإن المسلمين إذا تمسكوا بدينهم نفذوا أحكامه لأن ذلك هو المظهر الأساسى من مقاصد الحكم فى الإسلام. . فالحكم فى الإسلام وسيلة إلى مقاصد معينة يستطيع الحاكم تحقيقها لما له من سلطان يستطيع به تنفيذ ما يعجز عنه الناس. . فمهمته هى:

١ ـ حراسة أحكام الدين وتنفيذ أوامره.

٢ ـ العمل على نشر أحكام الإسلام بين الناس وحفظ القرآن من التحريف. . والضرب بشدة على يد أى إنسان يريد أن يُبدل دين الله. . لأنه قد يقع المسلم فى زيغ أو شُبهة نتيجة فهم سقيم أو تضليل خبيث. . فيجب على ولى الأمر (الحاكم) أن يعمل على كشف الشبهة وإظهار الصواب بالدليل والبرهان حتى يظهر الحق وتقوم الحجة فإن أصَرّ المبطل على باطله وسعى إلى نشر الشر بين الناس فإن على الحاكم أن يمنعه وأن يُقيم عليه من الحدود والزواجر ما يوجبه الشرع.

٣ ـ العمل على تحصين الثغور وحدود البلد بإعداد العدة وتجهيز القوة حتى لا يتمكن الأعداء من مهاجمة الدولة لأن دفع الأعداء عن دار الإسلام أمر ضرورى لحفظ الدين وسلامة المجتمع. . ولو أن الأعداء استولوا على دار الإسلام فإنهم سيعملون على طمس حقائق الدين ويعملون على صرف المسلمين عن دينهم. . عندئذ تكون فتنة عظيمة وفساد كبير. . لهذا كان لابد لحماية البلاد من إعداد العدة وتجهيز الجيوش.

٤ ـ إن المقصد من إقامة الحاكم ووضع النظم الأساسية له هو (سياسة الدنيا بالدين) أى إدارة شئون الدولة على وجه يحقق المصلحة ويدرأ المفسدة. . ويتحقق ذلك فى أمور:

أ ـ تطبيق أحكام الإسلام فى سائر المعاملات بين الناس.

ب ـ حمل الناس على الوقوف عند حدود الله والطاعة لأوامره.

جـ ـ علاقة الدولة بالدول الأخرى فى حدود الشرعية الدولية.

د ـ إقامة العدل بين الناس جميعًا.

هـ ـ إشاعة الأمن والاستقرار فى مجتمع المسلمين حتى يأمن كل واحد من الناس على نفسه وعرضه وماله. . ويكون ذلك بتنفيذ العقوبات الشرعية على الخارجين على القانون

والمعتدين على الناس والعابثين بالأمن . . وأن يطبق ذلك على الجميع بلا استثناء ولا محسوبية .

و ـ تهيئة ما يحتاجه الناس فى الزراعة ،والصناعة والحرف ، فقد قال ابن عابدين فى حاشيته : (ومن فروض الكفاية الصنائع المحتاج إليها)[1] . . كما يقول ابن القيم : (إن لولى الأمر إجبار أصحاب الحرف والصناعات على العمل بأجر المثل إذا امتنعوا عن القيام وكان فى الناس حاجة إلى صناعاتهم)[2] .

وعلى هذا الأساس الحاكم مسئول عن تدبير أمور الرعية وتهيئة المناخ لتشغيل الناس . . لأن البطالة مفسدة خاصة بين الشباب . . فالإنسان إذا لم يشغل بالحق شُغِل بالباطل ، وعلى الحاكم توجيه الناس إلى العمل فى أى حرفة أو مهنة وأن يوجه المدربين لتدريبهم وأن يوفر سبل الحصول على الآلة حتى لا يكون هناك فساد من وراء الشلل العاطلة التى تجلس على المقاهى .

ز ـ استثمار خيرات البلاد . . إن سياسة الدنيا بالدين فيها خير عظيم للمجتمع لأن علماء الإسلام أجمعوا على أن استثمار خيرات البلاد بما يحقق للرعية العيش الكريم مع الرفاهية للجميع أمر مطلوب . . يقول أبو يوسف الفقيه المشهور : (وجّه هذا الفقيه رسالة إلى الخليفة هارون الرشيد جاء فيها . . إن على الخليفة أن يأمر بحفر الأنهار وإجراء الماء فيها وتحميل بيت المال وحده نفقات ذلك . . فإذا اجتمعوا . . أى أهل الخبرة . . على أن فى ذلك . . أى فى حفر الأنهار . . صلاحًا وزيادة فى الخراج أمرت بحفر تلك الآبار وجعلت النفقة من بيت المال ولا تحمل النفقة على أهل البلد وكل ما فيه مصلحة لأهل الخراج فى أرضهم وأنهارهم وطلبوا إصلاح ذلك لهم أجيبوا إليه إذا لم يكن فيه ضرر على غيرهم)[3] .

إنه يمكن القياس على ما ذكره أبو يوسف لكل شىء فيه استغلال لثروات البلاد وخيراتها على وجه يعود بالنفع العميم على الجميع من ذلك . . تعبيد الطرق . . تسيير المركبات التى تنقل الجمهور بسهولة ويسر . . إقامة المصانع . . تحسين التربة الزراعية . . إلى غير ذلك مما فيه خير للعباد وتهيئة للمناخ الاجتماعى السليم .

---

(١) ابن عابدين (٣/ ٣٢) .

(٢) الطرق الحكمية لابن القيم ص٢٢٢ .

(٣) الخراج لأبى يوسف ص١١٠ .

الإسـلام ديـن ودنيـا

إن الإسـلام ما جـاء إلاّ لإصـلاح الدنيـا. . وهناك من ينادى بعـزل الدين عن الدنيـا ويعلنون شعارات (لا سياسة فى الدين. . ولا دين فى السياسة) وهذه الشعارات من الأشياء المؤسفـة ومن أشد ما يصيب الإنسـان بالدهشة. . لأن وجه الغرابة هنا. . أن الذيـن رفعوا راية هذا الشعار هم أعداء الإسلام. . لكن تبعهم فريق من المسلمين لم يعرفوا مغزى الدين خاصة وأن الشيخ على عبد الرازق قد أصدر كتابًا يتضمن هذا المعنى فى كتابه الشهير الذى أثار ضجة (الإسـلام وأصول الحكم) ثم تبعه مؤخـرًا خالد محمد خـالد فى كتابه (من هنا نبدأ) وسار على نهج هؤلاء خاصة (طه حسين) عندما نادى وأعلن فى كتابه الفتنة الكبرى: (أن نظام الحكم أيام النبى لم يكن مـفروضًا من السـماء ولا رأى للناس فـيه وأن ليس بين الإسلام وبين المسيحية فرق فى هذه الناحية. . إلى أن قـال: أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله)[1]. . ونرد على هؤلاء جمـيعًا ومن دار فى فلكهم ونقول لهم. . اقـرأوا القرآن وليس غير القرآن واسمعوا إلى كلام فطاحل العلماء منهم:

١ ـ ابن حزم. . الفقـيه الأندلسى العظيم يقول: (اتفق جميع أهل السُّنَّة وجمـيع المرجئة وجميع الشيعة وجميع الخوارج على وجوب الإمامة وأن الأمة واجب عليها الانقياد إلى إمام عادل يقيم فيها أحكام الله ويسوسهم بأحكام الشريعة التى جاء بها رسول الله ﷺ)[2].

٢ ـ الماوردى . . وهو عالم عظيم من فقهـاء الشافعية يقول: (الإمامة مـوضوعة لخلافة النبوة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به)[3].

٣ ـ ابن خلدون. . عالم فحل فى علم الاجتماع يقول: (والخلافة هى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشـارع إلى اعتبـارها فى الحقيـقة خلافـة عن صاحب الشرع فى حـراسة الدين وسياسة الدنيا به)[4].

ثم إن الذين ألّفوا كُتُبًا انبـرى لهم العلماء وردّوا عليهم، بل إن الشيخ علـى عبد الرازق حوكم أمـام هيئـة كبـار العلماء برئاسـة شيخ الأزهر وحكمـوا عليه بأنه ليس من العـلماء وسحب شهادة الأزهر منه وصدر الحكم من اللجنة المكونة من أربعة وعشرين عضوًا علاوة

(١) الفتنة الكبرى، طه حسين (١/ ٢٦).

(٢) الفصل فى الملل والأهواء والنحل (٤/ ٦٧).

(٣) الاحكام السلطانية للماوردى ص٥.

(٤) مقدمة ابن خلدون ص١٩١ وما بعدها.

على شيخ الأزهر وطرد مؤلف الكتاب من زمرة العلماء.. كما أن الشيخ محمد بخيت مفتى مصر أصدر كتابًا بعنوان حقيقة الإسلام وأصول الحكم، وكذلك الشيخ محمد الخضر حسين ألّف كتابًا بعنوان (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم) وكان ذلك فى عام ١٩٢٦..
وهناك كتب كثيرة أُلِّفَت فى هذا منها (الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى) للدكتور محمد البهى، وكتاب (النظريات السياسية الإسلامية)، (الإسلام والخلافة فى العصر الحديث) للدكتور محمد ضياء الدين الريس.. إلى غير ذلك من الكتب التى أُلِّفت فى هذا المجال والغرض منها تفنيد الرأى الذى ينادى بفصل الدين عن الدولة.. أما خالد محمد خالد فجاء الرد عليه تباعًا، ونشير إلى كتاب الشيخ محمد الغزالى (من هنا نعلم) ثم إن الذين ينادون بفصل الدين عن الدولة ـ يزعمون ـ أن ظواهر القرآن كلها تؤكد أن عمل الرسول ﷺ بالنسبة للأحكام الشرعية ليس إلاّ البلاغ فقط فهو لم يكلف إلاّ بذلك واستدلوا على ذلك بقول الله سبحانه: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾ [المائدة: ٩٩].. وذكروا كذلك قوله سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]. ويقولون.. الرسول ﷺ لم يكن حاكمًا.. ولهذا فهم ينكرون أن يكون لمنصب الخلافة بعد وفاة الرسول ﷺ أى سند من الدين ثم ذكروا أن النبى ﷺ لما خُيِّر بين أن يكون نبيًا ملكًا أو نبيًا عبدًا.. فاختار أن يكون نبيًا عبدًا. [أخرجه الترمذى].

ويرددون قوله ﷺ لرجل أخذته منه رعدة وخوف واضطراب فقال له: «هوِّن عليك فإنى لست بملك ولا جبار وإنما أنا ابن امرأة من قريش» [أخرجه أبو داود].

هذه أدلة القائلين بفصل الدين عن الدولة زاعمين كذلك أنه من غير المعقول أن يحكم العالم كله بحكومة واحدة وأن تكون قيادته واحدة، ذلك لأن الإسلام دين عالمى وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، وخلاصة القول أنهم ذهبوا فى رأيهم إلى عزل الدين عن الدولة وكل الأدلة التى استدلوا بها لا تؤيدهم.

والأدلــة

١ ـ أن الرسول ﷺ جاء مُبَلِّغًا رسالة الله إلى أهل الأرض وليس عليه أن يُكره أحدًا على الدخول فى الإسلام.. ولذلك نرى أن دعوة الرسول ﷺ موجهة إلى الناس جميعًا إعمالاً لقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الأعراف: ١٥٨]،

فالإنسانية كلها الدعوة من الرسول موجهة إليها للدخول فى الدين. . فمن استجاب ودخل فى الدين ورضى بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبسيدنا محمد ﷺ نبـيًا ورسولاً فإن سلوكه يتغير لأنه يبدأ فى تنفيذ أحكـام الله وتنفيذ أوامره ويلتزم بما يوجه إليه الرسـول ﷺ إعمالاً لقول الله تعالى: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، فالرسول ﷺ مطبق لشرع الله ومنفذ لأحكامه ويعمل على تربية أمة لها شخصية مستقلة وقانون موحد. . ذلك لأن الأمة الإسلامية. . لها رب واحد. . ونبى واحد. . وكتاب واحد. . وقبلة واحدة. . لذلك كانت الأمة متميزة بأمور تحدد شخصيتها وتُبيّن لنا أسس قيامها.

٢ ـ الرسول ﷺ نبَّهه الله أن يحكم بين الناس بالعـدل بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النسـاء: ٥٨]. بل إن الرسول ﷺ أُمِرَ أن يحكم بين الناس حتى بين المخالفين لنا فى العقـيدة لكنهم يعيشون معنا داخل الدولة الإسلاميـة. . يقول الله فى هذا: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨].

٣ ـ الإسلام يشتمل على أحكام الأسرة. . كيف يكون الزواج؟ علاقة الرجل بزوجته. . تنظيم المواريث. . علاقة الأولاد بالآباء. . كما حدد نظام الطلاق عند استحالة العشرة وبيّن ما يجب للزوجة من حقوق وما عليـها من واجبات وهى زوجة أو أم أو مطلقة. . وبيّن لنا أحكام البـيوع والشـهادة وحدد لـنا أسس العلاقـة التى يجب أن تتم من جانب الفـرد مع الأسرة والعـلاقة بالجيـران كما بـيّن لنا أصول الحكم الذى يعتـمد على الشـورى والعدالة والمساواة ثم وضّح لنا العلاقات الدولية وكيف تكون.

٤ ـ نبّه الإسـلام إلى اتخاذ الـقوة وإعـداد العـدة وأخذ الأهبـة بالأسلحـة المتطورة لرد المعتدين وجبرهم على احترام المسلمين.

٥ ـ وضع الإسلام نظام الصـلاة ورغّب أن تكون فى المساجد وأمر بالمحافـظة عليها. . وهذه الصلاة ما هى إلاّ تنظيم مصغر لقيادة البيئـة الاجتماعية يستتبع ذلك النظام الأكبر. . فالمسـجد بمثابة برلمان يجـتمع فيـه النواب وهم الركع السجود التـائبون العابدُون الحـامدون الشاكرون والإمام شـخص يقود هذه الجموع وعلى الجميع أن يلتـزموا به ولا يجوز الخروج عليه وهذا نمط من نظام الحكم وتدريب على القيادة.

٦ ـ الإسلام دين ودولة. . لأنه وضع الحدود. . وهى العقوبات التى قدّرها المشرع لحجز الناس عن ارتكاب الجرائم وصـيانة للمجتمع. . وهذه العـقوبات تتناسب مع عظم خطرها

ولأنها تتعلق بحق الأمة . . وهذه الحدود هى :
أ - عقوبة الزنا .
ب - عقوبة السرقة .
جـ - عقوبة القتل العمد أو الخطأ .
د - عقوبة شرب الخمر وقذف الغير .
هـ - عقوبة الحرابة والبغى .
و - عقوبة الردة .

وهذه العقوبات تتناسب مع قـدر الجرائم ومن ثم فهى عقوبات عادلة وليـست قاسية وإن كان فيها جلدًا وبترًا لبعض الأعـضاء ورجمًا وقتلاً . . فإن قطع الرأس لا زال منفذًا فى بعض الدول المتقدمة والرأس أهم من اليد . . فإذا جاز قطع الأهم فجواز قطع ما دونه أهون وأولى .

والإسلام لم يشرع هذه العقوبات إلاّ لمواجهـة جرائم معينة لها خطورة بالغة على الدولة والمجتمع والأسرة والأفراد والأعراض والأموال . . لأننا نرى أن الردة مثلاً لو تُرك الأمر بلا عقاب للشخص المرتد فلـن يستقيم أمر الأمة الإسلاميـة لأن المرتد يطعن فى دين الأمة بعد أن آمن به مختارًا والتزم باحترامه والعمل به ، ولا شك أن النظام الاجتماعى الأساسى الذى اعتنقته الدولة يحمى الكـيان العام حتى لا تتعرض الشعوب لهزّات عنيـفة وتقلُّبات عقائدية تُفتت الجبهة الداخلية ويكون ذلك سببًا للفوضى والخلخلة الاجتماعية .

وحد الزنا يحمى نـظام الأسرة من الفسق ويحفظ على الأسرة شـرفها وكيـانها ويحافظ على الأنساب ويحول دون الإباحية الجنسيـة وما تجرّه على الأفراد من أمراض وعلى الأسرة من تفكك والمجتمع من الانهيار .

وحد القذف يحمى سمعة الأسر والعائلات ويصون الأنساب ويدرأ عنها العار والبهتان .

وحد السرقـة . . يحمى نظام الملكية ويصون المجـتمع من ابتزاز الأقوياء للضعـفاء ويسد الطريق على مغـتصبى أموال الناس كُرهًا . . وهكـذا كلما ذهبنا إلى عقوبة وضـعت لجريمة نرى أنها وضعت لصالح الفـرد وصيانة المجتمع . . كذلك لم يغفل الإسـلام مصلحة المتهم نفسه فوازن شدة العـقوبة بتشديد مقابل فى وسائل إثباتها . . حـتى يضمن ألاّ توقع العقوبة إلاّ حيث يثبت على وجه اليقين ارتكاب الجانى للجريمة ، كذلك فإن الإسلام يتحرى وسائل الاستقـامة فى وسائل الإثبـات ويرعى فى ذلك حرمات الناس . . فلا يهـتك أسرارهم ولا يتعقب عوراتهم ولا يكشف خبيئاتهم .

ولم يكتفِ الإسلام بالتشديد فى وسائل الإثبات وإنما ترك الباب بعد ذلك مفتوحًا لدرء الحدود بالشبهات عملاً بقول الرسول ﷺ: «ادرءوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فمن كان له مخرج فخلُّوا سبيله فإن الإمام لإن يخطئ فى العفو خير له من أن يخطئ فى العقوبة».. إن الإسلام راعى العدالة التامة فى توقيع عقوبات الحدود لأنها جرائم مستنكرة بشعة فى نظر الرأى العام.. لأن العقوبة فى واقع الأمر ضرورة اجتماعية لا محيص عنها لأى مجتمع حفاظًا على سلامته وأمنه واستقراره.. وهذه العقوبات بحكم أثرها الواضح الملموس أشد إرهابًا للنفوس الشريرة والطبائع المنحرفة من العقوبات السالبة للحرية التى يعتادها المجرمون عادة بحكم طول الممارسة وإفسادها للنفوس وتحطيمها للشعور بالمسئولية.. ولا يغيب عن الذهن أن هذه العقوبات هى لإرهاب الناس فى المجتمع الإسلامى.. نقول لهم.. لا.. وإنما هى وضعت لمن تُسَوِّل له نفسه إلى النزوع إلى الشر والإفساد فى الأرض وأمثال هذه النفوس المنحطة لا يردعها إلاّ عقوبات رادعة قاسية.. ولذلك وجدت التشريعات العقابية فى كل المجتمعات مهما ارتقت فى مدارج الحضارة والتقدم.. كما أن هذه العقوبات ليس الغرض منها إنزال جزاء أليم وعقاب شديد بالمجرم بعد ارتكاب جريمته، وإنما العقوبة فى المقام الأول للحيلولة دون ارتكاب جريمته ذاتها بقدر الإمكان.. فالوقاية من الجريمة خير من الوقوع فيها.. فكلما كان العقاب فعَّالاً كان ناجحًا فى مكافحة الجرائم لأن شدة العقوبة فى ذاتها مانعة وحائلة دون وقوع الجرائم ما أمكن إلى ذلك سبيلاً..

هناك بعض الناس يتباكون على قطع يد سارق ونقول لهم.. ألا ترون أن جريمة السرقة مثلاً تمثل أخطر جرائم الأموال وهى من أبشع الجرائم لأن جريمة السرقة لها مضاعفات خطيرة.. لأن مجرمى السرقة لا يتورعون عن قتل أعز الناس لديهم.. واللصوص دائمًا تجدهم يمارسون كل ضروب الجرائم والدعارة والفسق والمخدرات وغير ذلك من الجرائم التى تقشعر منها الأبدان.. فالإسلام عندما أمر بقطع يد السارق ليعيش الناس آمنين على أموالهم وأنفسهم.

وهؤلاء الذين يتباكون على زانٍ أو سكِّير يُرجم أو يُجلد لو تصور أحدهم أن سكِّيرًا خطف أخته تحت تهديد السلاح أو زوجته أو ابنته وهتك عرضها فسأله ما رأيك؟ ونترك الإجابة له.. لأنه من المعلوم أن الشرف غالٍ على الإنسان والخمر تصيب العقل بآفات والجسم بأمراض والمجتمع بنكبات لأنها أم الكبائر والخبائث وللزنا والخمر مخاطر وخيمة

على الأسرة والصحة والمجتمع .

إننا إذ نقرر هذا نقول إن الله أرحم بنا من أنفسنا وإن الله عندما فرضها فصيانة للمجتمع لأن المجتمع الإسـلامى بحكم تكوينه الدينى على مستـوى الأفراد والجماعـة لا يهيئ المناخ الملائم لظهور الجرائم الخطيرة . . ومن هنا كانت العقـوبات رغبة فى تقويم المنحرف وعلاج الضعيف .

إذًا لو لم يكن الإسلام دين ودولة ما فرض هذه العقوبات .

* * *

الفصل الثالث
العمل الدبلوماسى

إذا كان الإسلام قد قرر العقوبة على المنحرف.. فهذا تنظيم داخلى.. والغرض من ذلك.. الحفاظ على الجبهة الداخلية لتظل متماسكة قوية يسودها الأمن والتقدم والازدهار.. والإسلام يدعو إلى العمل الجاد المثمر.. والإنتاج الجيد.. ولا شك أنه ستكون فى المجتمع وفرة من الإنتاج الزراعى والصناعى ولابد من فتح منافذ لترويج السلع وبيع الزائد من المحصول الزراعى والإنتاج الحيوانى والصناعات اليدوية الخفيفة والثقيلة..

إذًا.. فليكن هناك ترابط مع الدول المجاورة والبعيدة هذا الترابط يكون من ورائه هدفان:

١ - أن تأمن الدولة جانب الدولة الأخرى بحيث لا يكون هناك حرب أو إثارة مشاغبات أو قطع الطريق على القوافل التجارية.. الرائحة والغادية.. أو إثارة فتن داخلية من جانب تدخل دول أخرى.

٢ - ترويج الزائد من المنتج فى كافة المجالات..

فالترابط الدولى نظام معروف وقد أصبح أساسًا للتعامل بين الدول.. والدبلوماسية أصبحت تستخدم كأسلوب فى العلاقات الدولية للحصول على علاقات طيبة أو حل لمشكلات تعترض بعض العلاقات لظروف طارئة بين الدولتين.. والإسلام عرف نظام الدبلوماسية فى العهد المكى.. لأن هناك دبلوماسية طويلة النفس تستخدم الأساليب المتعددة دون الالتواء أو الخروج على مقتضى القيم الأخلاقية.. وأول من مارس العمل الدبلوماسى هو سيدنا رسول الله ﷺ لأنه يحاول نقل أفكار دعوته إلى قوم يناصبونه العداء.. والرسول ﷺ يريد أن يعيش فى هدوء واستقرار وأمن.. وكان العمل الدبلوماسى الإسلامى آية فى العمل الأخلاقى وهو يحاول أن يقنع المعاندين.. خذ مثلاً:

١ - يعتمد العمل الدبلوماسى غالبًا على أن يكون الاجتماع الأول بعد التعارف على غداء عمل.. وهذا ما فعله رسول الله ﷺ فقد دعى أعمامه على مائدة غداء.. ولما فرغ القوم من طعامهم وقف الرسول ﷺ وقال لهم: «إن الرائد لا يكذب أهله والله لو كذبت الناس جميعًا ما كذبتكم.. والله إنى لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة» لكنهم انصرفوا دون أن يؤازره أحد ولقد كرر رسول الله ﷺ لزعماء قريش كعتبة بن أبى ربيعة وأخوه شيبة وأبو سفيان بن حرب والنضر بن الحارث والوليد بن المغيرة وغيرهم كثير.. وبعد أن أكلوا وطعموا أخبرهم الرسول ﷺ بدعوته.. انصرفوا ولم يجيبوا.. لكنهم ذهبوا إلى ناديهم وعقدوا مؤتمرًا وقرروا فى نهايته إيفاد مجموعة منهم لتتحدث مع رسول الله ﷺ

يعـرضوا عليـه بعض الأمور ويسـمعـوا منه.. وبعد هذه المفـاوضات والنقـاش انتـصرت الدبلوماسية الإسلامية انتصارًا عظيمًا[1].

لأن زعيم المفاوضين من المشركين قـال: (لقد سمعت قولاً من محمـد والله ما سمعت مثله قط.. والله ما هو بـالشعر ولا هو بالسحر ولا بالكهـانة.. يا معشر قـريش أطيعونى واجعلوها بـى وخلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فـيه فاعـتزلوه فوالله ليكونـن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم فإن تصـبه العرب فقد كفيتموه بغـيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به).

٢ ـ فى العـهد المكى اعـتمـدت الدبلوماسـية الإسـلاميـة على الإقناع بالمنطق والحـجة وأشركـتهم فى عملية الإقـناع بطرح العديد من الأسئلة التى لا تجـد عندهم جوابًا ولك أن تقرأ فى ذلك سورة (الطور).

٣ ـ الدبلوماسية الإسلامية فى مكة كانت لا تتسرع جنى الثمار وإنما كان أملها أن تتحقق النتائـج وأن تجنى الإنسـانية ثمرتها ولـو طـال الوقـت.. ولكن نرى أن شخصًا كأبى جهل عندما سأله الأخـفش بن شريق وكانا يذهبان سويًا ليسـتمعا إلى محمـد وهو يقرأ القرآن.. فسأل الأخفش أبا جهل بعد ليالٍ ثلاث من الاستماع.. لماذا لا تؤمن بمحمد وأنت تسمع ما تسمع؟ فـكان رد أبى جهل (تنازعنا نحن وبنو عـبد مناف الشـرف.. أطعموا وأطـعمنا.. وحملوا وحملنا.. أعطوا وأعطينا حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا منّها نبى يأتيه الوحى من السماء فمتى ندرك مثل هذه، والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه)[2].

٤ ـ الغـرض من الدعوة الإسـلامية هـداية الناس إلى الحق.. وليس الغرض منهـا أبدًا الحرب أو الإضرار بالناس.. لذلك فإنها لم تستعجل النتائج وإنما تتروى ليقوم المجتمع على دعائم ثابتة.. فمثلاً.. الكعبة البيت الذى بُنى لعبادة الله وحده، الأصنام حوله وفوقه وهذا أمر مؤلم للنفوس المسلمة بغيض وكريه.. والـعقيدة الإسلامية فى قلوب المؤمنين الموحـدين نور يسطع على وجوههم وصفاء فى نفـوسهم ومع أن المسلمين فى مكة قرأوا قصـة إبراهيم وأنه حطم الأصنام وجعلهـا جذاذًا.. كان من المنتظر أن يقـترح المؤمنون على النبى ﷺ أن يقوموا بثورة على الأصنام يحطمونها كما فعل إبراهيم.. لكنهم لم يفعلوا لأنهم:

أ ـ يتبعون قيادة يثقون فى صدق إخلاصها..

وما دامـت هذه القيـادة لم تأمر فـهم لم يجرؤا على أن يقـترحـوا لأن هذا أمر يتـعلق بالتنظيم والقائد لديه القدرة.

(١) تراجع هذه الأحداث فى سيرة ابن هشام (١/ ٢٩٤) وما بعدها.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام.

ب ـ لو حدث أن قام المسلمون بتكسير الأصنام فى مكة لكانت معركة بين أنصار الباطل وأتباع الحق ولا شك أن المؤمنين ليست لديهم القدرة لخوض معركة لم يُعدوا لها عدة.

جـ ـ لو حدث هذا الصدام فإن حـرمة البيت العتيق تتهـتك وكيف يتم ذلك والمسلمون يدعون إلى احترامه وتوقيره وتقديسه.

د ـ نظرة القائـد بعيدة لذلك فـهناك تخطيط جيـد ليوم تُكسّر فـيه الأصنام وتُحطّم ولا يكون هناك من يدافع عنها أو يبكى عليها.

هـ ـ ولقد حدث ذلك فعلاً يوم فتح مكة ودخل الناس فى دين الله أفواجًا، وبدأ زعماء قريش وسدنة الأصنام وحماتها هم الذين يُكَسِّرونها ويقولون جاء الحق وذهب الباطل.. بل إن هندًا بنت عتبة زوجة أبى سفيان وهى من هى فى العناد والكفر دخلت فى دين الإسلام بل أسرعت بعد ذلك هى بنفسها تصنع طعـامًا شهيًا لرسول الله ﷺ وترسل به إليه وتعتذر فى أن القحطاء قد أصابهم بالعجز فلم تقدر إلاّ هذا القدر الذى أرسلته[1].

أليس فى هذا ما يدل على أن العمل الدبلوماسى أدى دورًا عظيمًا فى مكة.. ولا ننسى أبدًا توجيه الرسول ﷺ لأصحابه بأن يهاجـروا إلى الحبشة وهناك أدى جعفر بن أبى طالب الدور العظيم فى العمل الدبلوماسى العظيم.

السـفارات والمعاهـدات

إن تربية محمـد ﷺ للرجال كانت تربية عظيمة ولقد ظهـرت معالم الرجولة التى رباها النبى ﷺ فى مجتمع المدينة المنورة لأن هؤلاء الرجال حملوا المسـئولية بجدارة وساحوا بها فى المجتمع الإنســانى فأنشأوا حضــارات أسهمت فى قيام مــجتمعــات كان للإسلام الدور الأعظم والأوحد فى بناء هذه المجتمعات.. ولا يغيب عنا ما حدث فى الأندلس (الفردوس المفقود) وكيف أسهم فى حضــارة فى تركيا ما زالت إلى يومنا هذا حديث أوربا وكل ذلك لم يأتِ من فراغ.

فـالدبلوماســية الإســلاميــة منذ اللحظة الأولى لدخـول الإسلام وهى مـتكاملة الشكل والمضمون.. ولقد استخدم الإسلام من أول لحظة إرسال السـفراء ليهيئوا المناخ الاجتماعى لتبليغ الدعـوة.. كما أنه أفسح للوفود القـادمة مكانًا لتستمع مـن الداعى إلى ما يدعو.. والملاحظ أنه فى العصر الحـديث رغم أن هناك سفارات دائمة لبعض الدول مع بعـضها إلاّ

(١) راجع إمتاع الأسماع ص٣٨٣، ٤٠٠.

أن الدول لا تستغنى أبدًا عن إرسال مبعوث خاص برسالة مكتوبة أو شفهية. . والإسلام قد سبق هذه الدول. . فنجد أن الرسول ﷺ قد اتخذ خاتمًا من فضة يختم به الخطاب الذى يبعث به إلى الملوك والرؤساء[١].

وكان الرسول ﷺ يكتب الكتاب ويبعث به مع شخصية مناسبة للقوم الموجه لهم الخطاب. . ومصداق هذا أن الرسول ﷺ بعث حاطب بن أبى بلتعة ومعه رسالة إلى المقوقس عظيم القبط بمصر وبعد أن جرى حوار عظيم بين حاطب والمقوقس. . قال المقوقس (أحسنت أنت حكيم من عند حكيم)[٢].

بل إن الرسول ﷺ كان يوجه السفير الذى يحمل الرسالة أن يتعلم لغة البلد التى يسافر إليها. . قال ابن سعد فى طبقاته: (وأصبح كل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين بعث إليهم)[٣].

ثم إنه من المعلوم والمتعارف عليه أن الرجل الدبلوماسى والسفير تجده دائمًا حسن المظهر على وجهه ابتسامة رغم المشاكل التى عنده وكان الرسول ﷺ قدوة فى ذلك (فقد كان ﷺ إذا قدم عليه القوم لبس أحسن ثيابه وأمر أصحابه بذلك) [إمتاع الأسماع للمقريزى (١/٥٠٩)]. كما أن الرسول ﷺ عندما ذهب إلى مكة لأداء عمرة القضاء وقف المشركون يقولون إن المسلمين فى جهد وفاقة أكلتهم حمى يثرب فالرسول ﷺ اضطبع بردائه وأخرج عضده الأيمن ثم قال: (رحم الله امرءًا أراهم اليوم قوة)[٤].

ومع ذلك فإن الدبلوماسية الإسلامية كانت واضحة كل الوضوح لأن أقل غموض فى العلاقات قد يؤدى إلى سوء تفاهم أو ثغرات ينفذ منها العدو. . وعلى ذلك نرى أن هذا الوضوح لأدق الأمور كان يلتزم التعريف المحدد وكان يتجنب التعميمات الغامضة. . لذلك اتجه المسلمون إلى كتابة المفاوضات التى تتم مع أى طرف وهذا ما سُمِّى بالمعاهدات لأن الإسلام يحرص على الكفاية حتى لا يضل أحد أو ينسى ولتكون المحافظة على ما جاء بالمعاهدة ليكون الوفاء والالتزام.

أليس كل ذلك عمل دبلوماسى منظم يتم على أحدث ما عرفته البشرية الآن. . فكيف نستطيع اليوم أن نعلن لا سياسية فى الدين ولكل من يريد المزيد عليه أن يرجع إلى آلاف

---

(١) السيرة الحلبية (٣/ ٢٤٠).
(٢) السيرة الحلبية (٣/ ٢٥٠).
(٣) الطبقات الكبرى (١/ ٢٥٨).
(٤) الإمتاع (١/ ٣٨٨)، والسيرة الحلبية (١/ ٦٣).

الكتب التى أُلِّفَت فى هذا المضمار. . ونحن نؤكد على أن فاعلية العمل الدبلوماسى فى أى دولة يعتمد إلى حد كبير على قوتها الداخلية. . فالدولة التى تعانى حربًا أهلية أو تعانى من إفلاس مالى كذلك التى تعانى من تبديل السياسة بسبب تغير الحكومة فإن كل ذلك يؤدى إلى انعدام ثقة الدول الأجنبية فيها وبالتالى لا يستطيع دبلوماسيوها أن يؤدوا دورًا فعالاً فى المجتمع الدولى. . يقول أحد الكُتَّاب (السياسة الخارجية يجب أن تعكس القوة الداخلية والاستقرار فى الدولة)[1].

العبادات

إن العبادات التى شرعها الحق سبحانه للمسلمين فيها تنظيم للمجتمع فالصلاة كما قدمنا والمسجد لهما دور عظيم والزكاة تنظيم للتكافل الاجتماعى وتقريب بين الطبقات وتذويب الفوارق لم تعرف البشرية إلى الآن أحسن منها. . كذلك الصيام. . فهو نظام يوحد مشاعر المسلمين وينظم أوقاتهم ويهذب أخلاقهم ويرقق مشاعرهم. . إلى غير ذلك من القيم النبيلة والخلق الكريم. . والحج. . مؤتمر عالمى يقام باسم الله. . والذين دعوا لحضور هذا المؤتمر هم أنبياء الله يقام على أرض طاهرة وفى كل مكان يحرم فيه الرفث والفسوق والجدال. . والناس جميعًا بزى واحد والنشيد لهم جميعًا كلماته سماوية المطلع (لبيك اللهم لبيك) ويدارس الناس فى هذا الجو مشاكلهم فى جو كله أمن وسلام. . فلا استعمال للفيتو وإنما صوت صاحب الحق هو الأقوى. . وتجد أن هذا المؤتمر السنوى يجتمع فيه القادة والملوك والرؤساء والوزراء والحكام. . ومن كانت له مظلمة فليرفعها حتى ولو كان من غير المسلمين. . والأدلة على ذلك واضحة والتاريخ أكبر شاهد.

لهذا. . وبعد كل هذه الأدلة نقول للمشككين هل آن الأوان لكم أن تنصفوا الحقيقة وتعلنوها واضحة لأن الرجوع إلى الحق فضيلة.

نتائج

إننا لو سلَّمنا مع الجاهلين بفصل الدين عن الدولة فسوف يترتب على ذلك ما يأتى:

١ ـ قيام سلطتين فى داخل الدولة كل واحدة تنازع الأخرى الاختصاص. . فمثلاً:

أ ـ إذا سيطرت السلطة الدينية على الأمور فإن ذلك يعنى أن أمر الأمة يؤول إلى سلطة واحدة وهذه السلطة ملتزمة بدستور الجماعة الإسلامية (وهو القرآن الكريم) ومنفذة لأحكامه مطبقة لسنة رسول الله ﷺ وهنا سوف نجد من ينادى بأن المسلمين استغلوا

(١) السفير الهندى بانيكار فى كتابه أصول الدبلوماسية وأساليبها ص٢٢، ٢٣.

الإسلام أسوأ استغلال لأنهم يقطعــون يد السارق ويرجمون الزانى إلى غير ذلك من تأليب الجماهير وتضليل الرأى العام ويكون الصدام الشعبى مع الحكومة الدينية.

ب ـ إذا سيطرت الســلطة المدنية على الأمــور فإن الدين ينعزل عن الحـياة.. فـالإنسان يصلى أو لا يصلى ويصوم أو لا يصوم ويرتكب الفواحش كما يرتكب.

ومن هنا نرى من ينعى على السلطة الحـاكمة خروجـها على أوامر الدين وينعى عليــها خروجـها على أوامــر الشرع ويعلن أن هذه السلطة خــرجت على قانون الســماء ولابد من مقاومتها.. وهذا أمر لا يرضاه الــدين لأن السلطة المدنية سوف تقاوم وبعنف ووحشية كل من يحاول أن يقود الشعب فى اتجاه سيطرة القواعد الدينية على الحياة.

لهذا.. فلا بد من إيــجاد توازن فى المجتمع بين السلطتين لأن أى صــراع يضعف الأمة ويؤدى فى النهاية إلى سيطرة أحد السلطتين بعد أن يكون حــدث ما حدث من قتل وتدمير ولذا وجب علينا أن نعلن أن القــول بفـصل الدين عن الدولة يؤدى إلى الصراع فــى الأمة الإسلامية وليس هناك سوى حل واحد هو أن تكون السلطة فى الدولة قائمة على أمر الدين قائدة الدنيا به.

إن الإســلام وضع أصلح نظام لســياســة الدول فى الداخل والخــارج وليس هناك تنظيم أفضل مما وضعه الله فهو أعلم بخلقه وأعلم بما يصلح شأنهم.. وعلينا نحن المسلمين اليوم أن نقول للعالم الذى ينظر إلينا لا تحكموا على الإسلام بــعمل أتباعه لأن الإسلام حائر بين أهله بسبب جهل اتباعه وعجــز علمائه.. إن كل ما فى الإسلام ينطق ويؤكد على أنه دين ودولة.. أمر بمعروف ونهى عن منكر.. علاقة بالله وصلة بالمجــتمع.. صلاة فى محراب العبادة.. وعمل فى المزرعة ووقوف أمام مصانع الإنتاج وآلات التشغيل.

إن الإسلام لا يقر السلبــية فى حياة الناس ولا يرضى أبدًا أن تكون خــلقًا من أخلاقهم لذلك نحن ندعــو الناس إلى الدين الذى يتــسم بالرحمــة ويأمر بالوفــاء وصيــانة الحقــوق واحترام الحاكم ويــنهى عن إثارة الفتنة. وصدق الله العظيم: **﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيــدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيــلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾** [النحل: ٩٠، ٩١].

* * *

الفصل الرابع
كيف تختار الأمة من يحكمها؟

إن سيادة أى مجتمع تتركز وتتجسد فى شخص الحاكم.. والحاكم من الشعب والشعب هو الذى اختاره.. فكأن حق السيادة المطلقة هو للأمة لا يشاركها فيه منازع.. ولما كانت الأمة فى مجموعها يستحيل عليها أن تمارس مظاهر السلطة فإن أفراد الأمة يختارون من ينوب عنهم فى ممارسة مظاهر سلطة الدولة.

لهذا قالوا.. إن مبدأ سيادة الأمة هو لب الديمقراطية.. وعلى هذا فإن كل فرد من أفراد الشعب يعتبر حاملاً لجزء من سيادة الأمة مساوٍ لما يحمله كل شخص فى الدولة.. والكل يستظل بظل القانون الذى هو تعبير عن إرادة الأغلبية التى وافقت على مواد هذا القانون.. لهذا فإن انتخاب الحاكم واختياره هو حق لكل فرد من الأمة باعتبار أنه يملك جزءًا من السيادة الشعبية.. فالانتخاب حق لكل فرد من الأمة باعتبار أنه يملك جزءًا من السيادة الشعبية.. فالانتخاب حق لكل فرد عليه أن يبدى رأيه ولا يمنعه من ذلك أحد.. وعلى هذا فإن الديمقراطية الحقيقية هى أن يتولى الشعب بنفسه ممارسة مظاهر السلطة فى الدولة.. ولما كان هذا النظام يستحيل لعدم القدرة على جمع المواطنين من الدولة فى مكان واحد.. لهذا كان هذا نظام (الانتخاب..) أو (الاستفتاء الشعبى) وهذان النظامان هما أقرب شيء إلى الصواب وإن كانت هناك بعض الأنظمة فى الدول الأخرى.. إلاّ أن هذا النظام هو الذى يتفق مع مبدأ الإسلام الذى نبهنا إلى استعمال الشورى حتى قال لحبيبه ومصطفاه ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].. ولما كانت الأمة هى التى تختار الخليفة فإن هناك بعض القواعد يجب أن تراعى.. أهمها:

١ ـ لما كان يصعب حشد أفراد الأمة فى مكان واحد لأخذ رأيهم فإن دور الشعب يقتصر على.. اختيار النواب الذين يقومون عنه باختيار الحاكم.. فدور الشعب مهم جدًا فى اختيار النواب على الناخب أن يدقق فيمن يختاره.. ولقد قلنا بأن.. الكفاءة.. والقدرة والاستقامة.. والنزاهة.. والصدق.. والوفاء.. شروط أساسية فى العضو الذى يتم انتخابه.

٢ ـ من يتم انتخابه بعد ثبوت صلاحيته أصبح ممثلاً للأمة كلها فهو يتكلم عن الأمة عليه أن يهتم بأى مشكلة فى أى موقع.

٣ ـ أعضاء البرلمان أو (أهل الحل والعقد) لهم جزء كبير من الاستقلال عن الناخبين فى

ممارسة سلطتهم وأعمالهم.. وإنما من حق الناخبين أن يعرضوا مطالبهم وعلى العضو المنتخب أن يصوغ ما قُدِّم إليه بفكره ويقدم الأولويات.. وأن يكون عادلاً ولا يتأثر ببعض الأهواء وإنما يراعى المصلحة العامة التى تهم الجماهير وتكون ذات نفع عام فى المجتمع.

٤ ـ والنظام البرلمانى المعروف الآن عليه أن يتعاون مع كافة الأجهزة ويقيم التوازن أمام السلطة التشريعية والتنفيذية وأن يراقب كل ما يجرى على الساحة.

٥ ـ إن الحاكم العام ليس فى استطاعته أن يباشر كل شىء فى الدولة لذلك فإن السلطة تنتقل منه إلى الوزراء وهم بدورهم ينقلون سلطتهم إلى الوكلاء وكلٌ يباشر عمله.. ومن ثم فإن رئيس الدولة هو المسئول أمام البرلمان.. والوزراء كل فى اختصاصه مسئول أمام رئيس الدولة ومن حق النواب (أهل الحل والعقد) أن يحيلوا رئيس الدولة إلى المحاكمة إذا أخطأ فى حق الأمة أو أتى أعمالاً من شأنها الإضرار بمصالحها وتكون محاكمة رئيس الدولة بطريقة يحددها الدستور.

إن الأمة تسمع وتطيع للحاكم وتسارع فى نصرته فإن أهل الحل والعقد من حقهم لأنهم نواب عن الأمة أن تكون لهم وقفة.. ونذكر هنا أن الأوزاعى وهو رجل من أهل الحل والعقد.. دخل على الخليفة العباسى (المنصور) فقال له: يا أمير المؤمنين، قال رسول الله: «أيما والٍ مات غاشا لرعيته إلاّ حرّم الله عليه الجنة.. يا أمير المؤمنين كنت فى شغل شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس الذين أصبحت تملكهم أحمرهم وأسودهم ومسلمهم وكافرهم وكل له عليك نصيب من العدل.. فكيف بك إذا انبعثت منهم فِئام وراء فِئام ليس منهم أحد إلاّ وهو يشكو بليَّة أدخلتها عليه أو ظلامة سقتها إليه.

يا أمير المؤمنين .. إن رسول الله ﷺ دعا إلى القصاص من نفسه فى خدش خدشه أعرابيًا لم يتعمده فأتاه جبريل.. فقال يا محمد.. إن الله تعالى لم يبعثك جبارًا ولا متكبرًا فدعا رسول الله ﷺ الأعرابى فقال: اقتص منى.. فقال الأعرابى.. قد أحللتك بأبى أنت وأمى يا أمير المؤمنين.. إن الملك لو بقى لمن قبلك لم يصل إليك.. وكذلك لا يبقى لك كما لم يبق لغيرك.

يا أمير المؤمنين.. بلغنى أن عمر بن الخطاب قال: لو ماتت سخلة على شاطئ الفرات ضيعة لخشيت أن أسأل عنها.. فكيف بمن حُرِم عدلك وهو على بساطك؟»[1].

---

(١) مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة ص١١٥ وما بعدها.

هكذا كان يتعامل النواب مع الحكام (صراحة ووضوح والتزام بالمنهج الأخلاقى) ولعل أبلغ من ذلك ما حدث من أبى مسلم الخولانى عندما دخل على (معاوية بن أبى سفيان) وحوله الكثير من رجالات الدولة.. فيقول أبو مسلم (السلام عليك أيها الأجير.. فينكر الجالسون هذا الأسلوب ويصيحون فى وجهه.. كيف تقول هذا لأمير المؤمنين؟ لكن معاوية يقول لهم.. دعوا أبا مسلم فإنه أعلم بما يقول.. فيقول أبو مسلم: يا أمير المؤمنين إنما أنت أجير.. استأجرك رب هذه الغنم لرعايتها فإن أنت هنأت جرباها وداويت مرضاها وحبست أولاها على أخراها وفّاك سيدها أجرك.. وإن أنت لم تهنأ جرباها ولم تداوى مرضاها ولم تحبس أولاها على أخراها.. عاقبك سيدها)[1].

هكذا كان يتعامل أهل الحل والعقد لأنهم يدركون مسئولية الحاكم وأن الأمة عندما اختارته فقد حملته الأمانة ووجب على الجميع أن يعاونه ويساعده ليسلك بالأمة الطريق الأصوب.

٦ ـ الوزارة بكافة تشكيلاتها (مجلس الوزراء بأكمله) والذى يتكون من رئيس مجلس الوزراء والوزراء مسئولين كذلك أمام أهل الحل والعقد مسئولية تضامنية بمعنى أنها تهدف إلى شكر الوزارة إن أحسنت.. أو إسقاطها إذا أساءت خاصة عندما تفقد ثقة البرلمان[2]. ولأهل الحل والعقد (البرلمان) أن يشكل لجانًا للتحقيق فى بعض تصرفات الوزراء بعد توجيه الأسئلة إليهم واستقبالهم.. لأن للوزراء الحق فى حضور جلسات أهل الحل والعقد (البرلمان) والاشتراك فى إدارة الجلسات والمناقشات.

إن ما قدمنا إنما هو تمهيد ليتبين لنا أن الأمة هى صاحبة الحق وأن الحكومة من الشعب وبكل الشعب ولكل الشعب.. فهى جاءت إلى المنصب بواسطة الشعب الذى له السيادة المطلقة.. والإسلام قد كفل الحقوق لكل الأفراد ومنحهم الحرية ولا يملك أحد كائنًا من كان أن يصادر حقوق أى فرد إلاّ من خلال القواعد العامة والإجراءات السليمة فمن نال من حقوق أى إنسان أو صادر حريته فقد خرج على النظم الإسلامية ونال من الشريعة ووجب على المسلمين السعى لتغيير هذا المنكر.. وقد فصلت الشريعة الإسلامية من خلال منهجها القرآنى هدى نبيِّها ﷺ وأقوال العلماء الفقهاء ومن يعتد برأيهم هذه الحقوق التى مُنحت لكل فرد والحرية السياسية الممنوحة له والنظم الاجتماعية والاقتصادية ووسائل حماية هذه النظم والحفاظ عليها دون تطرف بالإفراط أو التفريط.

(١) السياسة الشرعية لابن تيمية ص٢٤.

(٢) يراجع فى ذلك كتاب النظم السياسية والقانون الدستورى ص٣٣٤ وما بعدها للدكتور فؤاد العطار.

الأمة هى مصدر السلطة وهى التى تختار الحاكم وتراقبه وتناصحه وتملك وحدها اختيار النواب الذين ينوبون عنه (أهل الحل والعقد) كما أنها تملك وحدها عزل الحاكم أو النائب إن حاد أحدهما عن الطريق السوى لقول الرسول ﷺ «لا تجتمع أمتى على ضلالة» [أخرجه أبو داود].

وبهذا يكون المنطق السليم (مصدر السيادة هو الموكل الأصيل.. وليس النائب الوكيل)[1].

وإذا كانت الأمة هى صاحبة السيادة العليا فليس لها أن تخالف نصًا قطعيًا من كتاب الله أو سنّة رسوله.. فهى مقيدة بأحكام الشرع الإسلامى.. لأن صاحب السيادة فى الحاكمية على العالم أجمع هو (الله رب العالمين) الذى نعبده ونحتكم لشريعته ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، ومبدأ سيادة الأمة يتلاءم مع ما جاء به الإسلام فليس هناك اضطراب ولا خلخلة.. لأن الخطاب فى القرآن الكريم موجه إلى الأمة كلها ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وهكذا نرى أن النداء فى مبدأ السيادة يتوجه من الله صاحب الأمر إلى الناس جميعًا باعتبارهم شركاء فى المسئولية وأخيرًا الدعوة الصريحة إلى استعمال الشورى كنظام أساسى فى حكم البلاد لأن الأمة متضامنة مع بعضها ثم تُنيب عنها أصحاب الكفاءات واختيار القيادات السياسية الذين لهم رصيد من العمل الاجتماعى المؤسس على الأخلاق والقيم والالتزام بالمبادئ النبيلة.. فالمؤمنون بعضهم أولياء بعض يسعى بذمتهم أدناهم.. لذلك فإن الشعب لا يملك سلطة مبايعة الحاكم وعزله بقانون وضعه هو من نفسه.. بل ذلك محكوم بالقانون الإسلامى الذى أراده الله رب العالمين وقد فصل العلماء الذين لهم قدم راسخة فى العلم الشروط التى يصح بها اختيار رئيس الدولة.. كما بينوا الأسس التى يتم عليها عزله.. ولا يجوز بأى حال من الأحوال سن تشريع يرتكز على قانون يتعارض مع نص من الكتاب والسنّة أو مع قاعدة من القواعد العامة التى أرستها الشريعة الإسلامية اللهم إلاّ فى حالات استثنائية أو ظروف طارئة تمليها مصلحة عامة ضرورية إعمالاً لقول

(١) نظام الحكم فى الإسلام، للدكتور محمد يوسف ص١٢٦.

الحق سبحانه: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣]. . وفى قوله سبحانه: ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩] وكما فعل سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى عام المجاعة فنظام الإسلام تحكمه القواعد الدينية من جميع الوجوه. . وهو نظام فيه يسر ورحمة وتسامح. . لا يتسم بالعنف. . ومن هنا كان منهجه وطريقته يسمو على كل ما عداه.

أساليب الاختيار

١ ـ من المعلوم أن الرسول ﷺ هو الذى أسس الدولة الإسلامية وبالتالى كان هو الحاكم الأول. . وقبل ذلك وبعده كان نبيًا يوحى إليه الله ويسدد خطاه ويصحح له العادات الاجتماعية. . ويعصمه من الناس ومضت مدة الرسول ﷺ والناس من حوله يستشيرهم وينزل على رأيهم ما لم يكن هناك وحى ويترك لهم أمر اختيار بعض الأمور ويقرهم عليها ويقول لأصحابه فى كثير من الأمور «أنتم أعلم بأمور دنياكم». . ومع ذلك فقد كان للنبى ﷺ أعوان يصطفيهم يجاذبهم الرأى. . ويناقشهم وهؤلاء نسميهم بلغة العصر وزراء. . كأبى بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وسعد بن معاذ وأسعد بن زرارة وغيرهم كثير كل فى اختصاصه وخبرته وكان من هؤلاء ما نسميهم بأهل الحل والعقد كالشخصيات الشعبية ذات الثقل فى المجتمع كسعد بن معاذ وأسعد بن زرارة وعبادة بن الصامت.

وكذلك كان هناك من النساء نسيبة بنت كعب وأسماء بنت عمرو إلى غير ذلك كثير لتتضح الصورة أمام أعيننا أن الرسول ﷺ كان يُسَيِّر مقاليد الحكم برأى عام ووحى السماء يؤيده أو يصحح له ما فيه خير الإنسانية وسعادة البشرية. . والأمر كذلك حتى لا يقال إن هناك استبداد بالرأى. . والرسول ﷺ عندما تقدم به السن بدأ يوجه النظر إلى أبى بكر. . فقد أمر المسلمين أن يجعلوا أبا بكر إمامًا لهم. . والرسول ﷺ لم ينص صراحة فى أى حديث على أن الخليفة هو فلان. . ففى الحديث «لو كنت مُؤَمِّرًا أحدًا دون مشورة المؤمنين لأمَّرت ابن أم عبد. . يعنى ابن مسعود» [أخرجه الترمذى]. . والرسول ﷺ يعلم تمامًا أن الإسلام أصبح له السيطرة التامة بنظامه على كل مناحى الحياة. . وليس هناك مصلحة لفرد أو لجماعة تتعارض مع النظام الإسلامى ومن ثم يكون الجوهر اختيار الحاكم فى الإسلام هو البحث عن أفضل العناصر التى تنفذ شرع الله وتحقق مصالح العباد والرسول ﷺ وهو إذ يعلن أن أهم عنصر فى الحاكم أن يكون صالحًا فى القيادة ولقد توفى رسول الله ﷺ ولم

يستخلف أحدًا من الناس. . والرسـول ﷺ لم يكن ناسيًا. . وهو يدرك تمامًا أن الشرك لا زال له بقية فى الأطراف البعيدة عن موقع الخلافة. . وإنما ترك هذا الأمر ليعطى للأمة حقها فى أن تختـار من تراه أهلاً للنهوض بمصـالحها. . فـالرسول ﷺ ترك أمر اخـتيار الخليـفة للأمة. . هذا أسلوب فالأمة من حقها أن تباشـر اختيار الحاكم. . وهذا الاختيار إما أن يتم عن طريق أهل الحل والعقد وإما أن يكون عن الانتخاب المباشر أو الاستفتاء الشعبى.

٢ ـ اختيـار أبى بكر الصديق لخليفته وهو ما نـسمّيه باختيار الخليـفة. . يقول أبو يعلى الحنبلى. . ويقول الماوردى (والإمـامة تنعقـد بوجهين أحدهمـا باختيار أهل الحل والعـقد. والثانى بعهـد الإمام من قبله)[1]. . وعلى هذا قرر العلماء بأن الحـاكم يجوز أن يعهد إلى غيره لأن أبا بكر رضى الله عنه شاور أهل الحل والعقد فى رغبته أن يعهد إلى عمر فأظهروا رضاهم على ذلك. . إذًا فولاية العهد تتم بالاستشارة خاصة من أهل الحل والعقد. . وهذا بلا شك مسلك سديد وحميد لاختيار الخليفـة لأنه بعد أن يعهد الحاكم إلى ولى العهد فهو بذلك يقربه منه ويوجهـه ويطلعه على السياسة العامة والخـاصة وهذا بمثابة تدريب. . علمًا بأنه بعد مـوت الحاكم يطرح الأمر على الجمـهور لإبداء رأيهم على أن الحاكم مسـئول عن حسن الاخـتيار لأنه مسـئول أمام ربه وهو فى آخر عـمره فعليه أن يحـسن إلى الأمة التى أحسنت إليـه وأن يأتى لها بالكفاءات التى تنهض بـالأمر. . ولذلك رأينا أبا بكر رضى الله عنه يعهـد بالأمر من بعـده إلى عمر ويعلن على الناس أنـه اختار لهم الأفـضل والأحسن والعادل. . ومع ذلك فإن المسلمين أقروا بهذا الاختـيار وإن كان البعض قد أبدى تخوفًا من عمر لشدته وصلابته وقوته.

الاستخـلاف

عرف المسلمون طريقة الاستخلاف (ولاية العـهد) أو النائب للحاكم لأنها الطريقة السهلة والأسرع فى عملية انتقـال السلطة واستدلوا على ذلك بفعل أبى بكر رضى الله عنه وهو من هو فى دينه وخلقه وقـد أجمع المسلمـون على جواز هذا العمل لما فـيه من اتصال الإمـامة وانتظام أمر الإسلام وأهله ورفع مـا يتخوف من الاختلاف فى رئاسة الدولة. . فـالخليفة فى حضـرته وهو مفوض من الأمة وعـنها فهو فى ذلك أمين علـى مصالح الأمة فى حـياته. . ويختار الأصلح فى حال صحته. . علمًا بأنه لا تنعقد الخلافة بمجرد العهد من الحاكم السابق بل يجب عليه أن يشاور أهل العـقد والحل كما فعل أبو بكر رضى الله عنه. . فـقد جاء فى

(١) الأحكام السلطانية ص٧ لأبى يعلى، والأحكام السلطانية للماوردى ص٤.

الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/ ١٤١) أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه لما استعزيه دعا عبد الرحمن بن عوف.. فقال له.. أخبرنى عن عمر؟ فقال عبد الرحمن.. ما تسألنى عن أمر إلاّ وأنت أعلم به منى، فقال أبو بكر: وإن. فقال عبد الرحمن بن عوف هو والله أفضل من رأيك فيه.. ثم دعا عثمان بن عفان.. فقال له.. أخبرنى عن عمر؟ فقال أنت أخبرنا به.. فقال على ذلك يا أبا عبد الله.. فقال عثمان اللهم علمى به أن سريرته خير من علانيته وأنه ليس فينا مثله.. فقال أبو بكر: يرحمك الله والله لو تركته ما عدوتك.. وشاورا معهما سعيد بن زيد وأسيد بن الحضير وغيرهما من المهاجرين والأنصار، ولقد قال أسيد: (اللهم أعلمه الخبرة بعدك يرضى للرضا ويسخط للسخط الذى يسر خير من الذى يعلن ولم يلِ هذا الأمر أحد أقوى عليه منه وسمع بعض أصحاب النبى ﷺ بدخول عبد الرحمن وعثمان على أبى بكر وخلوتهما به فدخلوا على أبى بكر فقال له قائل منهم: ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك؟ فقال أبو بكر: أجلسونى.. أبالله تخوفوننى؟ خاب من تزود من أمركم بظلم.. أقول.. اللهم استخلفت عليهم خير أهلك).

ويجوز للخليفة أن يعهد لأكثر من واحد كما حدث من عمر بن الخطاب رضى الله عنه. فإن عمر عهد إلى ستة من الصحابة وكلفهم أن يختاروا الأفضل الذى يصلح لقيادة الأمة وقد اختار عمر الستة لكفاءتهم وخبرتهم ومعرفتهم لكثير من الأمور.. واجتمع الستة وكلفوا عبد الرحمن بن عوف أن يقوم هو بعمل الاتصالات بالشخصيات الشعبية ويستطلع رأى ولاة الأقاليم ويتعرّف على اتجاهات الرأى العام ثم يعرض على بقية زملائه ما توصل إليه من رأى وهم إما يؤيدوه أو يناقشوه الرأى ويستوضحون وإما أن يعارضوه.. ولا مانع من المعارضة الهادفة البناءة.. وقام عبد الرحمن باستطلاع الآراء التى أجمعت على عثمان ابن عفان.. فكأن رأى عبد الرحمن كان كاشفًا عن الرأى العام بعد الاستطلاعات.. لذلك لما طرح اسم عثمان على الساحة قوبل بالارتياح وتم انتخابه..

هذه بعض الاتجاهات فى اختيار الخليفة علمًا بأن الإمامة لولى العهد لا تنعقد بمجرد العهد وإنما لابد من إبداء الرأى العام لتكون الأمور على بينة (يجوز للإمام أن يعهد إلى إمام بعده ولأن عهده إلى غيره ليس بعقد للإمامة لأنها لا تنعقد للمعهود إليه بنفس العهد وإنما تنعقد بعهد المسلمين وإن إمامة المعهود إليه تنعقد بعد موته باختيار أهل الوقت[1].

* * *

(١) الأحكام السلطانية لأبى يعلى ص٩.

الفصل الخامس

انحراف فى الرأى

إن الغرض من ولاية العهد هو النصح للأمة لأن المؤمنين بعضهم أولياء بعض وحفظ مصلحة الوطن لأن الله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه . . وجمع كلمة الأمة على شخصية لها ثقلها الاجتماعى وقدرتها على الأداء وانضباطها على القيم الأخلاقية وقدرتها على اتخاذ القرار وكياستها فى مواجهة الأحداث وهذا ما رآه أبو بكر وعمر فالمصلحة العامة فوق الجميع وليس هناك محاباة . . لكن للأسف استغل أصحاب المآرب هذه القاعدة العظيمة وأسندوا ولاية العهد إلى ولد الحاكم أو أحد أقاربه . . وهنا قامت ولاية العهد على المحاباة وفى ذلك بعد عن المصلحة العامة وضياع للكفاءات وأول من ابتدع هذه البدعة معاوية بن أبى سفيان فقد أخذ العهد لابنه يزيد وجعل المسلمين يُبَايعونه طوعًا أو كرهًا . . لذلك رأينا الانتكاسة التى أصابت المسلمين حيث بدأوا بعد ذلك يعهدون إلى الأطفال وهو عهد غير صحيح . . وكانوا يأخذون البيعة بالإكراه . . أو تكميم الأفواه . . وكان ذلك يتم تحت تأثير المجاملة للحاكم أو الخوف منه .

وقد شارك فى إهدار حقوق الأمة الذين سكتوا على الباطل ولم يرفعوا أصواتهم بالاحتجاج . . فالمسلمون بذلك خانوا الأمانة ولم يقوموا بأداء الواجب عليهم لذلك نتج عن ذلك :

١ ـ انقلاب الموازين فى الدولة . ووضع الأمور فى غير نصابها فاختلطت الأهواء وغلبت المصالح الفردية وظهرت الأنانية .

٢ ـ تحول الحكم فى الدولة الإسلامية عن غايته . . وفسدت أداة التنفيذ للأحكام فى الدولة وسادت المنفعة الشخصية .

٣ ـ نتج عن فساد الحكم أن ابتعد الناس عن الدين وفسدت الأخلاق وشاعت الفاحشة وضعف الوازع الدينى عند المسلمين ولقد أصبحت الفوضى . . الشعار الذى رفعوه .

٤ ـ كان من وراء كل ذلك أن اشتعلت الفتن هنا وهناك ونشبت الحروب الأهلية وكثُرت الانقلابات العسكرية وها نحن اليوم نشاهد وبأعيننا كثرة الانقلابات بل والحروب المدمرة كما حدث مع العراق وإيران والعراق والكويت . . ومن هنا فإن الأمة الإسلامية أصبحت مضرب المثل فى العالم كله على الظلم والاستبداد لأن المسلمين تخلوا عن دينهم وتركوا أمر

الشورى واستعملوا الاستفتاء الشعبى الذى تأتى نتيجته دائمًا ٩ر٩٩٪ كما أننا رأينا التزوير فى الانتخابات حتى لقد نادى المصلحون وأهل الرأى أن نعمل بعمل أهل المكسيك أو بما جرى من بعض أهل أفريقيا عندما سقط الحزب الحاكم فى الانتخابات. . ويا لحسرة النفس ولوعتها. . المسلمون دينهم يأمر بالعدل والإحسان وعدم الغش والتزوير والثبات على المبدأ وعدم محاباة الابن أو الأخ أو العم أو الخال لأن الحق أحق أن يتبع ومع ذلك فلا ترى إلاّ ما يؤلم النفس. . إن بعض المسلمين يقولون نرضى بهذا الوضع خشية الوقوع فى الفتنة. . وهم فى الفتنة قد سقطوا لأنهم أقاموا أمر الدين والدنيا على غير ما يرضى الله. . ومن هنا نوجه نداءًا إلى عقلاء الإنسانية فى كل مكان. . لا تحكموا على الإسلام بحكم عمل معتنقيه وإنما احكموا على المسلمين بقدر تمسكهم بكتاب الله والتزامهم بهديه.

إن مسألة ولاية العهد أمر خطير لذلك ننبه ونقول إن عهد الخليفة لمن بعده ليس عقدًا وإلاّ لأفضى إلى اجتماع إمامين فى عصر واحد فى دولة واحدة وهذا غير جائز. . يقول الشيخ محمد رشيد رضا إن للإمام أن يستخلف غيره بشرط أن يكون الإمام جامعًا لشروط الإمامة ولكن الاستخلاف متوقف على إقرار أهل الحل والعقد له كما يرى أن استدلال الفقهاء يقتضى هذا الرأى وإن لم يصرحوا)[1]. فالاستخلاف يكون ترشيح للرجل الأصلح من غير نظر إلى قرابة أو غيرها أو حفظ الرئاسة فى أسرة بعينها دون رعاية إلى مصلحة الأمة. . ثم أن يقبل المعهود إليه تحمل عبء الأمانة ولا يجبر عليها. . وأن يكون الحاكم الذى يختار نائبه قد تم اختياره من الأمة التى رضيت به. . ويجوز أن تكون ولاية العهد لأكثر من واحد بشرط أن يرتبهم الحاكم أولاً. . ويقول إذا مت فإن بعدى فلانًا. . فإن مات فبعده فلان. . وقد استدلوا على ذلك بما فعله رسول الله ﷺ فى جيش مؤتة. . حيث أسند الإمارة إلى زيد بن حارثة وقال إن أصيب فبعده جعفر بن أبى طالب فإن أصيب فعبد الله بن رواحة. . وقد ذهب الماوردى إلى عدم جواز العهد للآباء والأبناء وذلك لأن العهد كالشهادة والحكم فلا تقبل شهادة الرجل لأصوله وفروعه ولأن الشبهات تثور فى مثل هذا العهد. . ثم إن الخلفاء الراشدين رفضوا مثل هذا العهد[2]. يقول ابن سعد: (إن عمر رضى الله عنه قال: مَنْ استخلف. . لو كان أبو عبيدة بن الجراح؟ فقال رجل: يا أمير

---

(١) انظر كتابه الخلافة، ص٣٣ وما بعدها.

(٢) يراجع فى هذا الأحكام السلطانية للماوردى ص٩ وما بعدها.

المؤمنين فأين أنت من عبد الله بن عمر؟ فقال عمر: قاتلك الله، والله ما أردت الله بهذا. . أستخلف رجلاً ليس يحسن طلاق امرأته)[1]. وروى الطبرى هذه القصة وفيها (لا أرب لنا فى أموركم ما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتى. . ورفض على بن أبى طالب مثل هذا الأمر. . وقد سألوه أنبايع ابنك الحسن؟ فقال: لا آمركم ولا أنهاكم. . أنتم أبصر . . وقال لمن طلب منه أن يوصى. . لا. . ولكنى أترككم كما ترككم رسول الله ﷺ)[2].

الأمة الإسلامية

الأمة الإسلامية تدين لله الواحد تعبده وتؤمن بالنبى الذى بعثه وتلتزم بالكتاب الذى نزل على هذا النبى. . لذلك فإن الحكم فى الدولة الإسلامية يستمد كل مواده ونظمه من القرآن الكريم. . لذلك فإن الحاكم فى الإسلام يرتبط ارتباطًا كليًا بهذا الدين. . لأن السيادة المطلقة لشريعة الله تعالى. . وسيادة الأمة مرتبطة بنصوص الشرع فلا يجوز لجمهور المسلمين التشريع بما يخالف نصًا صريحًا من كتاب الله وسُنَّة رسوله. . والأمة التى تختار الحاكم لينوب عنها فى تنفيذ أحكام الله تراقبه بدقة وأمانة وتعاونه بالنصيحة المخلصة وعلينا أن نفرق بين أمرين فإن كلمة الشعب فى المنظور الديمقراطى يرتبط بالفكرة القومية. . لذلك فإن كل ما يهم هذا الشعب يرتبط بالحيز القومى ولا يتجاوزه. . هذا أمر. . الأمر الثانى. . أن كلمة الشعب فى المنظور الإسلامى أوسع من ذلك بكثير إنه يضم كل من قال: (أشهد ألاّ إله إلاّ الله وأشهد أن محمدًا رسول الله) هذا بالإضافة إلى أهل الذمة من غير المسلمين وكل من يعيش تحت لوائهم وعلى الأرض التى يقام فيها شرع الله. . إن النظام السياسى الإسلامى محكوم بشرع الله والأفراد محكومون بشرع الله. . لذلك ترى أن النظام السياسى الإسلامى يتفق مع الكثير من الأنظمة القائمة الحاكمة فى المجتمع الدولى. . ولكن النظام السياسى الإسلامى لا يقر سيطرة الديكتاتورية وإن ادعى الحاكم أنه عادل لأن هذا الحكم يقوم على النظام الشمولى ويتدخل فى كل صغيرة وكبيرة فى حياة الأفراد مع عدم الأخذ بآرائهم فهو إذًا يلغى مبدأ (الشورى).

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/٢٤٨).

(٢) تاريخ الطبرى (٤/٢٢٧).

والخلاصـة

١ ـ إن النظام السيـاسى الإسلامى يقوم علـى مبدأ الشورى . . وهـو ليس ديمقراطيًا بل يختلف معها فى بعض الأمور خلافًا بسيطًا .

٢ ـ النظام السـيـاسى الإسلامى ليس نـظامًا شمـوليًا لأنه يرفض مـبدأ سـيطرة الفـرد وتحكمه .

٣ ـ النظام السيـاسى الإسلامى له طبيعـة خاصة فى الحكم لأنه يأمر بالعـدل والإحسان وعدم المحاباة والوضـوح ولا يكشف المستور من أمـر الناس ونظامه يقوم على صـيانة الأمة ويهدف إلى تحقيق صالح الفرد والجماعة معًا ولا يبيح الاستغلال . . ولا يجوز للحاكم أبدًا أن يقف موقفًا سلبيًا إزاء تصرفات بعض الأفراد التى تنطوى على الاستغلال أو الاحتكار أو تركيز الأموال فى أيدى فـئة معينة واستغلالهم مصـالح الأمة والضرب بقوة على يد الظالم مهمـا كان ولا يقر الإسلام النزعة السلبـية للأفراد . . ولهذا تجده يفـرض على الدولة كفالة المحتاج .

إن المجتمع الـدولى لو أخذ يفتش فى كل القوانين الوضـعية لن يجد أفـضل من تشريع الله . . لأنه سبـحانه الخالق وهو أعرف بما يصلح عـباده وبما يحقق الرفـاهية لهم . . لذلك شـرع لنا كل خيـر ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] فـالله سـبحـانه وتعالى بيّن لنا فى القـرآن الكريم نماذج للحاكم اليقظ الحريص على مـصلحة الدولة والأمة والقائم على تدبير شئون الملك وعن الحكومة الشـورية ومعرفة أحسن أنواع التجسس النافع لصالح الدول . . وضـرب لنا مثلاً على ذلك بقـصة سليمـان عند قوله سبـحانه: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ [النمل: ٢٠] والقرآن يضع مبدءًا دستـوريًا هامًا وهو (ألاّ يستبد الحاكم برأيه وينسى رعيته) ولك أن تقرأ هذا فى سورة النمل لترى كـيف يكون الحاكم؟ وكيف يتعامل مع أفراد رعيتـه؟ وترى كيف قام الهدهد بعمليـة استطلاع وتجسس ثم ذهب إلى الحاكم فـأخبره . . وكيـف حمل الخطاب من سليـمان إلى الملكـة التى تراها بعد أن قـرأته جمـعت أهل الحل والعقد وأدارت حوارًا هو الشورى بعـينه . . وكيف حكمت هى على أن الملوك يفسدون فى الأرض ولا يصلحون وأدلتها على ذلك إلى غير ذلك من أمور السياسة العليا والتى ترسمها هذه السورة بكل وضوح وجلاء .

إننا بهـذا نرد على الذين يشككون فى نـظام الحكم فى الإسلام ونـقول لهم (كـفى أن تقرأوا سورة النمل فقط) .

السلطات فى الدولة الإسلامية

نظام الحكم فى الإسلام نظام انفرد به عن غيره من الأنظمة لأن أمـور الحاكمية فى حياة البشر لله وحده.. وتقـوم سياسة الحكم فى الإسلام بعد التسليم بقـاعدة الألوهية الواحدة التى هى مصدر التشريع للحكم بين الناس على أساس العدل المطلق الذى لا يميل ميزانه ولا يتأثر بالقرابة بين الأفراد ولا بالتباغض بينهم.

وإذا كان الباحثون فى عصرنا الحديث يعملون على تقسيم السلطة فى الدولة إلى:

١ - سلطة تشريعية.

٢ - سلطة قضائية.

٣ - سلطة مالية.

٤ - سلطة تنفيذية.

٥ - سلطة المراقبة.

ولقد قامت نداءات بفصل هذه السلطات عن بعضها مع إقامة نظام للتوازن بينها حتى لا تطغى سلطة على سلطة.. والذى يقرأ الكتب التى تحدثت عن نظم الحكم فى الإسلام يرى أن فقـهاء المسلمين قـد تركوا الأمر لأهل الحل والـعقد فى الدولة أن يضـعوا من القـواعد والنظم ما يرونه يحقق لهم المصلحة العامة.. لأنه ليس فى الإسلام ما يوجب الأخذ بنظام معين لجـهاز الدولة.. فقـد ورد عن رسول الله ﷺ (أنتم أعلم بأمور دنيـاكم) وقد تركت الشريعة الإسلامية أساليب التنظيم للحاكم باعتباره نائبًا عن الأمة ومن يعاونه من أهل الحل والعقد وأن يكون ذلك فى حـدود ما أمر الله به الحاكم من استـشارة أهل الرأى والغاية.. إحقاق الحق ومنع التجاوز.

إن الحاكم عليـه أن يقوم بمباشرة هذه الـسلطات خاصة السلطة التنفـيذية التى تدخل فى أعمال الناس فعلى الحاكم أن يكون يقظًا وأن يختار الكفاءات ويبعث بالمفتشين والمراقبين بين الحين والحين.. أما السلطة التشريعية فهناك القـواعد العامة والضوابط الأساسية والأحكام: الكلية والمبادئ العامة التى جاء بها القـرآن الكريم وافيًا والسلطة القضائية هى العين الساهرة على إحـقـاق الحق بين الناس ورفع الظلم عنهـم.. والحكم فى المنازعـات والخصـومـات والجرائم والمظالم إلى غيـر ذلك من الأمور الكثيرة.. وعدالة القـضاء دليل على قوة الدين فى نفس القـاضى وإشـارة إلى تحضـر هذا الإنسـان الذى يحرص على اسـتـتبـاب الأمن واستقلال السلطة القضائية مبدأ معروف فى الإسلام لأنه مطالب من الله ﴿ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ

بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]. . إن الإسلام يوجب على القضاة أن يتصدوا لشرعية القوانين ويطالبوا أن تكون متفقة وتعاليم الإسلام وألاّ يحكموا إلاّ بما أنزل الله وإلاّ كان عليهم الوزر والذنب من الله. .

أما السلطة المالية فإنه من أول يوم نشأت فيه الدولة الإسلامية كانت السلطة المالية سلطة مستقلة. . فلقد كان رسول الله ﷺ يُعيِّن عمّالاً. . في القضاء وجمع الزكاة وفي شئون كثيرة أخرى وكان لهم استقلالهم. . ولما اتسعت الدولة كان هناك بيت المال وكان إيراده من الخراج والجزية والصدقات والفيئ والغنيمة. . وكان عمر بن الخطاب في عهده نظم فروضًا شهرية من بيت المال لكل رجل كبير أم صغير ولكل امرأة كذلك. . بل إنه فرض لكل طفل يولد. . كل ذلك للمحتاجين والعجزة وغير القادرين على العمل.

إن الإسلام نظم أمور الدولة وجعل على رأسها الحاكم الذى له حق السمع والطاعة. . وفي نفس الوقت أمر هذا الحاكم أن يطبق العدل حتى على نفسه لأن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة. . و الحاكم بصفته نائبًا عن الأمة والمشرف على كل شيء في الدولة وأن مال الدولة (المال العام) هو مال الله تعالى ليس لأحد أن يأخذ منه إلاّ بالحق. . فالرسول ﷺ قال: «ألا إنّ مفاتيح مالكم معي ألا وإنه ليس لي أن آخذ منه درهمًا دونكم» ويقول أيضًا: «ما أعطيكم ولا أمنعكم إنما أنا قاسم أضع حيث أمرت» إنه ليس لأحد في الدولة الإسلامية أن يتميز على الآخر في المرتبات أو المكافآت أو الحوافز إلاّ بطرق صحيحة وإلاّ فإن الحاكم مسئول فالرسول ﷺ يقول: «من كان لنا عاملاً فليكتسب زوجة فإن لم يكن له خادم فليكتسب خادمًا فإن لم يكن له مسكن فليكتسب مسكنًا. . يقول أبو بكر رضي الله عنه راوي الحديث أخبرت أن النبي ﷺ قال: «من استخلفناه على عمل فرزقناه رزقًا فما أخذ بعد ذلك فهو غلول»، ونذكر في هذا المقام أن خازن بيت مال المسلمين (وزير المالية) في عهد عثمان رضي الله عنه اعترض على صرف أموال أمر بها عثمان (الحاكم) وكان خازن بيت المال يرى عدم صرفها. . فقال له عثمان إنك خازن. . فرد عليه بقوله: «أنا خازن بيت مال المسلمين. . لا خازنك الخاص». . وعمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يحلف بأحقية الناس جميعًا في مال بيت مال المسلمين ويقول: (والله ما أجد أحدًا أحق بهذا المال من أحد وما أنا بأحق به من أحد. . ووالله ما من المسلمين أحد إلاّ وله في هذا المال نصيب). . هذه هي القواعد العامة التي يجب أن يلتزم بها الحاكم. . ونذكر أن أبا بكر رضي الله عنه هو أول من اعترف بسلطان الأمة (باعتباره الخليفة الأول بعد رسول الله ﷺ)

لأنه عندما تولى الحكم قال: (أيها الناس إنى قد وُليت عليكم ولست بخيركم. . فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى) وتبعه عمر بن الخطاب الذى قال بعد أن تولى الحكم (من رأى منكم فىَّ اعوجاجًا فليقومه) فوقف أحدهم وأخذ بقبضة سيفه وقال. . والله لو رأينا فيك اعوجاجًا لقومناه بسيوفنا). . كذلك كان عثمان رضى الله عنه يقول: (إن وجدتم فى كتاب الله أن تضعوا رجلى فى القيد فضعوا رجلى فى القيد) كذلك على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: (إن هذا أمركم ليس لأحد فيه حق إلاّ من أمرته إلاّ أنه ليس لى أمر دونكم) هؤلاء الخلفاء الأربعة لم يواجهوا الأمة بهذا إلاّ بما للأمة من سلطان. . وسلطان الأمة له ضوابط. . العدل والحق فليس الأمر على عِلاته. . وعندما تفوه الحكام بهذا يعلمون أن سلطان الأمة محكوم لأنهم يتكلمون إلى المؤمنين الصادقين الركع السجود.

إننا لا نريد من حكامنا أن يكونوا على مستوى هؤلاء ولكن عليهم أن يتشبهوا فإن يوم عدل من الحاكم خير لأهل الأرض كلهم. . فالرسول ﷺ يقول: «إنّ أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم **منه مجلسًا إمام** عادل وإنّ **أبغض** الناس **إلى الله** يوم القيامة وأشدهم عذابًا **إمام** جائر» **[رواه الشيخان]**.

إن **الإسلام** هو **الذى صنع الرجال** وصاغ العقول وهذّب النفوس لذلك رأينا حاكمًا عامًا يأمر زوجته أن تبيع العطر للمسلمين لأنه من مال الصدقة وكان يحاسبها على الرائحة التى فى ثيابها من هذا العطر. . أرأيت حاكمًا زوجته تبيع العطر. . ولمن؟ لصالح بيت مال المسلمين. . فمن هو الحاكم؟ إنه أحد الشوامخ فى الدولة الإسلامية وأحد الأبطال العظماء إنه. . عمر بن الخطاب **الحاكم العام** للدولة الإسلامية يكلف زوجته أن تبيع لنساء المؤمنين مسكًا ورد ثمنه إلى بيت المال. . وكان يبيع المسك ليضع المال فى خدمة المجتمع ولعل أغرب ما عرف التاريخ مثل **هذا العمل**. . (كان عمر بن الخطاب يدفع إلى امرأته طيبًا من طِيب المسلمين فتبيعه امرأته **فبايعت** مرة فجعلت أقوم وتزيد وتنقص وتكسره بأسنانها فيعلق بأصبعيها شىء منه فتمسح بأصبعيها على خمارها فدخل عمر فقال: ما هذا الريح؟ فأخبرته بالذى كان. . فقال: طيب المسلمين تأخذينه أنت فتطيبين به!!! فانتزع الخمار من رأسها وأخذ جزءًا من ماء فجعل يصب الماء على الخمار ثم يدلكه فى التراب ثم يشده فـفعل ذلك ما شاء الله حتى ذهب ريحه. . فجعلت بعد ذلك إذا علق بأصبعها شىء مسحت

به التراب[1] . . إننا ونحن نذكر هذا نذكر والذكرى تنفع المؤمنين ولعلنا نذكر ما قاله شاعر النيل حافظ إبراهيم فى القصائد العمرية:

يوم اشتهت زوجه الحلوى فقال لها　　　من أين لى ثمن الحلوى فأشريها

إن عدالة الإسلام لم تكن مجرد نظريات . . بل إن العدالة طُبقت فى واقع المسلمين . . ونذكر قصة عن عمر بن الخطاب كذلك . . أنه فى عام المجاعة عندما قام بوضع نظام البطاقة التموينية كان فى استطاعته هو أن يوفر الطعام لأهله وأن يغمرهم برغد العيش . . لكنه لم يفعل . . فلقد عامل الجميع على قدم المساواة . . فقدذكر ابن سعد فى طبقاته (بينما عمر يمشى فى سكة من سكك المدينة إذا هو بصبية تطيش هزالاً تقوم مرة وتقع مرة . . قال عمر يا حوبتها يا بؤسها . . من يعرف هذه منكم؟ فقال عبد الله بن عمر . . أما تعرفها يا أمير المؤمنين قال: نعم لا . . قال: هذه إحدى بناتك!!! قال: وأى بناتى هذه؟ قال عبد الله هذه فلانة بنت عبد الله بن عمر . . قال: ويحك . . وما صيرها إلى ما أرى؟ قال: منعك ما عندك. قال عمر: ومنعى ما عندى منعك أن تطلب لبناتك ما يطلب القوم لبناتهم؟ إنك والله ما لك عندى غير سهمك فى المسلمين وسعك أو أعجزك . . هذا كتاب الله بينى وبينك)[2] .

إن أى مجتمع لو قام بتطبيق نظام الحكم وأن يكون الحاكم قدوة فى سلوكه وعمله وأن يحاسب بدقة كل من يسرق المال العام أو يرتشى وكل من يخطف الإناث ويهتك الأعراض، لو أقيم حد الله مرة واحدة لهدأت النفوس فإن الله يزع بالسلطان ما لم يزع بالقرآن.

إن الإسلام دين ودولة وليس فى الإسلام كهنوت ولا رهبانية والرسول عليه الصلاة والسلام قد تركنا على المحجة البيضاء وترك فينا كتاب الله وسُنَّته وفيهما بيان بالحدود ورسم للحقوق . . والحدود لا تقام إلاّ بالقوة وتنفيذ الأحكام لا يتم إلاّ بالقوة وصون نظام الجماعة لا يكون إلاّ بالقوة . . والقوة لابد أن تحصر فى واحد . . لذلك رأينا من ينادى بأن الحاكم لما له من اعتبارات لابد أن يكون قرشيًا لما لها من عزة بالكثرة وهيمنة بالعصبية وزعامة بالشرف . . وكانت العرب تهابهم وتعترف لهم بالزعامة . . ولكن هذا الشرط كان مرحليًا فى أول الإسلام . . وكان الهدف منه أن يلى الأمر من يُقدر الظروف . . لكنه مع اختلاف

---

(١) يراجع فى ذلك الحكومة الدينية بين مفهوم الكهنوت ومفهوم الإسلام للأستاذ يوسف العظم ص٢٩ وما بعدها.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ١٩٨).

التكوينات الاجتماعية للمسلمين أصبح هذا الشرط شبه مستحيل لتقادم الزمن وانقطاع سلسلة النسب.. لذلك رأينا عالمًا من علماء المسلمين كابن حزم يقول: (إن الغاية الأساسية من نصيب الإمام هى تنفيذ شريعة الإسلام.. فكيف يمكن تنفيذ هذه الشريعة أو كيف ترعى مصلحة الإسلام وأهله إن لم يكن متولى هذا المنصب مسلمًا)[1].

فالمهم أن يكون الحاكم مسلمًا وليس بالضرورة أن يكون قرشيًا خاصة وأن الإسلام من أسسه ومبادئه المساواة.. وعلى هذا الأساس نرى أنه لا داعى لإثارة هذا الموضوع.

المرأة

لا خلاف بين علماء المسلمين أن المرأة نصف المجتمع لكنهم عندما تكلموا عن الحاكم العام اشترطوا الذكورة.. وقالوا بأن الإمامة العظمى يجب أن تصرف منها إلى الرجل نظرًا لظروفها الجسدية وما ينتابها من أعراض تهز كيانها وتؤثر فى تفكيرها.. وإذا كنا فى العصر الحديث ورأينا امرأة تقود انجلترا وأخرى فى باكستان وثالثة فى تركيا ورابعة فى بنجلاديش وخامسة فى الهند.. فهؤلاء نوادر لا يقاس عليهن.. لكننى أميل مع من قال بأن منصب الحاكم للرجال فقط.. أما كونها تدخل انتخابات مجلس الشعب أو تتولى وزارة إلى غير ذلك من الأعمال.. فالإسلام لا يمانع فى عمل المرأة بشروط مفصلة فى غير هذا الموضع.

إن المسلمين عليهم أن يتنبهوا والراعى بالذات لأنه كما يقول الرسول ﷺ ففى الحديث الشريف: «كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته فالأمير راعٍ فى رعيته وهو مسئول عن رعيته» ويقول فى حديث آخر لا يسترعى الله تبارك وتعالى عبدًا رعيّة قلّت أو كثرت إلاّ سأله الله تبارك وتعالى عنها يوم القيامة أقام فيها أمر الله تبارك وتعالى أم أضاعه حتى يسأله عن أهل بيته خاصة.

إن الحكم بما أنزل الله فيه خير للمجتمع ونشر للأمن وتدعيم لعلاقات المودة.. وعلى الذين يتخوفون من حكم الإسلام نقول لهم لا تخافوا.. وإذا كنتم قد جربتم النظم المتعددة والحكم بالقوانين الوضعية ورأيتم ما حل بالإنسانية من شقاء.. فتعالوا جربوا حكم الإسلام.

وكمَ قلت لا تحكموا على الإسلام بعمل أهله.. وإذا كان ما حدث فى السودان دل على نوع من الاضطراب والفوضى فلأنهم أقاموا الحدود ولم يتعرفوا على عدالة الشهود..

(١) انظر النظريات السياسية للدكتور ضياء الدين الريس ص٢٤٩.

ذلك لأن الإسلام يـقول. . إن الشهـود العدول أمـر ضرورى ولذلك قـالوا (أقيـموا دولة الإسلام فى أنفسكم تقم على أرضكم) أى أن كل إنســان يكون عنده ضمير حى. . ونفس لوامة. . وأن يكون محافظًا على الصلاة. . وأن يعرف بالعدالة وألاّ يعرف بالغفلة والنسيان إلى آخر ما قاله العلماء فى صفات الشاهد. . من هنا نقول بأن التعليم فى الدولة الإسلامية مُهم جدًا. . وأنّ الإعلام له خطورته. . لأن الأمة العظيمة تهـتم بالتعليم والتربية. . وتهتم كذلك. . بما يبـثه إعلامهـا من برامج. . ولهذا قالوا (إن أردت أن تحكم على أمـة فاحكم على أنظمة التعليم فيها وما تبثه وسائل الإعلام لها). .

إن هـذه الأمة لن ينصلح حـالها إلاّ بما صَلُح به أوّلُها. . عندما نرى العـدل هو السائد فلا محـسوبية لأحـد ولا صوت يعلو فوق صوت الإســلام لأنه من الحق ويدعو إلى الحق ويحق الحق. .

* * *

الباب الرابع: نظرة الإسلام إلى الدولة

الفصل الأول

الدولـة الإسـلامية

الإسلام دين ودولة ـ ومؤسس هذه الدولة هو سيدنا محمد ﷺ وهو بشر ـ يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ـ يتزوج النساء.. يفرح ويحزن ولقـد قال كما حكى القرآن على لسانه ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ [الأعـراف: ١٨٨].. ولقد أكد القـرآن على بشرية الرسول ﷺ فقال الله سـبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠] وإذا كان القرآن قد أكد على بشرية الرسول وأنه لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا إلاَّ أنه يوحى إليه.. والوحى من الله خالق الخلق.. والله سبـحانه وتعالى يختار لوحيه صـفوة البشر من الناس ويحمِّله الوحى أمـانة التبليغ إلى الناس وأن هذا النبى الذى تلقى وحى السماء أمين وصادق فيما يبلغ لا يزيد من عنده حرفًا فى الكتاب الموحى به إليه من عند الله.. ولا ينقـص منه أى شىء لأنه ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقـة: ٤٣ـ٤٧].

وغاية الوحى ومهـمته إصلاح الفرد.. وتكـوين الجماعة.. وإقامـة دولة وهذا ما فعله النبى ﷺ.. فعندما تلقى وحى السـماء بدأ فى إعداد الفرد وإصلاح شأنه وتـوسيع مداركه وصياغة عقله ليتقـبل الاندماج فى الجماعة التى تتكون وفقًا لمنهج الحق الذى نزل به الروح الأمين على قلب سيدنا مـحمد ليكون به من المنذرين.. وبعد اكـتمال تربية مجـموعة من الرجال والنسـاء والأطفال والعـبيد وبعـد أن هاجر هؤلاء من مكة إلى يثـرب ووضع النبى محمد ﷺ اللمسات الأولى فى بناء الدولة الحديثة وبدأت تتكون هذه الدولة وتظهر معالمها يتضح لنا الآتى:

١ ـ مؤسس هذه الدولة محمد رسول الله ﷺ.

٢ ـ دستور هذه الدولة وقانونها كتاب الله الذى نزل بعضه وتتنزل آياته لتواجه التطور الذى بدأ يظهر فى مسيرة الدولة لتأخذ شكلها الطبيعى وتكتمل الأنظمة التى ترتكز عليها الدولة.

٣ ـ الهـدف من إقامـة الدولة.. الدعـوة إلى الله بالحكمـة والموعظة الحسنة.. إخـراج الناس من ظلمات الشـرك والجهل إلى نور الإيمان.. مجاهدة المعـاندين الذين يصدون عن

سبيل الله ويسعون فى الأرض فسادًا.

٤ ـ السلطة العامة فيها تستمد مقوماتها من الدستور الإلهى وتطبقه على الأفراد وتنفذه بدقة.

خصائص هذه الدولة

١ ـ الدولة الإسلامية دولة دينية لها عقيدة واضحة وقيم أخلاقية نبيلة.

٢ ـ قامت هذه الدولة على أسس قوية من الحب بين القائد والأفراد.

٣ ـ يخضع الجميع فيها.. الحاكم والمحكوم لحكم الشرع فلا يتميز أحد على أحد وإنما يؤهل عمل الإنسان لتقدمه فى عمله وإنتاجه.

٤ ـ الشورى أساس الحكم.

٥ ـ دعائم الدولة.. الحق.. والعدل.. والمساواة فى الحقوق والواجبات.

٦ ـ وجوب بذل النصيحة بين الجميع.

٧ ـ السمع والطاعة على الأفراد فى الدولة للحاكم العام.

إن تحقيق سعادة الإنسان فى الدنيا والآخرة هى الغاية التى من أجلها قامت هذه الدولة الإسلامية.

كيف قامت هذه الدولة ؟

قامت هذه الدولة على الأفراد الأسوياء، لأن كل فرد فيها كان يشارك فى البناء وكانت عينه على كل مرافق الدولة وكل شبر فى أرض الدولة كأنه ملك لكل فرد والحاكم العام نبى يوحى إليه وعنده من بُعد النظر والحكمة.. يقول الماوردى فى كتابه الأحكام السلطانية: (إن الله جلّت قدرته ندب للأمة زعيمًا خلف به النبوة وحاط به المِلّة وفوَّض إليه السياسة ليصدر التدبير عن دين مشروع وتجتمع الأمة على رأى متبوع فكانت الإمامة أصلاً عليه واستقرت قواعد المِلّة وانتظمت به مصالح الأمة حتى استتبت به الأمور العامة وصدرت عنه الولايات الخاصة فلزم تقديم حكمه على كل حكم.. وقد كان النبى ﷺ يأخذ البيعة على كل مسلم.. وهو ما نسمِّيه بالعقد الحقيقى الذى يتم بين الحاكم والرعيّة.. ولقد نشأت الدولة بهذا التعاقد الذى سُمِّى (البيعة) وهو عقد حقيقى يتخذ شكلاً معينًا، هذا الشكل هو (المصافحة باليد مع التلفظ بعبارات الانقياد والتأييد) وقد اختار النبى ﷺ من بين المتعاقدين (أفراد الرعيّة كلها) مجموعة منهم وهم النواب أو ما سُمى بـ (النقباء) وقد اختارهم النبى ﷺ ليكونوا أهل حلٍّ عقد من حوله.. وقد صارت البيعة أصلاً معمولاً به عند قيام

الدولة الأولى فقائدها العظيم محمد يحرص على أن يبايع كل فرد حتى يسهم هذا الفرد فى بناء صرح الدولة ونجد أن البيعة لم تكن مقصورة على الرجال فقط، بل النساء أيضًا شاركن فى البيعة وبيعة الرجال كبيعة النساء فى بنودها. . إلاّ بندًا واحدًا هو القتال، والصورة فى بيعة الرجال والنساء واحدة إلا عند النساء فلا مصافحة.

صور من البيعة

١ ـ هناك مبايعة أولى وقد تمت عندما التقى النبى ﷺ مع وفد من أهل يثرب يقول عنها عبادة بن الصامت إنى من النقباء الذين بايعوا رسول الله ﷺ على: أ ـ ألاّ نشرك بالله شيئًا. ب ـ ألا نسرق. جـ ـ ألا نزنى. د ـ ألا نقتل النفس التى حرّم الله إلاّ بالحق.

وهذه البيعة تُسمّى بيعة النساء وإن كان فيها رجال لأنه لم يرد فيها ذكر القتال.

٢ ـ جاء وفد وبايعوا النبى ﷺ بيعة عُرفت فى التاريخ بـ (بيعة العقبة الكبرى) وجاء فى هذه البيعة ما يأتى: أ ـ كل ما جاء فى البيعة الأولى. ب ـ على أن يمنعوا النبى ﷺ مما يمنعون منه نساءهم وأولادهم. جـ ـ استأذن أهل يثرب رسول الله ﷺ أن يميلوا على أهل العقبة بأسيافهم فلم يأذن لهم فى ذلك، ولهذا تُسمّى هذه البيعة على نصرة رسول الله ﷺ وعلى حرب الأحمر والأسود.

إن البيعة الأولى كانت تهتم بغرس القيم الأخلاقية ومبادئ سلوكية، أما البيعة الثانية فكانت بالإضافة إلى ما سبق بيعة سياسية عسكرية من أجل نصرة الدين وحماية المستضعفين وقيام دولة على الحق والعدل والمساواة ونستطيع أن نقول عنها إنها بمثابة عقد تأسيس تم بين رسول الله ﷺ وبين قادة الأوس والخزرج لقيام دولة إسلامية.

ولا يغيب عن بالنا أن الرسول ﷺ كان يظن أن قومه سيسارعون إلى نصرته لأنه جاءهم بخيرى الدنيا والآخرة لكن تعصبهم الأعمى جعلهم يصدون عن سبيل الله بل وإيذاء المؤمنين وأعماهم الحقد فتآمروا على قتل النبى محمد الأمين. ولقد ذهب إلى أهل الطائف ومكث فيها عشرة أيام يعرض نفسه على أهلها فلم يجيبوه ومع ذلك أغروا به السفهاء والنساء فرموه بالحجارة، وكان يومًا لم ينسه طوال حياته. . فقريش إذًا أبت أن تكون مكة مركزًا لهذا الدين الجديد ولم تقبل أن تنصاع لدعوة الحق، وقد وجّه النبى ﷺ أصحابه أن يهاجروا إلى الحبشة وهى أرض غير عربية ولذلك لم يهاجر هو إليها لأنه أرسل إلى قومه العرب خاصة فى أول الأمر. وإلى الناس عامة ولا يتصور أحد من الناس أن النبى ﷺ يستعين بغير العرب لإجبار العرب على الدخول فى الإسلام، هذا شىء بعيد عن المنطق

والصواب.. لذلك كان يعرض نفسه على قبائل العرب قبيلة بعد قبيلة ويقول لهم: (يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تُفلحوا وتملكوا بها العرب وتُذَل لكم بها العجم فإذا أمنتم كنتم ملوكًا فى الجنة).. إن هذه دعوة فيها أنوار النبوة تشرق لأن فى طيّات الكلمات بشارة للعرب أن يكونوا ملوكًا فى العالم ولهم السيطرة.. لكنها العقول المغلقة.. لهذا نرى أن بعض العرب كما يقول ابن إسحاق: أن النبى ﷺ اشترطت عليه بعض القبائل أن يتابعوه بشرط أن يكون لهم الأمر من بعده، فقال لهم الأمر لله يضعه حيث يشاء ونخص بالذكر هنا أن قبيلة (بنى عامر بن صعصعة) عندما عرض عليهم النبى ﷺ نفسه قال رجل منهم والله لو أنى أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب ثم قال للنبى (أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال النبى ﷺ: الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء، فقال له.. أفتهدف نحورنا للعرف دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا لا حاجة لنا بأمرك) [ابن هشام ج٢، تاريخ الطبرى ج٢].

هذه هى الصورة التى كانت وتمت البيعة.. وإلى بيعة النساء أشار الحق سبحانه وتعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾** [الممتحنة ١٢].. لقد كان النبى ﷺ يجدد البيعة فى الأمور التى تحتاج إلى مواقف صعبة وكأنه يذكر الناس بالعقد الوثيق والعهد لينشط المسلمون ويواجهوا المخاطر بعزيمة قوية وروح وثَّابة ففى صلح الحديبية حدث أن بايع النبى ﷺ الناس تحت الشجرة لأن الموقف كان صعبًا وإلى هذا أشار الحق سبحانه: **﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾** [الفتح: ١٨، ١٩].. لقد كانت البيعة تتم مصافحة بين الرسول والرجال، وصارت البيعة أصلاً عند انتقال السلطة من شخص إلى شخص لأنه بعد انتقال النبى ﷺ إلى الرفيق الأعلى وانقطاع وحى السماء لم يعد هناك من يربط السلطة بالسماء، ولذلك أضحى اختيار الحاكم مسئولية جميع المسلمين.. فكانت البيعة تُؤخذ للحاكم من الرعيّة فى المسجد باعتباره (برلمان الشعب) وبعد انتهاء المبايعة يصعد مَنْ تم اختياره على المنبر ويلقى خطبة يحدد فيها ملامح سياسته وطريق حكمه للدولة وأسلوبه فى اختيار معاونيه وهكذا.. ثم أخذت البيعة تأخذ أنماطًا وأشكالاً إلى أن صارت فى عهدنا الحديث تتم عن طريق (الانتخاب).

* * *

الفصل الثانى

عناصر القوة فى الدولة

الوحدة : الوحدة أساس قوى لقيام الدولة، والقرآن الكريم وهو دستور أساسى للمسلمين حثّ المسلمين على التمسك بالوحدة ليضمنوا بقاء مجتمعهم قويًا ويعيش فى أمان ومحبة وسلام، وفى ذلك جاء قول الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]. . ونهى عن الفُرقة والاختلاف لأن ذلك يؤدى إلى الهلاك والضعف، وإلى هذا أشار الحق سبحانه ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥] فنحن جميعًا مأمورون بالتمسك بحبل الله المتين فى إطار جماعة المسلمين لأنه من شذّ عن الجماعة شذّ إلى النار إن الحق سبحانه يُبيّن لنا فى كتابه أن المشركين هم الذين فرّقوا دينهم وعدّدوا آلهتهم وتحزّبوا لهذه الآلهة لذلك أصابهم الضعف والوهن وتخاذلوا عن نصرة بعضهم، يقول الله فى بيان هذا ﴿وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُم وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣١، ٣٢].

لذلك اهتم مؤسس الدولة بالدعوة إلى الوحدة وآخا بين المهاجرين والأنصار ونبّههم إلى عبادة الله وحده. . والاعتصام بحبله. . والنصيحة لولاة الأمر ولزوم جماعة المسلمين، ومن قوله ﷺ: «من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه» [رواه مسلم]، ويقول: «ثلاث لا يُغلّ عليهن قلب مسلم، إخلاص العمل لله والنصيحة للمسلمين ولزوم جماعتهم فإن دعوتهم تحيط من ورائهم» [رواه مسلم]، ويقول أيضًا: «إن الله يرضى لكم ثلاثًا يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا وأن تناصحوا من ولى الله أمركم» [رواه الترمذى]. . إن وحدة الدين ووحدة الرب المعبود والقرآن واحد والقبلة واحدة لكل هذه الأمور وغيرها اعتبر الإسلام وحدة المسلمين أساسًا قويًا من أسس دولتهم. . لأن جماعة المسلمين وإمامهم (حاكمهم) عصمة للمؤمن ولذلك أكد النبى فى كثير من حديثه على لزوم جماعة المسلمين وإمامهم لأن الأمة وقد بايعت الحاكم أو انتخبته فهى ملتزمة بهذه البيعة وعلى الرعيّة أن تدعو للحاكم بالصلاح وأن تؤيده وتقف من خلفه مساندة له وإن جاء الحاكم وخرج عن منهاج العدل الذى التزم به فلا تخرج الأمة عليه لأن خروجهم عليه يؤدى إلى التنازع والتقاتل وإشعال الحروب الأهلية وهذا يؤدى إلى انهيار الدولة وتمزق الأمة وضياعها لذلك

فإن الـواجب على الرعيّة أن تقـدم النصح للحاكـم بالرفق واللين والحكمة ونأخـذ هذا من توجيـه الله سبحـانه لسيدنا موسـى عليه السلام وأمْرُهُ له أن يذهب إلى فـرعون الذى بغى وتجـبَّر وزعم أنه إله ومع كل هـذا يقـول الله لموسى وهارون: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٣، ٤٤]. وسـيـدنا رسـول الله ﷺ يقـول لأصحـابه: «اسمعـوا وأطيعـوا فإنما عليهم مـا حَمِلُوا وعليكم ما حـمِّلْتم» [رواه مسلم]، ويقول: «من أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهى جميع فاضربوه بالسيف كائنًا من كان» [رواه مسلم]، ويقول: «من خلع يدًا من طاعة لقى الله يوم القيامة ولا حُجة له ومن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جـاهلية» [رواه مسلم]، وقوله ﷺ: «سيكون بعدى خلفاء يعملون بما يعلمون ويفعلون ما يؤمرون وسيكون بعـدى خلفاء يعملون بما لا يعلمون ويفعلون ما لا يؤمـرون فـمن أنكر عليـهم برئ ومن أمـسك يده سَلِم ولكـن من رضى وتابع» [رواه أبو يعلى]. . ولقد رأى كثير من الفقهـاء القدامى عدم الخروج على الإمام استنادًا إلى حديث: «ستكـون هنات وهنات ـ أى غرائب وفتن وأمـور محـدثات ـ فمن أراد أن يُفـرق أمر هذه الأمة وهى جـميع فـاضربوه بالسـيف كائنًا من كـان» [مجـمع الزوائد جـ٥]. كمـا أخرج الدارقطنى عن عبـد الله بن خباب أن الرسول ﷺ أمـر بالصبر وعدم المشـاركة فى الخروج على الحاكم حتى لو قتل الإنسان بيد الخونة الـلئام الخارجين على الحاكم الذين يفرقون أمر الأمة. . وجاء فى الحديث: «كن عبد الله المقتـول ولا تكن عبد الله القاتل» إن الحفاظ على وحدة الأمة وعدم الفوضى أمر مطلوب ومناصرة الحاكم ومؤازرته مما يحقق الخير والازدهار للأمة ولهذا سُئل رسـول الله ﷺ عن خلع الحكام فقال للسـائل الذى قال لرسول الله ﷺ (أفلا نُنابذهم؟ قال. . لا. . ما أقاموا فيكم الصلاة) إن المصلحة العامة للدولة أمر مهم جدًا ومناصرة الحـاكم فى جمـيع المجالات الداخليـة بزيادة العمران وتحـقيق النهـضة الصناعـية والزراعية والتجارية من الأشياء المهمـة للدولة وعلينا أن نقوم بتوعية الناس وبذل الجهد فى تقديم الآراء والأفكار التى تؤدى إلى كل ما قلناه.

إن أعداء الإسلام عندما عرفوا أن الإسلام يحرص على وحدة الأمة ومؤازرة الحاكم بعد اختيـاره ومبايعتـه والغرض من ذلك أن تكون الدولة قوية عـزيزة الجانب لها كل مـقومات التقـدم، دخلوا إلينا عن طريق نعـرة جاهليـة هى (القومـية) ودخلوا بهـذا الفكر ليشـعلوا العصبية فى نفوس المسلمين. . لهـذا رأينا أن بعد دخول هذه الألفاظ إلى مصطلح المسلمين أصبح المصرى يسـتعيد أمجاد الـفراعنة القدامى، والإيرانى يوقظ نيران الفارسـية فى قلبه،

والعربى يجدد أفكار الجاهلية فى نفسه، وبعد أن كان الناس يقول أحدهم:

أبى الإسلام لا أب لى سواه   إذا افتخروا بقيس أو تميم

جاءت القومية وقضت على هذا وصارت العصبية للجنس أو اللون أو اللغة وأصبح التقارب بين الناس على هذا الأساس.. وعندما نستعرض أحكام الإسلام فى هذا الأمر نرى:

١ ـ أنه لا ينكر على الإنسان أن يعتز بوطنه أو بلغته أو بعرقه لكنه ينكر مبدأ (التعصب) الذى يدعو إلى احتقار الآخرين ومعاداتهم، لذلك وجّه الرسول ﷺ المسلمين بقوله: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره» [أخرجه مسلم]، وقد خطب النبى ﷺ فقال كما جاء فى صحيح البخارى: «لا ترجعوا بعدى كفّارًا يضرب بعضكم رقاب بعض»، إن الشعوبية والقومية والعصبية معول هدم فى بنيان الوحدة الإسلامية ولنا أن نعجب أن إشعال فتنة القومية ليس بالأمر الجديد على المجتمع الإسلامى فلقد حدث فى عهد رسول الله ﷺ أن جلس رجل من اليهود بين الأوس والخزرج وذكرهم بماضيهم وأذكى الحميّة فى قلوبهم لذلك قاموا إلى بعضهم البعض يحملون السيوف ليقتتلوا وبلغ ذلك النبى ﷺ فجاء مسرعًا إلى الناس وقال: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، وأمرهم بترك العصبية والتعصب وقال لهم (دعوها فإنها منتنة)» [رواه مسلم].

٢ ـ إن الإسلام يدعو إلى الوحدة الإنسانية والمساواة بين بنى البشر جميعًا ـ وأساس ذلك ـ احترام الإنسان لأخيه الإنسان وتكريمه بغض النظر عن موطنه وجنسه إعمالاً لقول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقد نص الرسول ﷺ على ذلك فى قوله: «الناس بنو آدم وآدم من تراب» [رواه الترمذى].. إن الإسلام يدعو إلى وحدة الجنس البشرى.. أما الوطن واللغة واللون ليس لها أدنى اعتبار فى أساس الوحدة الإسلامية، ومن هنا اختفت النعرة القومية من بلاد المسلمين.

٣ ـ الغرب الذى يظهر العداء للإسلام عندما رأى أن الإسلام قضى على النعرة القبلية وأمات النعرة القومية نشط رجاله ونجحوا فى إحياء هذه النعرات بين العرب التى قضت على المسلمين ومزّقت دولتهم وبدأ الغرب يدعو إلى الوحدة بين بلاده وإقامة السوق المشتركة خدمة لمواطنيه وما ارتضاه لنفسه من الوحدة لم يرضَهُ للعرب بل بكل وسائله ينشط لتمزيق صف المسلمين.. إن النعرة القومية التى اشتعلت فى أوربا ومزقتهم وأشعلت الحرب

بينهم وجعلت بأسهم بينهم شديدًا تنبهوا هم فى الآونة الأخيرة وأخذوا خير ما عندنا وصدّروا إلينا أسوأ ما عندهم وبعد أن كنا دولة إسلامية واحدة يهابها العدو أصبحنا قطيعًا من أمم ممزقة الأوصال يضرب بعضنا رقاب بعض ويعتدى بعضنا على دولة الآخر ولكن علينا أن نعلم أن هذا الدين الذى حمله نبى كريم لا يضيّعه من أرسل به نبيّه إلينا لأنه سبحانه قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]، والقوم الذى يأتى بهم الله هم الذين وعدهم الله بالاستخلاف فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وهم من قال عنهم ربنا: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]، والرسول ﷺ تنبأ بفرقة الأمة ثم تنبأ أيضًا بالوحدة بعد الفرقة وبأن الساعة لن تقوم حتى يمكن الله للمسلمين فى الأرض.. من ذلك قوله ﷺ: «إن الله زوى لى الأرض فرأيت شرقها ومغربها وإن أمتى سيبلغ ملكها ما زوى لى منها» [أخرجه مسلم]. وعند الإمام أحمد.. قول الرسول ﷺ: «وليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل عزًا يعز به الله الإسلام وذلاً يذل به الكفر».

٤ ـ إن الوحدة الإسلامية لن تتحقق إلاّ إذا كان هناك شعور عام بالأخوة بين المسلمين يشعر فيها كل مسلم بأخوة المسلم فى أى بلد ومن أى جنس.. وأن ما يصيب المسلم فى أى مكان هو واقع بالمسلمين جميعًا لأنهم كالجسد الواحد إذا اشتكى عضوٌ من هذا الجسد تألم له وبسببه سائر الأعضاء.. ولنعلم أن واقع المسلمين لن يتغير بين يوم وليلة، لهذا فإن علينا أن نسعى حُكّامًا ومحكومين وأن تبث وسائل الإعلام الفهم الصحيح للوحدة الدينية لأن الإسلام كلٌ لا يتجزأ وأن الوحدة ضرورة واجبة بمقتضى الشرع والدين.. وعندما نقرأ تاريخ المسلمين وتصريح المسئولين نرى أن الدعوةإلى الاستقلال وعدم التبعية للاستعمار كانت تنادى بالوحدة لأنها إذا لم تكن دينًا ففيها القوة والعزة والمنعة ولك أن تقرأ ما قاله وزير خارجية إيران فى ١٩٤٨: (قال.. إن الدين الإسلامى والأواصر القديمة تربط الشعوب والدول الإسلامية برباط وثيق وهذه الرابطة المتينة لم تستطع الأحداث العظام أن تقطعها وتنال منها.. لكننا اليوم نعيش فى عصر تحتاج فيه البشرية أكثر من ذى قبل إلى

التعـاون والأخوة ونحن بحمد الله قـد أعطانا الإسلام الأخوة والتعـاون أصلين من أصول ديننا ولا يخفى علينا أن الأمم الإسـلامية قد أصـيبت فى هذا العصر بمصـائب وشدائد لم تصب بمثلها من قبل وكثـر الهجوم عليها من كل صوب ولهذا السـبب فإن الأمم الإسلامية فى حاجة ماسة وشديدة إلى اتحاد الكلمة وتوحيد الجهود أكثر من العصور الغابرة وعلينا أن نجعل نصب أعيننا هذه الآية: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ويقول رئيس مجلس الأعيان العـراقى (جميل المدفعى): (لزام على دولنا أن تندمج فى كتلة قوية لأننا فى أمس الحاجة إلى التساند والتآزر لمواجهة الشيوعية).

ويقول رئيس حزب الاستقلال العراقى: (إن التجارب أثبتت بما لا يدع مجالاً للشك أن الأمم الصغيرة لا تـستطيع الوقوف وحدها دون حماية من الخـارج أو الداخل، ولهذا فإننى أتطلع إلى تكوين كتلة شـرقية من الدول العربيـة وتركيا وإيران والهند وباكسـتان).. يمكن الرجوع إلى كتـاب الكتلة الإسلامية بين الكتلـتين الديمقراطية الغربية والشـيوعية الشـرقية. [توفيق عبد القادر ط. ١٩٥١ دار الجامعة].

إن المسلمين اليوم مطالبون بأن يبـتعدوا عن النعرة القومية وأن يبدأوا فى وحـدة إسلامية ولنبدأ فى صورة اتحاد فـيدرالى يحفظ لكل دولة شيئًا من الذاتية والاسـتقلال ويجمع الكل فى صورة دولة واحدة.. ولنبدأ بأن نتعرف على الإسلام ومنهجه ثم تكون الوحدة السياسية والاقتـصادية مع إزالة الحواجـز الجمركـية وأن تكون الثروات فى جـميع الدول الإسلامـية مقصورة عـلى عمال المسلمين أو من المواطنين أصحاب الديانات الذين يعـيشون بيننا سِلمًا وسلامًا على أن تكون هناك وحـدة ثقافية وتشجـيع للرحلات الفردية والجماعـية بين البلاد الإسلامية.

لقد قاد العرب المسلمون العالم وسادوه يوم أن تمسكوا بالإسـلام ونبذوا القومية ورفضوا العصبـية ونسى كل واحد من المسلمين جنسه ووطنه ولـم يتذكر إلا حقيـقة واحدة هى أنه مسلم، وطنه هو الذى يجد فـيه الحرية ويشعر بالكرامة وجنسـه هم الذين يحتضنونه برفق ويعيش معـهم بسلام ويأمن على ماله وعرضه لأن قول الرسـول ﷺ فى حجة الوداع يرن فى أذنه «يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ألا لا فـضل لعربى على عجمى ولا لعـجمى على عـربى ولا لأحمـر على أسود ولا لأسـود على أحمـر إلا بالتـقوى» [رواه أحمـد].. وانظر إلى وزراء الرسول ومـستـشاريه (بلال الحـبشى) وزير إعـلام لأنه مؤذن الرسـول ﷺ والأذان هو الإعـلام فكأنه المتـحدث الرسـمى لدولة الإسـلام.. (وسلمـان

الفارسى) كان المساعد الأول للقائد الأعلى للقوات المسلحة فهو الذى أشار بحفر الخندق فى غزوة الأحزاب وهو سلاح لم تعرفه العرب من قبل لذلك مُنح أعظم وسام فى العالم حيث ألحقه النبى ﷺ ببيت النـبوة فقال عنه (سلمان منّا آل البيت) وهو حديث صـحيح أخرجه الطبرانى. (وصهـيب الرومى) الذى بشّره الرسول ﷺ وقال له (ربح البيـع يا صهيب) إلى غير ذلك كثير مما تحفل به كتب السـيرة وما يتصل بها من كتب الطبقات.. إن فكرة الوطن فى ذهن الإنسان هى المنطقة التى يولد فيها ويتربى فى أزقتها وحواريها وهى منطقة محدودة المعالم لكن مع ارتباطه بها وحبه لها إلاّ أنه كلما يكبر تتسع كلمة الوطن فى ذهنه فهو يعتبر الأرض كلها له وطن لأنه يشعر بأنه إن قيّد نفسه فى هذه الحـدود الضيقة فلا يستطيع تحقيق ما يصبـو إليه وما يأمله وما يتطلع إليـه لذلك لا يقيد نفسه وإنما يـجعل وطنه الأرض كلها حيثما يجد الخير ويصل إلى ما يرجوه.

فهل نعتـبر ونعلم أولادنا ذلك ونغرس فى نفوسـهم أن الأرض لله يورثها من يشاء من عبـاده الذين يصلحون لعـمارتها وإقـامة دولة على ظهرها تنشـر الحق وإليه تدعـو وتعمل بالعـدل وتطبـقه على نـفسـهـا وشعـارها **﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾** [المائدة: ٢].

المسـاواة

إن من أسباب قوة الوطن أن أفراده يشعرون جمـيعًا بالمساواة لأن المجتمع الذى يتساوى فيه أفراده أمام القانون هو مجتـمع عظيم ترفرف أعلامه عالية، من هنا برزت فكرة المساواة إلى الوجود عندما نـزل القرآن على نبيِّنا ﷺ وأعلنها رسـول الله ﷺ مُدَوِّية عندما قال فى خطبة الوداع «أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب أكرمكم عند الله أتقاكم ليس لعـربى فضل على عجمى ولا لعـجمى فضل على عـربى ولا لأحمر فضل على أبيض ولا لأبيض فضل عـلى أحمر» [رواه أحمد]. فتـأمل فى الحديث تجد أن التقوى هى وحدها نصاب التفـاضل بين الناس، لكنه تفاضل عند ربهم فقط وهذا التفاضل لا يُعطى لفرد حقًا دون غيره من الناس يميزه ويجعله يعيث فى الأرض فسادًا.. إن مجتمع المسلمين هو مجتمع المساواة الكل يتمتع بالحـقوق والواجبات مساواة تنبع من وحدة الأصل الإنسانى مجتمع يـتساوى فيه الحاكم والرعية ويقف الحاكم فـيه والمحكوم على قدم المساواة أمام القضاء مجتمع يرفض كل ألوان الطغيـان ويضمن لكل فرد فيه الأمن والحرية والكرامة

والعدالة بالتزام ما قررته الشريعة الإسلامية لأن هذه الشريعة لم تعترف بفروق مصطنعة تقوم على أساس من جنس أو لون أو لغة - خذ مثلاً الصلاة، الناس فيها جميعًا يتساوون فالكل فى موقف العبادة والضراعة فى صلاة الجماعة يصطف الناس جميعًا خلف إمامهم فلا يتمايز شخص عن شخص والصف الأول لمن سبق ترى فيه الأمير والسوقة والغنى والفقير تتجلى المساواة بينهم فى أروع معانيها كذلك الصوم الكل يمتنع عن الأكل والشرب وما بيَّنه لنا الإسلام الكل يمتنع فى وقت واحد، والإفطار فى وقت واحد بلا تمايز بين هذا وذاك، كذلك الزكاة مَنْ مَلَكَ البلايين يخرج نصاب زكاته ٢٫٥٪ وَمَنْ مَلَكَ الآلاف نفس القيمة كذلك الحج وهكذا نجد أن صورة المساواة تتجلى بأروع ما فيها فى الإسلام ولقد قرر القرآن الكريم هذه المساواة التامة فى كثير من آياته وطبقها الرسول ﷺ أعظم تطبيق حتى قال فى حديثه الشريف الذى رواه البخارى: «والذى نفسى بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها» ولعل أروع مظهر للمساواة بعد الذى قلناه أن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه فَقَدَ درعه وهو متوجه إلى صفين وبحث عنها طويلاً فلم يجدها وبعد أيام وجدها فى يد يهودى فقال له على.. الدرع درعى ولم أبع ولم أهب. فقال اليهودى: درعى وفى يدى. فقال على وهو الحاكم العام نحتكم إلى القاضى وتوجها إلى القاضى شريح الذى قال لأمير المؤمنين أَلَكَ بيِّنة على أنَّ الدرع مِلْكُكَ؟ قال على: نعم.. (قُنْبُر والحسن) يشهدان أنَّ الدرع درعى. فقال القاضى شريح.. شهادة الابن لا تجوز للأب.. فقال على.. الحسن رجل من أهل الجنة لا تجوز شهادته؟ قال.. هو ولدك.. وحكم القاضى بالدرع لليهودى.. وبعد الحكم وقف اليهودى وقال.. أمير المؤمنين قَدَّمنى إلى قاضيه وقاضيه حكم ضده أشهد أنّ هذا هو الحق، وأما الدرع فهى درعك يا أمير المؤمنين وأنا أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمدًا رسول الله.

فانظر إلى حرص الإسلام فى المساواة بين الخصوم أمام القضاء.. لقد كان فى إمكان الحاكم العام (على بن أبى طالب) أنْ يلجأ إلى ما يُسمّى بحالة الضرورة ويَسُنُّ قوانين الطوارئ ويأخذ الدرع بالقوة والظروف مُهيأة والناس فى زمن فتنة حيث الحروب الأهلية مشتعلة.. بل تعالى معى إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه لنعيش فى مجلس من مجالسه وقد دخل عليه رجل أعرابى من عامة الناس وتقدم بشكوى ضد (جبلة بن الأيهم) الملك الغسَّانى العظيم وخلاصة الشكوى أن الأعرابى داس على طرف رداء جبلة فلطمه على خدِّه فأرسل عمر فى استدعاء الملك ولما حضر سأله.. أتعرف هذا الأعرابى؟ قال

نعم. قال ألطمته على خدِّه؟ قال نعم.. قال عمر.. إما أن تُرضيه وإما أن يُقتَص منك.. قال جبلة.. كيف وأنا ملك وهو سوقة؟ فقال عمر قولته الخالدة «لقد سوّى الإسلام بينكما» والشريعة الإسلامية سوَّت بين الولاة والرعية أمام القانون.

وهذا عمر بن الخطاب كان يحذر ولاة الأقاليم من أن تأخذهم نشوة السلطة فتصدر منهم مخالفات فى حق الله تعالى أو الناس لذلك كان يكثر فى خطبه أمام الجماهير من قوله: (إنى لم أبعث عُمَّالى عليكم ليصيبوا من أبشاركم ولا من أموالكم إنما بعثتهم إليكم ليحجزوا بينكم وليقسموا فيأكم بينكم من فُعل به غير ذلك فليقم.. فقام رجل فقال: إنّ عاملك فلانًا ضربنى مائة سوط، فتوجه عمر إلى العامل وسأله فيم ضربته؟ - فلم يستطع تبرير ما فعل - فقال عمر للرجل قم فاقتص منه.. كذلك خطب فى يوم من الأيام وقال: «مَنْ ظلمه عامله بمظلمة فلا إذن له علىَّ، أى سياسة الباب المفتوح، ليرفعها إلىّ حتى أقُصَّها منه.. فيقول عمرو بن العاص حاكم مصر.. أرأيت إن أدَّب أمير المؤمنين رجلاً من رعيته أتقصه منه؟ فيقول عمر: وما لى لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه» يراجع فى ذلك كتب عمر بن الخطاب وأصول السياسة والإدارة الحديثة للدكتور سليمان الطماوى.. وابن كثير فى البداية والنهاية جـ٢.. والطبقات الكبرى لابن سعد جـ٣.

لقد بلغ حرص الإسلام فى المساواة بين الخصوم أمام القضاء إلى حد مساواتهم فى إقبال القاضى عليهم ونظره إليهم.. يقول عمر بن الخطاب لأبى موسى الأشعرى وقد ولاه منصب القضاء (وآسِ بين الناس فى مجلسك وفى وجهك وفى قضائك حتى لا يطمع شريف فى حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك).. وآس، أى: اعدل بالسوية.

ولا شك أن المساواة أمام القضاء بين الخصوم حتى ولو كان الخصم هو الحاكم العام فهذا عنوان العدل فى الحكومة لأن القاضى إذا خصَّ أحد الخصمين بالدخول عليه أو القيام له أو الإقبال عليه والبشاشة فى وجهه والنظر إليه كان عنوان ظلمه وجوره وعدم عدله مما يدخل اليأس إلى نفس الخصم ويضعف قلبه وتنكسر حجته.. لهذا رَوَى السيوطى فى تاريخ الخلفاء أن الخليفة المنصور قَدِمَ المدينة فحمل الحمَّالون متاعه ولم يدفع إليهم شيئًا فقدَّموا شكوى ضده إلى القاضى محمد بن عمران الطلحى الذى كتب إلى الخليفة بالحضور فورًا فذهب الخليفة إلى مجلس القضاء ومعه وزيره فلم يقم القاضى لهما ووقف الخليفة المنصور والوزير ولم يأذن لهما القاضى بالجلوس ونَادَى على الخصوم فقضى لهم على الخليفة بعد أن قامت البيِّنة ودفع الخليفة ما حكم به القاضى وانصرف الحمَّالون شاكرين.. ثم توجه

الخليفة بالكلام إلى القاضى وقال له: (جزاك الله عن دينك أحسن الجزاء).

ويذكر الدكتور عبد المنعم النمر فى كتابه المساواة بين الإسلام والغرب ص٧٨.. أن الخليفة المأمون بن هارون الرشيد اختصم مع رجل.. وكان القاضى يحيى بن أكثم.. فدخل المأمون إلى مجلس القضاء وخلفه خادم له يحمل له طنفسة (سجادة قيّمة) ليجلس عليها فقال له القاضى: يا أمير المؤمنين لا تأخذ على صاحبك شرف المجلس.. فاستحيا المأمون ودعا لخصمه بمثل ما حمله خادمه.

أهل الكتاب

كل شخص يعيش بين المسلمين.. أيًا كانت عقيدته.. له ما للمسلمين من حقوق وعليه ما على المسلمين من واجبات، لأن الدين لله والوطن للجميع - فغير المسلمين مواطنون وعرفوا فى الفقه الإسلامى (بأهل الذمة) يقول على بن أبى طالب رضى الله عنه: (إنما قبلوا عقد الذمة لتكون أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا) والمساواة بين المواطنين فى كل شىء إلاّ ما كان متعلقًا بأمر العقيدة والعبادة وعلى هذا فإن الشريعة الإسلامية تُفرق بين المسلم والذمى فى الجرائم المؤسسة على أساس دينى (كشرب الخمر وأكل الخنزير) فالتحريم هنا دينى الإسلام يحرمها لكن الذمى قد يتعاطاها لكن يُنبّه عليه بعدم الجهر حتى لا يخرج على النظام العام للدولة ويخدش الحياء عند المسلمين ويسيىء إلى الآداب العامة إذا شرب سكر وأهذى.. من هنا.. تضع الدولة الضوابط ليكون الاحترام المتبادل بين الأفراد ولقد حدث أن عمر بن عبد العزيز وهو خليفة المسلمين كتب إلى (الحسن البصرى) وهو العالم العظيم يستفيته فى أهل الذمة.. يقول عمر: (ما بال الخلفاء الراشدين تركوا أهل الذمة وما هم عليه من نكاح المحارم واقتناء الخمور والخنازير؟) فأجابه الحسن البصرى: (إنما بذلوا الجزية ليتركوا وما يعتقدون وإنما أنت مُتَّبع لا مبتدع والسلام)، (ويترتب على ذلك أن الخمر والخنزير مالٌ مُتقوم مُعترف به إذا كان للذمى ومن اعتدى عليه ملزم بالضمان).. حقوق أهل الذمة فى الدولة الإسلامية لأبى الأعلى المودودى.

الرجل والمرأة

الرجل والمرأة سواء فى أصل الإنسانية.. لذلك فإن الإسلام يسوّى بينهما فى الحقوق المدنية.. والمرأة لها شخصيتها المتكاملة واستقلالها المالى.. والمرأة فى الإسلام لها وظيفة

معينة هى رعاية بيتها والقيام على شئون زوجها ومراعاة أولادها.. والرجل له ميدان عمله فى السعى على المعاش وتدبير المال للنفقة اللازمة على البيت.. ومن حق المرأة أن تعمل خارج بيتها بشرط مراعاة الأخلاق الدينية والآداب الإسلامية والقيم الاجتماعية الفاضلة.. والإسلام أوجب على الرجل النفقة على المرأة سواء كانت أمًا أو أختًا أو زوجة أو بنتًا.. والإسلام عندما وضع هذه القواعد نص على أن المرأة مكلفة بأركان الإيمان وأحكام الشرع إلاّ ما استثناه لها فى ظروف طارئة، وهى مكلفة بكل ما فى الإسلام مثلها مثل الرجل تمامًا، فلها حق التصويت فى الانتخاب وأن تبدى رأيها فى الأمور العامة وأن تشارك فى الأعمال الاجتماعية وأن تحضر إلى المسجد تصلى وتتعلم وتحضر الجمعة والجماعة، كل ذلك فى حدود ما يوافق طبيعتها ويتواءم مع شخصيتها وهكذا وضع الإسلام قواعد المساواة بنظم دقيقة حتى لا يكون هناك اضطراب ثم على المرأة أن تعلم ما شرعه الله لها لأن فى ذلك مصلحتها وسعادتها وصدق الله العظيم ﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ**﴾ [النساء: ٣٤].

والأسرة مسئولية الرجل والمرأة والاختصاصات فى هذه المؤسسة موزعة بين طرفيها من أجل النهوض بها كأساس للمجتمع المسلم.. فالرجل له اختصاصه.. المرأة لا تشاركه فيه لأنها لا تقدر على حمل هذا الاختصاص.. والمرأة لها اختصاصها داخل الأسرة والرجل لا يصلح أبدًا أن يقوم بهذا الاختصاص فمحاولة التداخل فى الاختصاصات لكل طرف معول هدم فى كيان الأسرة.. لهذا الإسلام وضع سياجًا متينًا لحماية الأسرة بعد أن بيَّن مسئولية كل فرد فى هذه الأسرة.

* * *

الفصل الثالث

العدالــة

من الأسس التى قام عليها عـمار الكون وصلاح العباد واستقـرار المجتمع وثبات الحكم واستـقرار الأمور «العـدالة». . لأن العدل أساس الحكم. . والعـدل واجب فى الحكم على الصديق وعلى العدو. . ونذكر أن رسول الله ﷺ عندما استشهد عمه حمزة بن عبد المطلب فى غزوة أحد ومـثَّل المشركون بجثتـه أقسم النبى ﷺ أن يمثل بسبعين جـثة منهم فأنزل الله تعـــــالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ * وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [الـنـحـل: ١٢٦، ١٢٧]. . وهذا خير مثال للعدل مع الأعداء. . ويذكر ابن كثير فى كتابه البداية والنهاية أن (جعدة بن هبيرة) جاء إلى الإمـام على كرم الله وجهه فقال يا أمـير المؤمنين يأتيك الرجلان أنت أحب إلى أحدهما من أهله وماله والآخر لو يستطيع أن يذبحك لذبحك فتقضى لهذا على ذاك. . فقال على. . إن هذا شىء لو كان لى فعلت ولكن إنما ذا شىء لله. . والعدالة التى أمر بها الإسلام تعم العدالة الاجتماعيـة وهى التى تنظم التكافل الاجتماعى بين الناس. . والعدالة الاقتصادية الـتى تُمكن كل قادر على العمل أن يعمل وأن يكون تكافؤ الفـرص أمرًا متاحًا للجميع ولذلك امتنع عمر عن تمليك أرض السواد للفاتحين حتى لا يكون هناك الغنى القادر والفقيـر المحروم. . والإمام (مالك) يقرر أن الركـاز المعادن والبترول وكل ما يسـتخرج من الأرض كالذهب وغـيره، يكون ذلك ملكًا للدولة وليس لأحـد من الناس والإنسان المسلم يقول العدل ولو على نفسه ويقيمه علـى أحب الناس إليه ويذكر أن عبد الله بن رواحة بعثه النبى ﷺ يخرص على أهل خيـبر ثمارهم وزرعهم ـ أى يحسب نتاج زراعـتهم ليأخذ حق الله فى الزكاة ـ فأراد أهل خيـبر أن يرشوه ليرفق بهم ـ أى ليحسب العشرة خـمسة ـ فقال لهم: والله لقد جئتكم مـن عند أحب الخلق إلىَّ ولأنتم أبغض إلىّ من أعداءكم من القردة والخنازير وما يحـملنى حبى إياه وبغضى لكم على ألاّ أعـدل فيكم. . فقالوا: بهـذا قامت السموات والأرض) [تفسير ابن كثير]. .

قال يحيى الغَسَّانى: لما ولانى عمر بن عبد العزيز بلاد الموصل قدمتها فوجدتها من أكثر البلاد سرقة ونقبًا فكتبت إلى عمـر أعلمه حال البلد وأسأله. . آآخذ الناس بالظنة وأضربهم على التهـمة أو آخـذهم بالبيّنة وما جـرت عليه السنة؟ فكتب عـمر إلى يحـيى. . أن آخذ الناس بالبيّنة ومـا جرت عليه السنة فإن لـم يصلحهم الحق فلا أصلحهم الله. قـال يحيى:

ففعلت ذلك فما خرجت من الموصل حتى كانت من أصلح البلاد وأقلها سرقة ونقبًا) [السيوطى فى كتابه تاريخ الخلفاء]. .

وخلاصة ما تقدم أن العدل ركن أساسى من أساس قيام الدولة وبقائها والعدالة الشاملة بجميع أنواعها حتى بين الأولاد من الأب والأم ولهذا يقول ابن مسعود: (أمرنا رسول الله ﷺ أن نعدل بين أولادنا حتى فى القُبل) وعلى الحاكم العام أن يكون عادلاً خاصة عندما يختار معاونيه فلا يؤثر قريبًا لقرابته ولا يقدم أحدًا لهوى وأن يختار الولاة (الوزراء والمحافظون) من الشخصيات التى تتسم بالصلاح والرفق وسعة الأفق ففى حديث رسول الله ﷺ: «من ولى من أمر أمتى شيئًا فأمَّرَ أحدًا ـ أى ولّى رجلاً ـ وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين) [رواه الحاكم]، ويقول الرسول ﷺ: (المقسطون عند الله على منابر من نور على يمين الرحمن. . وكلتا يديه يمين. . هم الذين يعدلون فى حكمهم وأهلهم وما غلوا) [أخرجه مسلم]. ويوضح النبى ﷺ فى حديثه أكثر من ذلك فيقول: (اللهم من ولى من أمر أمتى شيئًا فشق عليهم فاشقق عليه ومن ولى من أمر أمتى شيئًا فرفق بهم فارفق به) [أخرجه مسلم]. ويقول أيضًا عليه الصلاة والسلام: (إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلسًا. . إمام عادل وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذابًا إمام جائر) [أخرجه الترمذى].

لهذا نرى أن العدالة يوم أن سادت دنيا الناس هدأت النفوس وأمن كل شخص على حقه، فلا ظلم لأحد على أحد واختفت الرشوة من دنيا الناس لأن الرسول ﷺ لعن الراشى والمرتشى والرائش وهو الذى يسعى بين الطرفين. . ونحن إذ ننادى بتطبيق العدل والمساواة لأنهما الدعامتان للدولة إذا ساد بين الناس هذا وأمن الكل على حقه انطلق كل واحد إلى عمله بجد واجتهاد وصبر ومصابرة لا يخاف أحد ظلم الآخر ولا يخاف من اعتداء شخص عليه وصدق الله العظيم: ﴿**وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا**﴾ [الأنعام: ١٥٢]. . ويقول أيضًا: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ**﴾ [النساء: ٥٨]. إن الله سبحانه وتعالى من أسمائه الحَكَم العدل فهو الحكم الذى لا يحكم إلا بالحق ولا يقول إلا الحق ولا يفعل إلا الحق فسُمّى بذلك عدلاً. . لهذا إذا حكمنا بما أنزل الله وهذا هو المطلوب فإننا نحكم بالعدل لأنه ليس هنا حكم أفضل من حكم الله وهو الحكيم. . لذلك. . حكم فعدل وحدَّ الحدود ليكون فى ذلك روع لكل من تسول له نفسه أن يهز الكيان الاجتماعى أو يروِّع الآمنين فإلى العدل نطبقه ونسوس به الناس. . والله يقول الحق ويهدى إلى صراط مستقيم.

الدولة لابد أن يكون لها حاكم.. والحاكم يتولى إدارة البلاد وتدبير أمر العباد وإيجاد الضبط والربط بين كل الجهات المعنية فى المجتمع.. والحاكم يتولى عمله بعد البيعة التى تؤخذ له أو بعد الاستفتاء الجماهيرى إن كان فردًا واحدًا على الساحة أو الانتخاب الحر الذى يتسم بالنزاهة والحيدة وعدم التزوير.. هذا الحاكم الذى جاء إلى الحكم من خلال أى طريقة كالبيعة أو الاستفتاء على الرعية أن تسمع له وتطيع لقول الرسول ﷺ: «تسمع وتطيع للأمير وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع» [رواه مسلم]. الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر من غضب الله عليهم لأنهم يشعلون فتنة لا تخمد.

والعلاقة بين الحاكم والمحكوم أو بين السلطة الآمرة الناهية وبين الأفراد تستلزم أن يتقبل الأفراد طاعة هذه السلطة فيما أمرت به أو نهت عنه.. لأن الحاكم يقصد من وراء قراراته وأوامره ونواهيه تحقيق الصالح العام والعمل على سير دولاب الحياة بانتظام.. يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]. فالآية نصت على طاعة الله فيما أمر به ونهى، والمسلم مرتبط بهذا الأمر ارتباطًا وثيقًا لأنه يجد فى نفسه باعثًا قويًا على احترام أوامر الله تعالى والبعد عن نواهيه لعلمه اليقينى أن الله تعالى رقيب عليه فى كل حين فتحقق فى نفسه تقوى الله عز وجل وثمرتها اتباع أوامر الله واجتناب لنواهيه.. والمسلم لو نازعته نفسه وغلبته شهوته ووقع فى معصية فإنه يبادر بينه وبين نفسه بإعلان توبته وندمه على ما وقع منه لأن نفسه لوامة تلومه على فعل الخطأ..
وإذا ما ارتكب المسلم جريمة فى الخفاء وفى ظلام الليل ولم يره أحد لكن ضميره استيقظ لذلك يتوجه إلى السلطة الحاكمة ويعترف بجرمه وخطئه ويتقبل العقوبة بنفس راضية لأنه يوقن أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ولقد حدث من شخصيات كثيرة ذهبت إلى النبى ﷺ واعترفت بذنبها وأقرت بجريمتها وأقام الرسول ﷺ الحد على البعض وعفى عن آخرين لعدم ثبوت الأدلة ولأن الجريمة لم تكتمل أركانها.. فطاعة الله فيما أمر أمر واجب وطاعة الله فيما نص عليه القرآن وطاعة الرسول ﷺ فيما بيّن لنا من القرآن وما بلَّغه إلينا من الوحى الذي ليس بقرآن لقول الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، ثم طاعة ولى الأمر مادام قائمًا على شرع الله منفذًا له لم يعطل حكمًا من أحكام الله ولم يلغى نصًا صريحًا مما جاء به القرآن فإن طاعة أولى الأمر لم تأت

استقلالاً وإنما جاءت تبعًا لطاعة الله وطاعة رسوله.

وقد اختلف العلماء قـديمًا وحديثًا حول مفهوم أولى الأمر.. فـقال بعض العلماء إنهم الولاة والأمراء. وقـال آخرون أنهم العلـماء ورجَّح البعض أن الآية عـامة تشـمل الصنفين معًا.. والرأى الصـواب أنهم الأمراء والولاة لما صح من أخبار عن رسـول الله ﷺ بطاعة الولاة والأمراء فيما كان لله طاعة وللمسلمين مصلحة.

أخرج الإمام أحمد عن ابن عمر رضى الله عنهم قال: (كان رسول الله ﷺ فى نفر من أصحابه فقـال ألستم تعلمون أن من أطاعنى فقد أطاع الله وأن من طاعـة الله طاعتى؟ قالوا بلى نشهد، قال: فـإن طاعتى أن تطيعوا أمراءكم)، وجاء فى الحـديث المتفق عليه عن ابن عباس رضى الله عنهـما عن النبى ﷺ قال: (من رأى من أميـره شيئًا يكرهه فليصـبر فإنه ليس أحد يفارق الجماعـة شبرًا فيموت إلاّ مات ميتـة جاهلية) ذلك لأن طاعة الأمراء تظل هى الرابطة بين الحاكم والمحكوم وطاعـة الأمير ليست لشـخصه بل هى لمنزلته فـى القيادة، وهذه الطاعة لا تكون بالرهبة والخـوف والبطش من القائد الحاكم أو تكون رغبة فـيما عنده من منزلة يحتلها أو صلة يأخذها فالإسلام يرفض ذلك.. وإنما الطاعة للحاكم تكون بالحب والرضا لأنه من رأى من أميره شـيئًا يحبه دعا له بالخير والتـوفيق وإن رأى منه شيئًا يكرهه دعا له بالهداية والرشاد لأن طاعة أولى الأمر ليست من قبيل المصلحة الشخصية وإنما طاعته دين يتقرب به العبد إلى ربه، روى (أن عمـر بن هبيرة) كان واليًا على العراق وعنده جمع من الفقهاء منهم الحسن البصرى والشـعبى وقال لهم: (إن أمير المؤمنين يكتب إلىّ فى أمور أعمل بها فما تريان؟ قال الشعبى: أنت مأمور والتبعة على من أمَّرك).

وفى هذا المجال لابد لنا أن نقـدم النصيحة إلى الحـاكم ليسوس الرعية بـالعدل ويصون المجتمع من أى اعتداء والنصيحة نقدمها إلى الحكام بالرفق واللين لقول الرسول ﷺ (الدين النصيحة ثلاثًا.. قلنا لمن يا رسول الله؟ قال.. لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم) رواه مسلم ومناصحة الحكام تكون بالمحبة وبالدعـاء بالتوفيق، يقول بعض السلف (لو كانت لى دعوة مجابة لدعوتها لسلطان المسلمين فإنهـا تصيب جميع المسلمين بالخير) ومما لا شك فيه أن بطانة تحيط بالوالى من الوزراء والمستشـارين والمقربين وهؤلاء هم أقدر الناس على نصح الإمام، أخرج البـخارى أن النبى ﷺ قال: (ما بعث الله من نبى ولا استـخلف من خليفة إلا كانت له بطانتـان بطانة تأمره بالمعروف وتحضـه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحـضه عليه والمعصـوم من عصم الله).. إن علينا أن نفـهم هذا الموضوع جيـدًا وأن نحب ولاة أمورنا

ونتعاون معهم وندعو لهم بالخير والتوفيق والسداد والرشاد لأن الخروج عليهم دمار للمجتمع وضياع للأمة فالرسول ﷺ يقول: (من لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم ومن لم يُمسى ويُصبح ناصحًا لله ولرسوله ولكتابه ولإمامه ولعامة المسلمين فليس منهم) [أخرجه الطبرانى].

التعددية

رغَّب الإسلام فى طاعة ولى الأمر واعتبر أن ذلك يقرب الإنسان من ربه لأنها تؤلف الجماعة وتوحد الصف وأن من خرج على الطاعة وفارق الجماعة ومات على ذلك فميتته جاهلية، وعلى هذا الأساس فإن من بايع الإمام فعليه أن يلتزم به فإن وجد فى فعله أو أقواله ما يخالف رأيه فعليه أن يصبر لأن الفقهاء قالوا بوجوب الصبر وعدم جواز الخروج على الحاكم مطلقًا وذلك رعاية لوحدة الأمة واجتماع الكلمة واحتمال أخف الضررين واستدلوا على ذلك بأن كثيرًا من الصحابة والتابعين امتنعوا عن الخروج على الحاكم إلاّ إذا أعلن كفره أو أنكر أمرًا من الدين معلومًا بالضرورة وذلك لقول الرسول ﷺ: (لا طاعة لمن لم يطع الله) [رواه الشيخان].. ولحديث آخر رواه البخارى: (سُئل رسول الله ﷺ عن خلع الحكام حيث قال له السائل أفلا ننابذهم؟ قال الرسول ﷺ لا ما أقاموا فيكم الصلاة) وقوله كذلك: (إلاّ أن تروا كفرًا بواحًا - أى ظاهرًا - عندكم من الله فيه برهان) إن الأمة الإسلامية لها حق مراجعة الحاكم فإذا تجوَّز فى سلطانه أو جار فى عدالته أو عجز عن القيام بوظائفه الأساسية وهى (حراسة الدين وأمن الوطن فى الداخل والخارج) فإن على الرعية أن تقدم له النصح فإن لم يستجب ينظر فى عزله برفق وحكمة حفاظًا على وحدة الأمة وعملاً على استقرار الأمن. ونذكر فى هذا المقام الحديث الذى رواه أبو ذر يقول: (سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ولّى أحدًا من المسلمين أُتى به يوم القيامة حتى يوقف على جسر جهنم فإن كان محسنًا نجى وإن كان مسيئًا انخرق به الجسر فهوى فيه سبعين خريفًا وهى سوداء مظلمة) لذلك كان عمر بن الخطاب بعد أن سمع هذا الحديث يقول: (لو ماتت شاة على شط الفرات ضائعة لظننت أن الله سائلى عنها يوم القيامة) وعلى بن أبى طالب رأى عمر بن الخطاب على قتب يغدو - جمل ليس عليه أى شىء - فقال على لعمر: يا أمير المؤمنين أين تذهب هكذا؟ فقال: يا على.. بعير ند - أى ضل - من إبل الصدقة، فقال له علىّ: لقد أذللت الخلفاء من بعدك.. قال عمر: لا تلومنى يا أبا الحسن.. فلقد سمعت

رسول الله ﷺ يقول: (كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته) ويقول أيضًا: (لا يسترعى الله تبارك وتعالى عبدًا رعية قلّت أو كَثُرت إلاّ سأله الله تبارك وتعالى عنها يوم القيامة أقام فيهم أمر الله تبارك وتعالى أم أضاعه حتى يسأله عن أهل بيته خاصة) وهذه الأحاديث فى الصحاح.

ثم انظر إلى عمر الحاكم العام اشتهت زوجه الحلوى وطلبت منه شراء ذلك لها فقال لها.. من أين لى ثمن الحلوى فأشتريها لك وعَلِمَ بذلك عامله ـ محافظ ـ على أذربيجان فأرسل بسفطين من الخبيص فلما ذاقه وجده حلوًا فأرسل إلى عامله يسأله أكُلُّ المسلمين عندك يشبع من هذا؟ قال: لا. فرد عمر السفطين وقال: أشبع المسلمين عندك فإنه ليس من كد أبيك ولا من كد أمك.

إذا كان الإسلام قد نبَّه إلى أنَّ الصبر مطلوب على الحاكم الظالم وتقديم النصيحة إليه بيسر وسهولة ورفق ولين وحكمة إعمالاً لقول رسول الله ﷺ (الإمام الجائر خير من الفتنة) لكن الرسول ﷺ نبَّه (من أمَّ قومًا وهم له كارهون لم تجُزْ صلاته أذنيه) فإذا أمِن الناس الفتنة وعدم قيام حرب أهلية وأنَّ حال الرعية ساء وأنَّ الشريعة الإسلامية أصبحت مهملة فعُطِّلَت المساجد وانتشر الفساد فعندئذ عليهم أن يعملوا لخلع الإمام إعمالاً لقول رسول الله ﷺ: (إنَّ الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أنْ يعمهم الله بعقاب من عنده).. ومع كل ما قدمناه فهناك أمرٌ لابد أنْ نتنبه له هو جواز (التعددية) وهذا الأمر نُسمّيه بلغة العصر.

المعارضة

المعارضة من الأمور الأساسية والمسلّم بها وناتج هذا بسبب اختلاف العقول وفهم مجريات الأحداث وتحليل الأسباب والنتائج ولهذا كان نظام الشورى هو أسلم طريق وأحسن شىء يوصِّل إلى الرأى السليم الذى يجب أن نعمل به ما لم يكن هنا نصٌ من القرآن الكريم صريح أو قولٌ لرسول الله ﷺ أو أثر من أقوال السلف الصالح يُستند به أو إجماع من أهل الحل والعقد.. واختلاف الرأى بين أهل الشورى وأهل الحل والعقد أمر وارد والاختلاف مع الحاكم فى الرأى أمر جائز كل ذلك يتم بشروط (عدم الخروج على الشرعية الدستورية) لأن الغرض من كل ذلك الوصول إلى أحسن الآراء وأسهل الطرق وأقل التكاليف والحفاظ على وحدة الأمة فرأى الجماعة لا تشقى البلاد به ورأى الفرد

يشقيها. . لذلك حثّنا القرآن على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حسبما جاء فى قول الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ [آل عمران: ١١٠] وفى قوله أيضًا: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١]. . والأحاديث الواردة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كثيرة. . ولقد ظهرت المعارضة فى عصر رسول الله ﷺ وفى عصر الخلفاء الراشدين والإسلام يجيزها إذا كانت تستهدف صالح المجتمع وتناقش الأمور بجدِّية ولا تخرج المعارضة فى مناقشاتها عن الإطار العام. . والإسلام يشجع المعارضة إذا كانت تهدف إلى الصالح العام وعلى الجانب الآخر فإنها لا تهدف إلى التفرقة لأن التعددية فى الفكر أمرٌ محمود حيث يزاد بها الفكر الإسلامى خصوبة ونماءً. . ونعيش الآن فى عصر رسول الله ﷺ لنرى كيف كانت المعارضة تتعامل مع الرسول ﷺ.

١ ـ فى غزوة بدر أراد الرسول ﷺ أن ينزل بالجيش فى مكان وأمر المسلمين أن ينزلوا ويحطوا رحالهم لكن صوتًا علا وقال: يا رسول الله إنّ هذا ليس بمنزل ولكن نتحرك فننزل عند أدنى ماءٍ من القوم. . فنظر الرسول ﷺ إلى المتكلم فإذا هو (الحباب بن المنذر) وكان هذا الرجل عنده علم لاستراتيجية المواقع الصحراوية. . فقبل الرسول مقالته ونزل حسبما أشار.

٢ ـ فى غزوة الخندق اعترض السعدان على أن يمنح رسول الله ﷺ لبعض المشركين ثلث ثمار المدينة والسعدان هما (سعد بن معاذ وسعد بن عبادة) وقد استجاب رسول الله ﷺ لهما ونزل على رأيهما.

٣ ـ فى صلح الحديبية اعترض المسلمون على بعض بنود الصلح ووقف عمر بن الخطاب يقول: يا رسول الله. . ألست نبى الله حقًا؟ قال: بلى. قال عمر: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قال عمر: فَلِمَ نعطى الدنيَّة فى ديننا؟ قال: إنى رسول الله ولست أعصيه وهو ناصرى.

٤ ـ فى صلح الحديبية أيضًا تأخر بعض المسلمين بقيادة عمر فى تنفيذ أمر رسول الله ﷺ حين أمرهم بذبح الهدى وأن يحلقوا رءوسهم. . ولقد تألم رسول الله ﷺ لهذا الموقف ودخل على زوجته أم سلمة والغضب بادٍ على وجهه وأشارت عليه برأى خلاصته أن يخرج من بيته ولا يكلم أحدًا حتى يذبح هديَه ويحلق رأسه. . وفعل ذلك ونزل على

رأى أم سلمة وعندما رآه الصحابة يفعل ذلك قاموا وفعلوا.. مع أن الغمَّ كاد يقتلهم.

٥ ـ عند تقسيم غنائم (هوازن وغطفان) أعطى رسول الله ﷺ للمؤلفة قلوبهم أموالاً كثيرة.. وعندئذ سرى همس بين بعض شباب الأنصار وقالوا.. سيوفنا تقطر من دماء قريش وغنائمنا تُردُّ عليهم؟ إن هذا لهو العجب العجاب، وسمع الرسول ﷺ ذلك فجمع الناس وخطب فيهم قائلاً موجهًا كلامه إلى الأنصار:

(ما مقالة بلغتنى عنكم.. ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بى وكنتم متفرقين فألَّفكم الله بى وعالة فأغناكم الله بى؟ قالوا: الله ورسوله أمَن.. قال: لو شئتم لقلتم وصدقتم أتيتنا مكذبًا فصدقناك ومخذولاً فنصرناك وطريدًا فآويناك.. قالوا: بل المن علينا لله ورسوله. قال: ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبى إلى رحالكم؟ والله لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار ولو سلك الناس واديًا وشعبًا لسلكت وادى الأنصار وشعبها إنكم ستلقون بعدى أثرة فاصبروا حتى تلقونى على الحوض.. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار).. فبكى الأنصار.. فانظر إلى هذه المعارضة المهذبة.. والمعارضة لم تكن فى أمر نزل فيه وحى وحاشاهم أن يفعلوا ذلك.

ولكن هناك معارضة مستفزّة يرفضها الإسلام ويأباها ولا يرضى بها لأنها ليست خالصة لدين أو وطن أولجماعة من الناس.. خذ مثلاً.. كان رسول الله ﷺ يُقسِّم الغنائم فوقف رجل وقال لرسول الله ﷺ يا محمد.. اعدل.. فقال له رسول الله ﷺ: ويلك من يعدل إذا لم أعدل خِبتُ وخَسِرتُ إن لم أعدل.. إن هذا الرجل بهذه المقولة أراد أن يكون معول هدم فى بنيان الدين والدولة لأنه يعارض بوقاحة وغلظة ولم يقصد بمعارضته الصالح العام لكنه أراد أن يثير فتنة لذلك وقف عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقال يا رسول الله: ائذن لى أضرب عنقه.. فقال له النبى ﷺ: دعه فإن له أصحابًا يُحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة) [حديث متفق على صحته].

وفى هذا تحديد واضح للشخصيات التى تعارض بغرض إثارة الفتنة وزعزعة الثقة فى الحاكم بألفاظ يعاقب عليها القانون ولا يرضى بها الرأى العام لهذا نعود فنقول إن الذى يعارض من أجل البناء والوصول بالمجتمع إلى أسعد حال يحترم رأيه ويناقش بالحوار البناء الهادف حتى يستبين الرأى ولا يصادر على رأى ما دام فيه خير البلاد وصالح العباد.

لكل دولة دستور وبعد الدستور القوانين وبعد القوانين النظم واللوائح وبعد ذلك القرارات وما يصدر من المسئولين من مكاتبات عن المسئولين فى كتاب دورى.. والإسلام لم يغفل هذه الجوانب.. فقد رسم الحدود ووضّح ذلك فى كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها.. ولقد كان الوحى ينزل على رسول الله ﷺ وكان الوحى هو المصدر الأساسى للتنظيم والتخطيط وبيان الحدود مع وضع ضوابط العلاقات الإنسانية.. فنظم الإسلام إذًا عند نزول الوحى كانت متلائمة على أكمل الوجوه وقد عرفت الفترة النبوية بأنها (أزهى عصر عرفته الحضارة الإنسانية) فلقد تحقق فى حياة النبى ﷺ من مثل سامية وقيم عالية فى الميادين العامة للدولة وكانت نتيجة للوحى القرآنى وكان النبى ﷺ ترجمة عملية لهذا الوحى وتجد ذلك واضحًا (فى الأحوال الشخصية.. النظم العائلية.. الحقوق الدولية.. التنظيمات العسكرية.. التفريعات المالية.. السياسة والاقتصاد).. ولقد ظهر هذا التنظيم إثر بيعتى العقبة الأولى والثانية.. ثم كانت الهجرة تجسيدًا لهذه التنظيمات.. حيث أتاحت للجماعة الإسلامية أن تنتقل وفقًا لتطور الحوادث من المرحلة النظرية إلى المرحلة العملية.. ثم إن المرحلة العملية فى المدينة لم تكن إلاّ امتدادًا لحياة الجماعة الإسلامية فى مكة التى لم يظهر فيها التشريع والتنظيم لأن اضطهاد المشركين للمسلمين كان على أشده ـ أما فى المدينة فقد أصبح الجو ملائمًا للتشريع وظهرت الحركة الإسلامية فى المدينة بصورة جديدة من الناحية الشكلية ولقد ترتب على ذلك أن ظهر الأثر مع الخط الدينى فى التربية والتعليم ثم السياسة ثم الاقتصاد وبدأت تظهر أركان الإسلام، فالزكاة نظمت ليكون بها التكافل الاجتماعى، والصوم تهذيب وتعويد على الصبر والمراقبة، والحج وما فيه من معانٍ اجتماعية وروحية وقد استتبع ذلك بناء المسجد ليكون برلمانًا للأمة وليكون بعد ذلك وحدات شعبية منتشرة على طول القاعدة الشعبية وعرضها.. وهذه المساجد هى أداة التنظيم والتضامن الاجتماعى والتماسك بين أعضاء الأمة لأن وحدة الإيمان تؤدى إلى وحدة الفكر والفهم ووحدة الوسائل والتضامن ويساعد نظام المساجد على هذا التماسك المتين وعلى تنظيم الخلايا الاجتماعية فى جسم الأمة الإسلامية بشكل دقيق ذلك لأن الناس فى المسجد يتعلمون النظام والطاعة وهى أهم خصائص صلاة الجماعة ففيها يتعلمون القيادة لأنه فى المسجد يكونون وحدة نظامية لها شخصية عندها قدرة على التصرف ثم إن المسجد يؤدى كذلك وظيفة دستورية لأنه يكشف لنا عن الشخصيات المتميزة المتفقهة التى تتحدث بلباقة

عن المشاكل الاجتماعية مع طرح أسلوب الحل وهذه الفئة عندها سعة فى الفكر وضبط للأعصاب وقدرة على الحوار والاعتراف بالحق حتى ولو كان من الخصوم - فالناس تثق فيهم وتعرف لهم قدرهم وهم ما نسميهم (بأهل الحل والعقد) ومن خلال هذه التربية والإفرازات المتأنية يكون تكافؤ الفرص وفى هذا الجو نرى أن الثقة تكون منتشرة بين القاعدة الشعبية فى الحاكم وحسن الظن به ومعاونته فى النهوض بالمجتمع. . إذا كانت الاجتماعات تعقد فى المساجد فإن الدعوة إلى هذا الاجتماع بألفاظ علوية المطلع ليس فيها اسم لفلان أو فلان وإنما هى تكبير للواحد الديّان مع ذكر اسم النبى ﷺ فقط لأنه الذى حمل إلينا أمانة الوحى ثم دعوة الصلاة لأن فيها الفلاح ولعلنا نذكر أن المساجد التى بُنيت فى عهد النبى ﷺ لم تزد على عشرة ومع ذلك خرّجت الرجال والنساء وربّت الشباب وعلّمت الفتيان وكان رسول الله ﷺ كأول زعيم لدولة منظمة فى الجزيرة العربية يقضى على التمييز العنصرى. . ويهدم قواعد الكبرياء ويطبق العدل بين الناس جميعًا ثم بدأ يتدرج فى التشريع ليكون الانسجام التام بين الفرد والمجتمع والتدرج فى التنظيم الاجتماعى هو أفضل أسلوب لإصلاح المجتمع لذلك عندما بدأ فى تحرير الرقيق أو معالجة المسكرات كالخمر وما يدور فى حكمها بدأ تدريجيًا لأن هذين الأمرين كان لهما أثر اقتصادى خطير لذلك كانت نظرته ﷺ للمؤثرات الاجتماعية أو السياسية أمر يجب أن نتنبه له وكيف ألغى الربا ثم كيف وزّع ثروات المجتمع على كل الطبقات بالقسط والعدل ولم يترك فجوة يدخل منها أعداء الدولة الجديدة وما أكثرهم وهم يتربصون بها وإنما كان ببُعد نظره وتأنّيه هذا العمل العظيم الذى أقام دولة عظيمة. . والناس الذين كانوا فى عصره ﷺ ليسوا فى مداركهم سواء. . كان لكل منهم وجهة تختلف مشاربهم وأمزجتهم وكان التعصب أمرًا فطريًا فيهم لكنه ﷺ استطاع أن يقود كل هؤلاء بالرحمة والحب والإحسان والتسامح. . إن النظم الاجتماعية التى كان لها الأثر الفعال فى تكوين المجتمع كانت تستمد كل مقوماتها من كتاب الله وسُنّة رسوله ﷺ. . ومن المعلوم أن الوحى الذى جاء من عند الله سبحانه. . جاء فيه تعريف لهذا الإله العظيم. . تعريفًا دقيقًا شاملاً لخصائص ذاته سبحانه هذا الإله العظيم نرى فى القرآن الكريم وصف حقيقته «فهو الله رب العالمين واحد أحد فرد صمد يُطعِم ولا يُطعَم لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم، عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلاّ هو فى السماء عرشه وعلى الأرض سلطانه آثار قدرته ظاهرة للعيون».

بهذا التعريف الدقيق تشعر النفس البشرية بالوجود الإلهى واضحًا قويًا يأخذ على النفس

قُواها ويحيط بهـا لتستشـعر عظمة هذا الإله الذى يخـرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى. . ولما كان الله سبحانه لا يُعـجزه شىء فى الوجود ولا يتم فى الكون شىء إلاّ بعلمه ولا تخفى عليه خافـية فى الأرض ولا فى السماء فهو المعـبود بحق. . وهذا الإله له أسماء حسنى رغّب النبى ﷺ أصحابه بإحـصائها وفهم معانيها. . ولما كـان الإنسان يتعامل هكذا مع الإله الموجود إذًا فعلى الإنسان أن يحاسب نفسه ليستشعر حلاوة الإيمان بهذا الإله العليم الحكيم وهذا الإيمان لابد أن يظهر فى واقع حياة الإنسان العملية فيندفع الشخص إلى العمل بروح الجد والمثابرة والإيجابية المؤثرة وفى كل تصرف من تصرفاته لأنه يوقن برقابة الله عليه وهذه الرقابة من الله دفعت بالإنـسان إلى أن يتصرف بإرادته لأنه يملك حرية الاخـتيار ومن هنا فإنه سـيحـاسب على كل عمل يعمـله لأن الله ترك للشخص حرية العـمل مع تزويده بالعقل وإمـداده بالكتاب كمـا أن مصادر المعـرفة فى نظر الإسـلام (الوحى) الذى لا يتأثر بالهوى ولا يجامل شخصًا على شخص والوحى قائم على موافقة المنقول للمعقول والأنبياء الذين أرسلوا إلينا وتلقوا وحى الله. . وسيدنا محمد ﷺ خاتمهم ما جاءوا إلاّ لهداية البشر وما نزل عليـهم الوحى إلاّ لإسعاد الناس. . وظيفـة الأنبياء لهداية البشـر حيث إنّ الوحى الذى ينزل عليهم فـيخبـر الناس عن ذات الله وصفاته وأفـعاله وعن أصل الإنسان ونهـايته وبداية هذا العالم ومصـيره ثم حدَّثهم عن ما وراء الطبيـعة وآتاهم علْم ذلك حيث لم يكن لديهم مبـادئ هذه العلوم ولا أصولها. . إنّ معارفـنا وعلومنا محدودة ناقصـة رغم التقدم العلمى فى كافة الميادين ـ لكن الوحى هو الذى شرح وفصَّل وأجمل وأظهر وأوجد التوفيق والتناسق بين الإنســان وكل شىء يتعايش حـوله. . إنّ رسالات الله إلى الأنبيـاء واحدة. . لذلك أوجب الله علينا الإيمان بهم من غير تفرقـة بين أحد منهم ففى القرآن الكريم: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. . كما روى البخارى أنّ رجلاً من المسلمين سمع يهوديًا يقول: (لا والذى اصطفى موسى على البشـر. . فلطمه فشكاه إلى الرسول فغضـب ﷺ غضبًا شديدًا وقال لا تُفضلـوا بين أنبياء الله). . إنّ وحى الله أخبر الـناس على لسان الأنبياء جـميعًا أنّ الناس إذا ماتوا قُبروا وبعـد القبر بعث ونشور ويقـوم الإنسان من قبره على الهيـئة التى قُبر عليها وبعد القيـام من القبر هناك حساب دقيق لكل شخص على ما قـدّم فى حياته. . كما أنّ هناك ميزانًا دقيقًا توزن به أعمال العباد. . وكل إنسان هناك سيقرأ سجل أعماله. . لكن يوم القيامة غيب لا يعلمه إلا الله ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]. . ويوم القيامة

يأتى بغتة ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٠]. . إن كل من على الأرض فَانٍ ثم الله سبحانه وتعالى بقدرته وعظمته ينشئ النشأة الأخرى وهذه قدرة ليست إلاّ لله الواحد ولهـذا يقول الحق سبحانه وتعالى مبـيّنًا لنا أنه هو المتفرد بالموت والحيـاة ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَىٰ فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠ ـ ٦٢].

من هذه النظم الأساسية نرى أن الله سبـحانه وتعالى الذى خلقنا بقدرته وترك لنا حرية اختيار العـمل حتى لا يكون هناك مصادرة لفكر أو كبت للحريـة أو إهدار للكرامة. . فهو سبـحانه خلقنا وأودع فـينا العقل وأرسل الرسل وأنزل الكتب وبـيّن وفصّل ومع كل ذلك نبّهنا إلى يوم الحساب وأنه آتٍ لا ريب فيه وأن الناس هناك سيـحاسبون على أعمالهم التى فعلوها بإرادتهم وبمحض حريتهم ولا سلطان لأحد عليهم لذلك فهم محاسبون فى يوم آتٍ لا ريب فـيه ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٤]، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]. . ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعـراف: ٨، ٩]. . ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا * مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٣ ـ ١٥].

بهـذا البيان الـواضح وجدنا الإنسـان الذى تربّى فى عصـر النبى ﷺ وبدأ يرسم خطة حياته الاجـتماعية طبقًا لهـذا البرنامج الذى وضعه الله للعباد ليـفهموا منه طبيعـة حياتهم ونهاية دنياهم وأن يعدوا أنفسهم بالعمل والجد والاجتهاد والصدق والأمانة والوفاء والالتزام التام بكل ما من شأنه يرقى بالأمة ويُسعد المجتمع حـتى يُؤهل الإنسان نفسه لاستقبال حياة أفضل يعيش فيهـا الإنسان فى جنة الله العالية التى يجد فيها متعـته وسعادته مع رضاء الله عنه ومجاورة الأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين. .

* * *

الباب الخامس: النظم والتنظيم

الفصل الأول

كيف سارت النظم الإسلامية

التزم المجتمع الإسلامى بالمصدرين الأساسيين (القرآن والسنة) وتمسك المجتمع بكل ما جاء فى هذين المصدرين من تشريعات حيث شعر الناس بأن الخير كل الخير والنجاح كل النجاح فى التمسك بما جاء فى هذين المصدرين.. ولما كان رسول الله ﷺ هو محرر الإنسان كما أنه حرر العقل الإنسانى فقد فتح الرسول ﷺ باب الاجتهاد وكان يقر الناس على ذلك، فقد أقر معاذ بن جبل رضى الله عنه عندما بعثه إلى اليمن وسأله بم يحكم بين الناس؟ قال: بكتاب الله.. قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد.

لكن بعد أنْ لحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى ولم يصدق العرب أنه ترك دنياهم وانتقل إلى الدار الآخرة.. لذلك غاب عنهم من هول المفاجأة أنه **﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾** [آل عمران: ١٤٤].. كذلك غابت عنهم آيات الوحى التى تقول: **﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾** [الأنبياء: ٣٤، ٣٥]، والإحساس الذى انتاب المسلمين أنهم وقفوا حيارى لأن الرسول ﷺ بعد موته تركهم فى فراغ كيف يعالجون مشاكل حياتهم وقد كان جل اعتمادهم على الوحى.. لكن الله سبحانه وتعالى وفق المسلمين إلى اختيار أبى بكر الذى وقف وألقى خطبة كانت بمثابة دستور للمسلمين وأكد لهم أنه سيسوسهم بالعدل وأنه مسئول عنهم أمام الله وأنّ له عليهم حق المشورة والمؤازرة والخطبة كما ذكر ابن هشام: «أيها الناس إنّى قد ولّيت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقوِّمونى الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوى عندى حتى أريح عليه حقّه إن شاء الله والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم».

وأبو بكر تولى الخلافة لأن المسلمين بايعوه ومن خلال خطبته يتضح لك أنه مُتّبع وأن المصدرين الأساسيين للدولة - القرآن والسُّنّة - هما ما سوف يسير عليهما.. لذلك هدأت الفتنة وثاب الناس إلى رشدهم، ومن المعروف أن الرسول ﷺ لم يلحق بربه إلاّ بعد أن مكّنه الله فى الأرض وبسط نفوذه على شبه الجزيرة وترك الناس أمة واحدة لها شخصيتها المتميزة وكيانها الأصيل وأصبح المسلمون يربط بينهم رباط الدين وانمحت العصبيّة وحلّ

محلّها الإخاء والحب والتسامح . .

وأبو بكر وُجه بمصاعب شتّى فلـقد كان هناك جيش أسامـة يعسكر خارج المدينة جَهّزَه رسول الله ﷺ ولَم يُسيِّره فَسَيَّره أبو بكر إلى الجهـة التى حددها الرسول ﷺ وهذا نوع من الالتـزام . . ثم إن بعض القـبـائل ارتدت عن الدين وخـرجت على نظام الدولة الأسـاسى وقبـائل أخرى منعت الزكاة وقـالت إنهاَ كانت إتاوة ندفعـها لمحمـد وقد مات محـمد ولن نعترف بأحد بعده . . وهكذا بدأت روح التمرد تظهر ، فى أثناء كل هذه الفوضى خيَّم على المجتمع الإسلامى روح الحزن والكآبة لكن أبا بكر شمَّرَ عن ساعده وأعلن أنه سيحارب كل من خرج على نظام الدولة ويحاول أن ينتـقص منها أى شىء . . وأراد عمر أن يمنع أبا بكر عن هذا فقال له أبو بكر : (والله لأقاتلن من فرق الصلاة والزكاة) وحارب أهل الردة .

كما أنه كان قد ظهر بعض المتنبئين الذين زعـموا أنهم أنبياء بعد محمد وأن الوحى ينزل عليهم . . وقد حارب أبو بكر كل هؤلاء فى وقت واحـد لذلك هدأت الأمور وعادت الحياة إلى وضعها الطبيعى واستـتب الأمر وانتقل أبو بكر رضى الله عنه إلى الرفيق الأعلى بعد أن أحرز أعظم الانتصارات فى حركة الفتوح فكان بعد رسول الله ﷺ من الشخصيات العظيمة التى أسهمت فى إرساء دعائم الدولة العظيمة ولما كان الوقت الذى قضاه أبو بكر فى الخلافة وقتًا قصيرا فلم يكن فيه تشريعات جديدة وإنما كان التمسك بما كان عليه الرسول ﷺ .

العصـر الذهـبى

قبل انتقال أبى بكر رضى الله عنه إلى الرفيق الأعلى وهو قـد جاء إلى الحكم ببيعة من المسلمين فى المســاجد ولما أحسَّ بدنو أجله أراد أن يجنب المؤمنين الفـرقة لأن الظروف التى يعيـشونها أحـوج ما يكونون إلى وحدة الكلـمة لأن حروب الرّدة كـانت ماثلة فى الأذهان ولأن أبا بكر أعلن أنه لن يهادن ولن يصالح إلاّ بالرجوع إلى الدين والتعهد بإقامة أركانه . . لهذا بدأ أبو بكر فى اسـتشارة الصحابة فـى استخلاف عمـر بن الخطاب ويبين لهم أن الجو العام لا يسمح بـأخذ البيعة وإنما الأمـر يحتاج إلى شخـصية حكيمة تتـسم بالذكاء والحلم وعندها قدرة على التصدى للمشاكل وعـمر أقدر الناس على هذا . . لذلك أنا أرشحه لكم ورضى الصحابة وأقروا هذا التـرشيح فكأنه بمثابة مبايعة . . وتولى عمر القـيادة وقام بالمهام الملقاة على عاتقه خير قيام ، وكان لعمر من المرونة وسعة الأفق ما حمله على الاستفادة من بعض النظم فى البلاد المفـتوحة . . لذلك قالوا (أن عمـر هو أول من دوّن الدواوين وكتب

أسمــاء المقاتلين وحـدد لهم رواتبهم وترك الدواوين فى البـلاد المفتـوحة تكتب بلغـة أهلها وأبقى على العملة المتداولة بين الناس ولو كان عليها نقوش مسيحية أو رسم عليها بيت النار وقد أضاف كلمة جائز عند تداول هذه العملة. [يراجع كتاب النقود للمقريزى]، وعمر كان أشهر خلفـاء المسلمين ولقد تم فى أيامه إصـلاح الشئون الإدارية والمالية. . وسـمُّوا عصره بالعصـر الذهبى للإسلام وهكذا سارت الأمـور فى الدولة الإسلاميـة فوجدت الرعـية فى ظلالها الخير والأمن والسلام. . ثم تحولت الخلافـة إلى ملك عضود واشتعلت الحروب فى سـبـيل ذلك ولكن الذى نـؤمن به أنّ كل مـا ارتكب ويرتكب باسـم الإسـلام من تسلط وجبروت فدين الله منه براء، وإثم من فعل ذلك أو شارك فيه يوم القيامة يحاسب عليه أمام الكبير المتـعال، ومع كل ما حدث فـإن المسلمين يستروحون فى كل لحظات حـياتهم شذى النبوة وينعمـون بظلالها الوارفة ويستنيرون بما يلوح من أضـوائها الباقية. . ويكفـينا ما قاله رسـول الله ﷺ: (تركت فيكم مـا إن تمسكتم به لن تضلوا بعـدى أبدًا كتـاب الله وسنتى) والقرآن الكريم باقٍ لم يُغيَّر فيه شىء فقد نقل إلينـا بالتواتر كتابة وحفظًا وترتيلاً وهو محل اجتهاد المجتهدين الذين فقَّههم الله فى كتابه المبين.

يقول الإمام الغزالى فى كتـابه إحياء علوم الدين جـ١ (إنما ينكشف للراسخين فى العلم من أسرار القرآن بـقدر غزارة علمهم وصفـاء قلوبهم وتوفر دواعيهم على الـتدبر وتجردهم للطلب ولكل واحد حدٌّ فى الترقى إلى درجة أعلى منها أما الاستيفاء الكامل فلا مطمع فيه ولو كان البحر مدادًا والأشجار أقلامًا فـأسرار كلماته عز وجل لا نهاية لها فمن هذا الوجه يتفاوت الخلق فى الفهم بعد اشتراط معرفة ظاهر التفسير).

والمصـدر الثانى هو الـسنة. . لأن القرآن الكريم نـبه الناس إلى طاعـة الرسـول العظيم والتزام سنته فى آيـات صريحة لا تحتمل التـأويل، لذلك قرر العلماء المحقـقون أن الحديث الصحـيح حجة على جـميع الأمة. . واقرأ قـول الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشـر: ٧]. . إلى غير ذلك من الآيات الـتى حددت وظيفـة الرسول ﷺ فى توضيح ما أجمله القرآن وتخصيص مـا ورد فيه من ألفاظ العموم لقول الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

فالسُّنَّة النبوية تُثْبت أحكامًا لم يعرض لها القرآن بنفى ولا إثبات وإذا أثبتت السُّنة حكمًا فلابد أن يكون أصله من القرآن لقول الله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

يقول الإمام الشاطبى فى كتابه الموافقات: (كل أدلة القرآن تدل على أن ما جاء به الرسول وكل ما أمر به ونهى عنه فهو لاحقٌ فى الحكم بما جاء فى القرآن)..

ويقول ابن حزم فى كتابه الإحكام فى أصول الأحكام: (ولو أن امرءًا قال لا نأخذ إلاّ ما وجدنا فى القرآن لكان كافرًا بإجماع الأمة ولكان لا يلزمه إلا ركعة ما بين دلوك الشمس إلى غسق الليل وأخرى عند الفجر لأن ذلك هو أقل ما يقع عليه اسم صلاة ولا حدَّ للأكثر فى ذلك).

وابن حزم يقول ذلك أخذًا من قول الله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

الإجمــــــاع

إن الدولة الإسلامية عندما نظمت نفسها وبدأت تطرأ على الساحة مشاكل اجتماعية أو سياسية ليس لها فى كتاب الله نظير ولا فى سنة رسوله شبيه لأن الناس لم يفقهوا القرآن ولم يعرفوا الكثير من السنة فهل يقف المجتمع بأفراده عاجزًا عن حل المشاكل ومستحدثات الأمور (لا وألف مرة لا) لأن الله استخلفنا فى الأرض لينظر كيف نعمل.. وقد منحنا الله العقل ونبّهنا إلى فضل الشورى خاصة استشارة أصحاب الرأى وأولى النباهة فى المجتمع ومن هم على درجة عالية فى العلم والكفاءة.. والإسلام منحنا الحرية فى التفكير والعمل، إذًا فلابد من أن نتحاور مع بعضنا فى مستحدثات الأمور وأن نواجه ما هو مطروح على الساحة بالمناقشة الجادة والحوار البناء ونأخذ الآراء لنضع قاعدة أصولية صحيحة يُجمع عليها الناس ويرون أنّ هذا أفضل علاج للمشكلة وأحسن حلٍ للقضية. لذلك كان الإجماع مصدر يتحقق به حكم شرعى قابل للاجتهاد ليس فيه نص قرآنى أو نبوى أو قول لصحابى أو تابعى وهكذا حتى نصل إلى اللحظة التى اجتمع فيها أهل الرأى والمشورة وقرروا الحكم التفصيلى للقضية المطروحة على الساحة.. إن المسلمين واجهوا بعد رسول الله ﷺ وبعد عصر الخلفاء الراشدين فكان أنْ اجتمعوا وقرروا مستلهمين هذا العمل من قول الله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

والإجماع على ثلاثة أقسام:

١ ـ الإجماع الصريح.. لأن الجميع يتفقون فيه صراحة على رأى واحد.

٢ ـ الإجماع السكوتى.. لأن أكثر الجالسين سكتوا عما رآه البعض غير منكرين عليه.

٣ ـ اختلاف الحاضر على رأيين كل واحد يتمسك برأيه وهذا الرأى نرى أنه من باب الحفاظ على وحدة الأمة نقول لهم ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء: ٥٩].

وهنا رأى وجيه للمالكية أنه فى حالة الاختلاف أنه يستطلع رأى فقهاء أهل المدينة لأنها دار السنة وأهلها أعلم بسيرة رسول الله ﷺ.. هذا وقد قال النبى ﷺ: (لا تجتمع أمتى على ضلالة، وقوله ﷺ: (لم يكن الله ليجمع أمتى على الضلالة)، وقوله ﷺ: (سألت ربى ألاّ يجمع أمتى على الضلالة فأعطانيها) ذكر ذلك الإمام الغزالى فى كتاب المستصفى.. وليس ببعيد أن يكون الرسول ﷺ هو الذى أنشأ فى نفوس الصحابة فكرة الإجماع ليكونوا عونًا لولى الأمر فى تدبير شئون الرعية على كافة المستويات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

القيـاس

القياس عمل اجتهادى عقلى يؤخذ به حيث لا نص.. وهو مصدر عقلى ذكره الغزالى فى كتابه المستصفى بقوله: (القياس تعدية حكم من الأصل إلى الفرع بعلّة متحدة لا تعرف بمجرد فهم اللغة) فالقياس إذًا عمل عقلى يُثبت به المجتهد الحكم للواقعة التى لم يرد دليل على حكمها بعد مساواة الفرع لأصله فى علّة التحكيم.. ونضرب لذلك مثلاً.. الله تبارك وتعالى حرّم الخمر.. حرّم عصرها وحملها والاتجار فيها وحرّم شربها واعتبر أن كل ما يأتى من الخمر من ربح فهو حرام، وتمسك المسلمون بهذا واعتبروا أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام.. وعلّة التحريم فيها.. أنها تغتال العقول وتقلل الحصانة عن الجسد فيكون عرضة للأمراض ثم تلف المال وإضاعته بلا عائد على الإنسان من هنا كان التحريم وجاء النص القرآنى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١].. وكلمة اجتنبوه أقوى فى الدلالة على التحريم من أى لفظ آخر وقد بيّن الله ذلك فى القرآن الكريم عندما قال الحق سبحانه ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ

وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج : ٣٠، ٣١].

لهذا كان تحريم الخمر من الله لأن الخمر تغتال العقل وتجعل شاربها يفقد أخص صفاته ويكون كالحيوان الذى لا يفرق بين أمه وزوجته. . ظهر فى المجتمع الإنسانى الحشيش والأفيون والكوكايين وما يدور فى فلك هذه المسميات مما يوضع فى قائمة المخدرات هذه الأشياء ليس فيها نص صريح من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ لكن العلماء والحكماء والأطباء قاموا بعمل قياس بالضرر الناتج عن تعاطى هذه المخدرات فوجدوها أسوأ من ناتج الخمر لأن المخدرات تدمر الشخص وتتلف بنيته الأساسية وتهد كيانه وتقعده عن العمل بل وتفقده الوعى وأن الأضرار التى فى المخدرات أكثر من أضرار الخمر لذلك حكموا بحرمة هذه الأشياء ومع التحريم والتجريم، وحرّموا زراعتها وجلبها والاتجار فيها وأن زارعها ومروجها وما بينهما الكل ملعون ومكسبه حرام. . ومن يقول بأن المخدرات لم يرد فيها نص نقول أن هناك القياس الذى وضعه عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأيّده فيه كثير من الصحابة عندما قال لأبى موسى الأشعرى (اعرف الأمثال والأشباه وقِس الأمور عندك) وعلى هذا الأساس فإننا نستعمل القياس حين تدعو الحاجة إليه.

ويتعلق بالقياس أشياء أخرى كالاستحسان وهو العدول عن قياس وضحت علّته إلى قياس خفيت علّته. . كذلك الاستصلاح وهو الحكم فى مسألة لا حكم فيها لمصلحة يهتدى إليها المجتهد برأيه مثال ذلك (اشتراط سنٍ معينة للزوجين توثيقًا لعقد الزواج بينهما إلى غير ذلك من الأمور، وهناك الذرائع وهى وسيلة تُعطى حكمًا لغاية إذا تعيَّنت طريقًا إليها ولذلك عدّ الإمام مالك الأخذ بالذرائع أصلاً فى الأحكام ووافقه الإمام أحمد.

إن الإسلام دين من مميزاته أنه منح الفرد المكلف حريته العقلية ليجتهد إذا ضاقت عليه السبل فى أى أمر من الأمور وليس لديه نص قرآنى أو هدى نبوى أو رأى لإجماع العلماء أو قياس لأمر فيه نص فإن الإسلام يقول له اجتهد لكن لا تشرع لأن المجتهد له شروط علم بأحكام القرآن والسنة وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ ومعرفة تامة بلغة العرب وأساليبها فى البلاغة والبيان.

إن الإسلام لم يسلب المسلمين حريتهم ولم يلغ إرادتهم ولم يملك عليهم أمرهم كله وإنما ترك لهم حريتهم فى الحدود التى رسمها لهم ولم يُحصِ عليهم ما ينبغى أن يفعلوا وكل ما ينبغى أن يتركوا وقد ترك لهم عقولاً تستبصر وقلوبًا تستذكر وأذن لهم أن يتوخوا

الخير والصواب والمصلحة العامة والخاصة لصالح الناس ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً.

إن النبى ﷺ بذر للدولة الإسلامية بذورها ورسم لها منهجًا وهيأ لها مجتمعًا يصون بقاءها جاعلاً فى تقديره احتياج الحياة الإنسانية إلى التطور والنماء لأن النبى ﷺ كان ينزل عليه الوحى يُحَسِّن له الحسن ويرسم له المنهج ويصحح الخطأ وكل ذلك كان تمهيدًا لإقامة الدول الإسلامية الراشدة التى تضبط أمور المجتمع لقد رسم الوحى على وجه الإجمال أسس العدل لجميع الناس فى كافة الأحوال وحسبك أن النبى ﷺ ألَّفَ حكومة فى عهد عصره الأول كانت تدير الدولة وتضع لها تخطيطًا ونظامًا مع تقدير مقتضيات المصالح فخذ مثلاً القرآن يأمر بالعدل فى قول الله سبحانه: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]. البعض يقول إن هذا خاص بالقضاء.. ونحن نقول لهم لا مسوِّغ للتخصيص ولا موجب للتقييد فالصياغة شاملة تعم عدل الأب مع أولاده.. عدل الرجل فى أهل بيته.. عدل الرئيس فى مرءوسيه.. عدل القاضى فى الأحكام.. عدل الحاكم العام مع الرعية.. عدل لا يميل له ميزان ولا يتأثر بالقربى والحنان ولا يتغير بالتباغض والشنآن مما يقطع بأن العدل المقصود به عدل الأئمة والحكام وعدل كل إنسان فى مكان عمله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠].

إن الإسلام هو دين الأمر الواقع لم يشأ أن يدخل على الناس بتصورات مثالية خيالية لا محصل لها فى الواقع الذى يحيون فيه لأنه بما افترض من أصول الحكم وقواعده سبق أحداث الأجيال المتعاقبة ومع ذلك فقد ترك لعقلية كل جيل أن تضع من القواعد ما يتلاءم مع الأحداث بشرط عدم الخروج على القواعد الكلية والأصول المنصوص عليها بوضوح وجلاء.. إن الرسول ﷺ لم يلحق بالرفيق الأعلى إلاَّ وقد خطا بالسياسة الرشيدة خطوات واسعة أتاحت للراشدين من بعده أن يكملوا بتجاربهم ما بدأ وأن يضمنوا للناس العدل والحرية وأن يعملوا على حماية الجماهير من الظلم وإضاعة الحقوق وأن على الرعية أن تعلم أن الولاء للأمة يحل محل الولاء للقبيلة وأن الأخوة والمحبة والتعاون أساس النظام الاجتماعى، وأن الشورى تؤدى إلى التوازن الاجتماعى وتقيم الحاكم الذى يحكم بالعدل بين الرعية..

* * *

الفصل الثانى

١ - الـــــــــــــــــوزارة

ذكر القرآن الكريم فى معرض الحديث عن موسى عليه السلام وهو يتضرع إلى الله قائلاً فى ضـــراعــة ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي * هَرُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه: ٢٩ - ٣٢]. . ويتــبيَّن من هذا المدلول أن الوزير هو النصــير الذى يتـحمل شـيئًا من الأعباء والمسـئولية. . ولقد كـان النبى ﷺ يشاور أصحابه ويسـألهم الرأى وكان له مع أبى بكر أسلوبًا خاصًا فى التشـاور والتحاور لذلك سمَّاه كثيـر من الصحابة وزير النبى ﷺ. . كما أن عمـر بن الخطاب رضى الله عنه كان وزيرًا لأبى بكر. . كما كان عـثمان رضى الله عنه وزيرًا لعمر، وكذلك الإمام على كرّم الله وجهــه كان وزيرًا لعثمان. . وقد امتاز هؤلاء الوزراء بالبساطة فى جميع المظاهر ولم يشغلهم أبّهة المنصب عن خدمة الرعية.

ثم كان فى عهد الأمويين أن اتجهت الإدارة نحو التـمركز لأنها فى عهد الخلفاء كانت لا مركزية، وعند قـيام الدولة العباسية فى أول أمرهـا وقبل مبايعة الخليفـة العباسى الأول أقر نظام الوزارة ويقـولون بأن ذلك تم بتحـريض من الفرس لأنهم كـانوا الأنصار الـطبيعـيين للعباسـيين وقد رضى الخليفة بذلك لأنه راعـى تطور الدولة واتجاهها نحو التـمركز وتوزيع السلطات. . ونظرًا لعدم تحديد سلطة الوزير وعـدم الفهم لصلاحياته كان الخليفـة يعتبر أن الوزير مساعدًا له وكـان الوزير يريد فرض سيطرته على الجهاز الإدارى لذلك كـثيرًا ما وقع التصـادم بين الخليفة ووزيره. . وفى عـهد الرشيد بلغـت الوزارة حدًا كبيـرًا من القوة لأن الرشيد حين استوزر يحيى بن برمك فـوّضه فى جميع السلطة وقال له: (يا بنى قلَّدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقى إليك فاحكم بما ترى واستعمل من شئت واعزل من أردت) لكن الوزير يحيى استغلَّ هذا التـفويض وحصر الوظائف الهامة لأعـوانه وأنصاره فسيطروا على خزائن الأموال وأساءوا الـتصرف فكانت نكبتهم الشهـيرة. . وهكذا. . ولكن نقف لنحدد حكمة الوزارة. . الوزير لغة مـشتقة من الوزر وهو الثقل والعبء لأن الوزير يتـحمل أعباء الحكم وأثقاله. . أو من الوَزَرْ. . [يراجع الأحكام السلطانية لأبى يعلى].

وبعض المستـشرقين يقولون بأن لفظة الوزارة كلمة فـارسية قديمة أى (البـهلوية) ومعناها القاضى أو الحَكَمْ. . والمستـشرقون الذين قالوا ذلك أخطأوا لأن بين القـضاء والوزارة فرقًا واضـحًا لا يجيـز لنا موافـقة المسـتشـرقين على رأيهم فى اشـتقـاق هذا اللفظ من الأصل الفارسى. . والوزارة فى عهد العباسيين كانت قسمين:

١ ـ وزارة تنفيذ. . وتـنحصر أعمالهـا فى تنفيذ أوامر الخليـفة وليس من حق الوزير أن يتصرف إلاّ فى حدود الأوامر فهو همزة وصل بين الحاكم والشعب.

٢ ـ وزارة تفويض. . وهو الوزير الذى يفوضه الخليفة فى التصرف.

ووزير التنفيذ كما يقول أبو يعلى فى كتابه الأحكام السلطانية يشترط فيه:

١ ـ الأمانة. . حتى لا يخون فيما اؤتمن عليه ولا يغش فيما يُستنصح فيه.

٢ ـ صدق اللهجة حتى يوثق بخبره.

٣ ـ قلة الطمع حتى لا يرتشى ولا ينخدع.

٤ ـ أن يسلم فيما بينه وبين الناس من عداوة وشحناء. . فإن العداوة تصُد عن التناصف وتمنع عن التعاطف.

٥ ـ أن يكون ذَكورًا لكل ما ينقله ويؤديه.

٦ ـ أن يكون ذكيًا حصيفًا حتى لا يُدلس ولا يُموه عليه أحد.

٧ ـ ألا يكون من أهل الأهواء فيخرجه الهوى من الحق إلى الباطل. . إلى غير ذلك مما قاله أبو يعلى. . ويضيف الماوردى. . وأن يكون من أهل الكفاءة.

٢ - الحجابــــة

عرفـت الدولة الإسلامـية الحاجب ولـم تعرف هذه الوظيـفة إلاّ فى عـهد معـاوية لأن الحاجـب كان يقـوم بعمل مـدير التشـريفات اليـوم وكان الحـاجب يتمـتع بسلطات رئيس الحكومة. . ويلاحظ أن العـباسيين عندمـا منعوا الناس من المقابلات الرسـمية مع الخليـفة اتخذوا الحاجب الأول ثم الحـاجب الثانى، بل إنهم زادوا حاجبًا ثالثًا وقـد أصبح الحاجب الثالث الذى يقـابل الجماهير أحاط نفـسه بهالة من الإجلال ولذلك قـوى نفوذه فى الدولة وعلت مرتـبته لأنه هو الذى يلتـقى بالجمـاهير ويتـعرف على اتجاهات الرأى الـعام لذلك استطاع الأقوياء من حـجاب الدرجة الثالثة أن يُضعفـوا من قوة الوزارة عند الخلفاء وهكذا يتبين لنا أنه فى كل يوم يكشف الـتنظيم الإدارى للدولة نظمًا جديدة يحتاجـها نظام الحكم ولا مانع منها لكن يؤخـذ على الحاكم العام إذا ترك أمره للحجاب واكـتفى بنقل المعلومات إليه فـمفروض عليـه أن يحتك بالشعب ولو عن طـريق المحاورات التلفزيونيـة وعلى أفراد الرعية أثناء المحاورة أو عرض المشكلة أن يحفظوا للحاكم هيبته وأن يكونوا صرحاء فى نقل المعلومات.

٣ - ديـوان الكتَّـاب

الكاتب فى الدولة مـهم جدًا فهـو الذى يقوم بكتابة الرسـائل وتلقى الرد عليهـا ويقوم بعرضها على رئيس الدولة الذى يبدى وجهة النظر فيـما جاء وينبه بالرد عليها ولقد ظهرت وظيفـة الكاتب فى عهـد رسول الله ﷺ كمـا ظهرت فى عصـر الخلفاء الراشـدين وأمسى الكتَّاب فى عصر الأمويين على درجات خمسة:

١ ـ كاتب للرسائل.

٢ ـ كاتب للخراج.

٣ ـ كاتب للجند.

٤ ـ كاتب للشرطة.

٥ ـ كاتب للقضاء.

إن الكاتب الذى يتميز بقوة الشخصيـة والدهاء والذكاء يعادل مركز الوزير خاصة كاتب الرسائل لأنه هو الذى يحرر الرسائل الرسمية والسياسية فى الداخل وللخارج كما ينشر بين الناس المراسيم والقـرارات وما يستجـد من تنظيم فى الأمور الإدارية وقد كـان يتاح لكاتب المراسيم أحيـانًا أن يجلس مع الخليفة على منصة القضـاء لينظر فى الدعاوى والشكاوى ثم يختمـها بخاتم الخليفة.. وهكذا نرى أن النظم الإسـلامية قابلة للتطور حسب تطور البـيئة واحتيـاجاتها لأن أصول الحكم فى الإسـلام تستهدف مصلحـة الجماهير والتـخفيف عنهم وحـمـاية الـوطن ورقـيـه والنهـــوض به.. ومن هنا جـاء فى كـتـــاب الوزارة والكتَّاب (للجهشيارى) وكانت ملوك فارس تُسـمِّى كُتّاب الرسائل تراجمة الملوك وكانوا يقولون لهم لا تحملنكم الرغبة فى تخـفيف الكلام والإيجاز فيه على حذف معـانيه وترك ترتيبه وتوهين حجمه).. ومن هنا كان كاتب الرسائل هو المؤتمن على أمور الدولة وأسرارها..

يقول ابن خلدون فى مقدمته: (إن أصول السلطان وتصرفاته لا تعدو أربعة.. لأنها إما أن تكون فى أمور حماية الكافة وأسبابها من النظر فى الجند والسلاح والحروب وسائر أمور الحماية والمطالبة، وصاحب هذا هو الوزير المتعـارف فى الدولة القديمة بالمشرق ولهذا العصر بالمغرب، وإمـا أن تكون فى أمور مـخاطباتـه لمن بَعُد عنه فى المكان أو فى الزمان وتنفـيذه الأوامر فيـمن هو محجوب عنه وصاحب هذا هو الكاتب.. وإمـا أن تكون فى جباية المال وإنفاقه وضبـط ذلك من جميع وجوهه أن يكون بمضيعـة، وصاحب هذا هو صاحب المال

والجباية. . وإما أن تكون فى مـدافعة الناس ذوى الحاجات عنه أن يزدحموا عليـه فيشغلوه عن مهـمته وهذا راجع لصاحب البـاب الذى يحجبـه وهو الحاجب. . وهكذا نرى أن هذا التنظيم الذى أخذ شكله العام مـستمد من فعل رسول الله ﷺ ومن فـعل الخلفاء الراشدين مع ملاحظة التطور الزمنى والاتساع العمرانى.

* * *

الفصل الثالث

الإدارة

بعث النبى ﷺ بالدين الجديد وأخذ هو يعلم الناس، ولكن بدأت القبائل تدخل فى دين الله فتطلب الأمر أن يبعث النبى ﷺ ببعض رجاله ليفقهوا القبائل فى الدين ويعلموهم القرآن.. وكانت هذه هى اللبنة الأولى للتنظيم الإدارى فى الدولة الناشئة التى لم تستكمل نظامها الدستورى ثم كان النبى ﷺ يقود الجيش لمحاربة المعتدين وصد تيار المهاجمين للدولة النامية فكان الرسول ﷺ ينيب عنه من يؤم الناس فى الصلاة ويُسَيِّر دولاب العمل فى المدينة.. كما أنه كان يبعث العمال لجمع الزكاة باعتبارها المصدر الممول للدولة ثم بدأ يحدد مرتبات للعمال وأول راتب فرضه النبى ﷺ وحدّده لـ (عتاب بن أسيد) نائبه على مكة وكان الراتب درهم فى كل يوم.. والصحابة عندما عرفوا بذلك اعتبروه مرتبًا ضخمًا ثم بدأ النبى ﷺ يخصُّ كبار الصحابة ولا سيما من كانوا معه منذ اللحظات الأولى بمناصب معينة.. فكان أبو عبيدة على المال.. ونستطيع أن نسميه بلغة العصر وزير مالية واقتصاد.. وترك لعمر أمر القضاء (وزير عدل).. ولعليّ أمر الفتوى فيما يجد على الساحة من مشكلات (تعادل هذه الوظيفة شيخ الأزهر ووزير الأوقاف والمفتى ورئيس جامعة الأزهر) فى عهد عمر بن الخطاب اتسعت الدولة الإسلامية فكان لابد من التنظيم الإدارى وتقسيم المناطق فجعل بلاد فارس ثلاث ولايات (محافظات) وجعل العراق ولايتين وكذلك الشام أما أفريقيا فجعلها ثلاث ولايات ولكن تعددت فيها الإدارات وهكذا جعل على كل بلد واليًا وأعطاه السلطة الواسعة حيث يعمل ما يراه الأفضل فى كل مرفق من مرافق الحياة دينيًا ودنيويًا وكان الوالى عليه أن يؤم الناس فى الصلاة ويقضى بينهم بالحق ويقسم بينهم الأموال التى يحصلون عليها من الغنائم وكان عمر يوصى العمال قائلا: (لا تجلدوا العرب فتذلوها ولا تجمروها فتفتنوها ـ أى لا ترسلوا بالأشخاص فى الجيش لمدة طويلة وتحبسوهم عن أهاليهم فتكون الفتنة هنا وهناك ـ ولا تغفلوا عنها فتحرموها) وهكذا كان الوالى يجعل من المسجد ندوة للاجتماع فمنه تذاع الأخبار العامة وفيه تُلقى الخطب الإصلاحية والتوجيهية وبيانات الولاة فى السياسة والاجتماع والدين لأن هذه المساجد وحدات شعبية كما أنها أداة للتنظيم والتضامن الاجتماعى لأن فى المسجد يتعلم الناس الطاعة والنظام ويتعلمون القيادة وإدارة مسائلهم على أساس أحكام الدين.. ولهذا فإن الدولة الإسلامية بلغت شأوًا عاليًا فى الازدهار والاتساع.. وكان النظام الإدارى متينًا وله من المرونة والقوة

ما حفظ الدولة من التفكك خاصة فى زمن الفتن التى حلَّت بالمجتمع الإسلامى لأن المسجد كانت الأعـمال الإدارية تُمارس فيـه والسلطة الإدارية جزء من السلطة التنفـيذية وكل ذلك يستمد من الشعب الذى بايع الخليفة برضاه وهو قد فوَّض السلطة للحاكم الذى أصبح نائبًا عن الشعب فى كل الأعمال وهو بدوره يفوِّض الوزراء والولاة والقضاة. . لهذا كان الشعب هو مصدر السلطـات والجميع مقيـدون بحكم الله مُتبعون لما أنزل ومـا تقتضيه شـريعته إذًا تكون النهاية أن الشعـب والسلطة عنصر واحد. . لهذا يقول ابن تيـمية فى كتابه السـياسة الشرعية (أولُّوا صنفان الأمراء والعلماء إذا صلحوا صلح الناس). .

إن القاعدة الشعبية الإسلامية تتكون من عموم الناس الذين آمنوا بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبسيدنا محمـد ﷺ نبيًا ورسولاً هؤلاء جميعًا مهما اختـلفت لغتهم وتباعدت أوطانهم. . هم أمة واحدة يقول الحـق سبحانه: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢]. ولذا فإن الأشكال السياسـية التى طرأت على المجتمع الإسلامى وجعلت بلاد المسلمـين دولاً مستقلة عن بعضهـا نرى أن هذا التقسيم لا يؤثر أبدًا فى وحدة الـكيان الإسلامى ولا يؤثر أبدًا فى الوحدة الطبيـعية بين جميع المسلمين لأن عنصر الأمـة الإسلامية يتماسك حـول شريعة الله فَصَلاتهم واحدة وقبلتهم واحدة وكتابهم واحد ونبيّهم واحد كل هذه العوامل أوجدت روح التضامن بين المسلمين فإن وحدة الإيمان تؤدى إلى وحـدة الفكر ويساعد نظام المساجد على هذا التماسك المتين وعلى تنظيم الخلايا الاجتماعية فى جسم الأمة الإسلامية.

وإن الإدارة اليوم تهتـم بتنظيم النشاط البشرى ليـعمل على تحسين إدارة شئـون المجتمع وخدمته لتحقـيق أهدافه الاقتصادية والاجتماعية والسيـاسية والأمر يتطلب إعدادًا وتخطيطًا لهذا النشـاط مع تحديد للأهداف وتقدير للاحـتياجـات وتدبير للإمكانيات البـشرية والمادية المتاحة والتنسيق بين كل ذلك ثم متابعة التنفيذ والمراقـبة الدقيقة للتصرف على أوجه القصور أو الانحـراف فى المسلك ثم إصلاح المعـوقات بعـد وضع الضوابط التى تحكـم دقة الأداء وتقلل من الانحراف.

إن الإدارة فى الإسلام محكومـة بمثل ومبادئ وقيم وأخلاق لأن الإدارة بمفهـومها العام هى (القدرة على استخـدام الإمكانيات المادية والبشرية المتاحة بأقصى كفـاية لتحقيق أهداف معينة) والإدارة علم تعـتمد على الذكاء والكياسة والـفطنة والفكر الإدارى الإسلامى يستند إلى نصـوص القـرآن الكريم وتوجـيـهـات السنة الـنبـوية ويقـوم على أســاس من القـيم الإسلامية. . يقول الدكتور عبد الرحمن تاج فى كتابه السياسة الشرعية (وليس معنى القرآن

تبيان لكل شىء أنه أحاط بجزئيات الوقائع والحوادث ونصَّ على تفاصيل أحكامها ولم يُعْنَ بعرض تلك الجزئيات وإنما أتت الأحكام التى عرض لها قوانين عامة ومبادئ كلِّيَة مما يتصل بتلك القوانين والمبادئ. . فالقرآن هو المصدر الأول للتشريع الإسلامى تبيان لكل شىء من حيث أنه أحاط بجميع الأصول والقواعد التى لابد منها فى كل قانون ونظام وذلك كوجوب العدل والشورى ورفع الحرج ودفع الضرر ورعاية الحقوق لأصحابها وأداء الأمانات إلى أهلها والرجوع بمهام الأمور إلى أهل الذكر والاختصاص وما إلى ذلك من المبادئ العامة التى لا يستطيع أن يشذ عليها قانون يُراد به إصلاح الأمم). . إن الرسول ﷺ وزّع العمال على القبائل أما عمر فوزّع على الولايات ولقد كان مجتمع الإسلام مجتمع كفاية وعدل لأن الرسول ﷺ كان يعطى المتزوج فى الراتب أكثر من الأعزب.

الدواوين

لما اتسعت البلاد فى عهد عمر بن الخطاب أشار عليه أحد الأشخاص أن يدخل نظام الدواوين فى الدولة. . وقد استجاب عمر لذلك. . وأصل الديوان بالفارسية (الدفتر أو السجل) لكنه حُرِّف وصار يطلق على المكان أو الدائرة. . وعمر بن الخطاب طوَّر فى الديوان وعدَّدَ اختصاصاته ليواكب الاتساع فى الدولة. . لذلك أنشأ:

١ ـ ديوان الجند. . وهذا الديوان يختص بتسجيل أسماء المقاتلين مع بيان مواقعهم وعناوين بلادهم وعدد أفراد أسرهم وتحديد ما يأخذونه من عطاء (راتب).

٢ ـ ديوان الخراج. . وهو بيت مال المسلمين فيه أسماء الذين يدفعون الزكاة وأسماء الذين يأخذون العطاء.

والدواوين فى الإسلام منها المركزية ومنها المحلية. . ثم جاء العصر الأموى فاتسعت الدواوين وأصبحت كالآتى:

١ ـ ديوان الخراج.

٢ ـ ديوان الرسائل. . وهو الذى يشرف على مراسلات الخليفة فى أول الأمر مع الولايات والأمصار. . كذلك الرسائل التى تأخذ الصبغة السياسية فى مخاطبة ملوك الدول الأخرى.

٣ ـ ديوان المستغلات. . أى الذى يرد إليه إيرادات الدولة.

٤ ـ ديوان النفقات. . وهو مختص بكل ما يصرف على الجيش من ملابس وتسليح

ورواتب.

٥ ـ ديوان الجند. . وهذا الديوان يقوم بحصر المجندين.

٦ ـ ديوان الطراز. . وكـان هذا الديوان مـخـتـصًا بإنتـاج الأزياء الرسـميـة والأعـلام والشّارات والشعارات.

٧ ـ ديوان البـريد. . لتنظيم الاتصالات ووسـائل النقل بين الأقـاليم ونقل الأخبـار من وإلى الولايات.

٨ ـ ديوان الخـاتم. . وهو الديوان الذى يحـفظ فيـه خاتم الدولـة بعد أن يربط بخـيط ويُشمَّع بالشمع الأحمر وهو ما يعرف فى زماننا هذا بالأرشيف.

٩ ـ ديوان الصدقات. . وقد أخذ اسم هذا الديوان من آية الصدقة لأنه كان يهتم بتوزيع موارد الزكاة.

لقد قلنا بأن النظام الإدارى للدولة يتبلور وكلما اتسعت الدولة كان هناك التفكير السديد من أولى الأمر يواكبون بأفكارهم المستجدات على الساحة ولذلك نشأ

القضـاء

المتتبع لسيرة النبى ﷺ يرى أنه من أول لحظة نصٌ على القضاء فى الصـحيفة التى كتبها مع اليهود فـقد جاء فيـها (أنه ما كان بين أهل هذه الصحـيفة من حدث أو شـجار يخاف فسـاده فإن مَردَّه إلى الله عـز وجل وإلى محـمد ﷺ) [سـيرة ابن هشـام] ومن هذا النص يتضح أن النبى ﷺ كـان هو الحكم فإليه وحده يَردون كل نزاع أو خـصام وهو القاضي. . وسبب ذلك أن المجـتمع ناشئ وجديد وحسب الإنسـان فخرًا أن يكون قاضـيه رسول الله وخاتم النبيين. . ثم بدأ يبـعث ببعض أصحابه إلى بعض البلاد كـما بعث بعلى إلى اليمن قاضيًا. . وقد اشتهر فى أيامه ﷺ كثـير من الصحابة والصحابيات وكانوا يتدربون على يد رسول الله ﷺ فيـعلمهم أصول الدعوى وأسـاليب التظلم والشكوى وعلى المدعى أن يُبين الحق بالدليل وعلى خصمه إنْ أنكر أنْ يحلف اليمين. . (البيّنة على من ادعى واليمين على من أنكر) وقد حكم الرسول ﷺ فى قضايا أمـام أصحابه، ومن ذلك مثلاً ما رواه أبو داود (سمرة بن جُندب) له عـضيد ـ النخل إذا صار له جذع ـ وهذا النخل فى حـائط ـ بستان ـ رجل من الأنصار ومع هذا الرجل أهله فكان سُمرة يدخل إلى نخله فـيتأذّى به ويُشق عليه فطلب إليه أن يبيعه فأبى فطلب إليه أن يناقله فأبى ثم رغَّبه أن يهبه له والله يثيبه أكرم مثوبة

فأبى، فقال عليه الصلاة والسلام لسُمرة (أنت مُضار) ثم قال للرجل الأنصارى: اذهب فاقلع نخله)، كان الصحابة يسمعون هذا الحوار الذى انتهى بهذا الحكم. من هنا تعلموا عمليًا القضاء وكيفية إصدار الحكم.

ثم قضية أخرى عُرضت على الملأ رواها البخارى فى صحيحه أن رجلاً من الأنصار خاصم الزبير بن العوام واشتكاه إلى النبى ﷺ فى شراج الحرَّة (وهى الحجارة السوداء ويراد بها مسايل الماء) التى يسقون بها النخل لأن الأنصارى قال للزبير بن العوام: سَرِّح الماء يمر، فأبى الزبير عليه فاختصما عند النبى ﷺ الذى قال للزبير (اسقى يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك) لأن الزبير أرضه على رأس الأرض والماء يمر منها أولاً فغضب الأنصارى فقال: إن كان ابن عمتك؟! فتلوَّن وجه رسول الله ﷺ ثم قال اسقى يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجُدُرْ) فنزل قوله تعالى: **﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾** [النساء: ٦٥].

من هنا فإن ما صدر عن رسول الله ﷺ فى أى حكم بين المتخاصمين كانوا يُسلِّمون به لأن حكمه مقترن بالتنفيذ الفورى الذى لا حاجة معه إلى الاستئناف أو النقض وقد علّم القضاة أن يتصفوا بالعدل والسماحة وعدم قبول الشفاعة ورد الهدية لأنها رشوة مُقَنَّعة لهذا قال فيما رواه الإمام مسلم من ابتغى القضاء وسأل فيه الشفعاء وُكِلَ إلى نفسه ومن أكره عليه أُنزل عليه ملك يُسدِّده) والقاضى دائمًا يحكم بالظاهر لذلك كان الرسول ﷺ يفصل بين المتنازعين ببساطة تامة ويصرح لأصحابه بأنه لم يُؤت علم الغيب فقد يختصم إليه رجلان أحدهما ألحن بحجته من أخيه فمن قضى له بشىء ليس حقًا له فإنما هى قطعة من النار فليأخذها أو ليدعها.. ولم يكن الحبس معروفًا فى زمن الرسول ﷺ وإنما المتهم كان يحبس فى المسجد ويلازمه خصمه أو نائب عنه، الأمر كذلك فى عهد أبى بكر لكنه أسند القضاء إلى سيدنا عمر الذى ظل عامين كاملين لا يأتيه شاكٍ ولا مشكو فى حقه ولما تولى عمر الإمارة عيَّن بعض القضاة فى الولايات ليفصلوا بين الناس فى قضايا النزاع التى نتجت من اختلاط العرب بأهل البلاد المفتوحة فولّى (شريحًا الكندى) قضاء الكوفة وجعل راتبه مائة درهم مع مؤونته من الحنطة، كذلك ولّى (عثمان بن قيس) قضاء مصر (وأبا موسى الأشعرى) قضاء البصرة وسارت الأمور على ذلك حتى العصر العباسى فقسَّموا القضاء إلى نوعين.. خاص.. وقضاء عام.. وكُتب الفقه مليئة بأدب القاضى ومن هذه الآداب أنه لا يقضى وهو غضبان ولا وهو جائع أو عطشان ولا يقضى إذا غلبه النعاس أو أقلقه المرض..

وتطور الأمر حتى سارت الأمور إلى إنشاء وزارة العدل التى كان يقابلها فى الماضى قاضى القضاة. . وبهذا يتبين أن النظم الإسلامية بدأت منذ البدء فى تكوين الدولة الإسلامية بقيادة سيدنا محمد ﷺ والمسلمون الأول لم يفتهم كذلك أن ينشئوا

ولاية المظالم

وهذه الولاية كما يقول ابن خلدون فى مقدمته (وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونصفة القضاء وتحتاج إلى علو يد وعظيم رهبة تقمع الظالم من الخصمين وتزجر المعتدى وكان الخلفاء الأولون يباشرونها بأنفسهم). . وليس فى عصرنا هذا ما يشبه الولاية إلاّ (المحَكمة الدستورية العليا أو مجلس الدولة) لأن اختصاصاتها تفوق اختصاصات القضاء فى أمور كثيرة كما يقول (أبو يعلى فى كتابه الأحكام السلطانية، وكذلك الماوردى) والاختصاصات هى:

١ ـ النظر فى الشكاوى التى يرفعها أفراد الرعية على الولاة والحكام إذا انحرفوا عن طريق الحق والعدل.

٢ ـ النظر فى جور العمال فيما يجتبونه من الأموال.

٣ ـ النظر فى كُتّاب الدواوين لأنهم أمناء المسلمين على بيوت الأموال فيما يستوفونه ويوفونه.

٤ ـ النظر فى تظلم المرتزقة إذا نقصت رواتبهم أو تأخر دفعها إليهم.

٥ ـ رد ما غصبته أيدى الظلمة من المستضعفين.

٦ ـ الإشراف على الأوقاف العامة والخاصة لتمضى على شروط واقفيها.

٧ ـ تنفيذ وقف أحكام القضاة والمحتسبين لأن والى المظالم أقوى منهم يدًا وأنفذ أمرًا.

٨ ـ مراعاة إقامة الشعائر والعبادات فى مواعيدها المحددة.

٩ ـ إنزال عقوبة التأديب بعمال الدولة من كبار الموظفين.

١٠ ـ تأخير البت فى القضية عند اشتباهها إمعانًا فى الكشف عن أسبابها وظروفها.

كل ذلك لأن لناظر المظالم من فضل الهيبة وقوة اليد ما ليس للقضاء فى كف الخصوم عن التجاحد ومنع الظلمة من التغالب والتجاذب، ولذلك اشترطوا فى والى المظالم (أن يكون جليل القدر عظيم الهيبة ظاهر العفة كثير الورع نافذ الأمر قليل الطمع.

وكان والى المظالم يعقد مجلسه فى يوم معروف محدد ولابد أن يحضر مجلسه جماعات خمس:

١ ـ الحماة والأعوان.. للقبض على ما ثبتت إدانته.

٢ ـ القضاة والحكام.. لاستلام ما يثبت عندهم من حقوق.

٣ ـ الفقهاء.. ليرجع إليهم فيما أشكل عليه.

٤ ـ الكُتّاب ليسجلوا ما جرى بين الخصوم ويدونوا الأحكام.

٥ ـ الشهود لإثبات ما عرفوا عن الخصوم والإدلاء بأقوالهم ويسمعوا حكم والى المظالم.

مما لا شك فيه أن الدولة بحاكمها العام وأعوانه ومستشاريه توصلوا إلى ذلك ثم قام الفقهاء فأصّلُوا هذه الأمور وبينوا هذه الشروط لأنهم كانوا يسمعون القرآن وهو يتلى على مسامعهم ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

ولو أن المسلمين اليوم طبقوا هذا النظام لأراحوا واستراحوا وانتهت الشكاوى المكدَّسة فى المحاكم لأن الناس إذا رأوا يد العدالة قوية لتوقف الظالم عن ظلمه والمعتدى عن اعتداءاته لأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، وإذا كنا نسمع فى هذه الأيام من ينادى ويقول الإسلام هو الحل نقول له نعم كلمة حق.. ولكن كيف؟!.. إننى أقول بدل أن نرفع الشعارات التى لا مدلول لها علينا أن نتناصح أولاً وأن يعمل كل واحد منا على ما تعلمنا «أقيموا دولة الإسلام فى أنفسكم تقم على أرضكم» لكن إذا كان الذى ينادى بالإسلام هو الحل يقول ما لا يفعل وليس لديه معرفة بأحكام الصلاة وغيرها من الفرائض فكيف بالله علينا أن نمشى وراء شعارات جوفاء.. لقد آن الأوان أن نستمع جيدًا لقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢]، لقد عشنا ردحًا من الزمن رأينا نائبًا عامًا يتولى الدفاع عن المظلومين وعندما أسندت إليه ولاية (محافظة) سلب ونهب. وهتك العرض وداس على الشرف وتندر الرجل العامى يومها وقال: (حاميها حراميها) فأين المفر؟!..

إن الإسلام شريعة عادلة ينصف المظلوم ويأخذ الحق من الظالم مهما كان قدره أو سلطانه لأن الشعب بقاعدته العريضة يؤيد صاحب الحق ويقف مع العدل الذى به قامت السموات والأرض.

العــدل

العدل هو إقامة الحق.. وهو من القيم الإسلامية العالية التى تشيع الطمأنينة فى النفوس وتنشر الأمن بين العباد وتقوى علاقات الأفراد بينهم وبين بعض كما أنها تقوى الثقة بين الحاكم والمحكوم.. فى ظل العدل يزيد الرخاء وتُنَمّى الثروة فلا تتعرض لخلخلة أو اضطراب.. به يستقر نظام الحكم لأن المحكوم يمضى إلى غايته فى العمل والإنتاج وخدمة الدولة وهذه هى وظيفة الأنبياء وأتباعهم لهذا نهى الإسلام الحاكم عن أن يقبل هدية كذلك القاضى لا يقبلها من أحد لأنه ربما يقف يومًا أمامه فى قضية فلا يحكم بالحق ويميل مع الهوى، لهذا روى أبو داود أن النبى ﷺ قال: «من استعملناه على عمل فرزقناه رزقًا فما أخذه بعد ذلك فهو غلول»، ونحن نؤمن بأن الله قال: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١]، والغل (الخيانة) ومنه قوله ﷺ: «من بعثناه على عمل فغلَّ شيئًا جاء يوم القيامة يحمله على عنقه»، وقوله كذلك: «هدايا الولاة غلول» ولما كانت الهدية إلى الحاكم أو القاضى رشوة فإن رسول الله ﷺ لعن من يأخذ الرشوة لأنه قدّمها ليأخذ حق غيره أو يدفع عن نفسه شرًا جزاء ما ارتكبت يداه وهذا حرام لقول رسول الله ﷺ فيما رواه أحمد: «لعنة الله على الراشى والمرتشى فى الحكم» وسيدنا سليمان كان نبيًا ملكًا وقد حكى الله عنه أنه سبحانه فَهَّمَهُ الأحكام لأنه كان على حق ويجتهد فى معرفة الحقيقة فكان الله يسدد خطاه ولقد عرضت عليه قضية أنّ امرأتين تتنازعان طفلاً كل واحدة تدعى أنه ولدها فقال سليمان أخرجوا الطفل أمامى وائتونى بسكين لأشقه نصفين كل واحدة تأخذ النصف، وهنا تحركت عاطفة الأم الحقيقية وصرحت وقالت: لا تفعل وآثرت أن يبقى حيًا بعيدًا عنها على أن يقتل فاستدل بذلك على أنه ولدها.. يقول أبو هريرة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «كانت امرأتان معهما ابناهما فجاء الذئب فذهب بابن أحدهما فقالت صاحبتها إنما ذهب بابنك وقالت الأخرى إنما ذهب بابنك فتحاكما إلى داود فقضى للكبرى.. فخرجتا على سليمان بن داود عليهما السلام فأخبرتاه فقال ائتونى بالسكين أشقه بينكما فقالت الصغرى لا تفعل يرحمك الله هو ابنها فقضى به للصغرى).. وإذا رضى أهل الكتاب وأهل الذمة الذين يعيشون فى المجتمع الإسلامى أن يتحاكموا إلى قضاة المسلمين فلا مانع من ذلك بشرط أن يكون الحكم بما يحكم به للمسلمين لقول الله تعالى: ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [ص: ٢٦].. وفى الآية الآتية دلالة واضحة على أن الحكم بين غير المسلمين يكون بما أنزل الله لقول الحق سبحانه: ﴿فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ

عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢]. . والحاكم أو القاضى عليه أن يسمع الدعوى من الخصوم وأن يسمع من الطرفين لقول الرسول ﷺ فيما رواه أبو داود حيث كان يوصى الإمام على بقوله: «يا على إذا جلس إليك الخصمان فلا تقضى بينهما حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول فإنك إذا فعلت ذلك تبيَّن لك القضاء».

وعلى القاضى كذلك أن يتعرف على الشهود لأن هناك من يشهدون الزور فإن رآهم مرة بعد أخرى فى مجلسه فعليه أن يطردهم من مجلسه ولا يسمع لشهادتهم بل ويأمر بحبسهم لقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى وصيته لـ (عبد الله بن قيس) وقد ولاه القضاء (المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلودًا فى حد أو مجربًا عليه شهادة زور) ثم ما رواه الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال: (لو يعطى الناس بدعواهم لادّعى ناس دماء رجال وأموالهم ولكن اليمين على المُدَّعى عليه) ومن المعلوم فى كتب الفقه أنه لا تجوز شهادة ساقط المروءة ولا المجنون ولا شهادة الأخرس إلاّ إذا كتب شهادته بيده، وكذلك ما رواه أبو داود أن رسول الله ﷺ قال: (لا تجوز شهادة خائن ولا خائنة ولا ذى غمرة على أخيه ـ أى صاحب حقد على المشهود عليه ـ ولا تجوز شهادة القانع لأهل البيت ـ أى الذى تنفق عليه زوجته أو أقاربه)، كذلك لا تقبل شهادة من أُشيع عنه أنه يمارس الزنا ولا من اشتهر بالكذب وفساد الأخلاق، وعند الشافعى لا تجوز شهادة الكافر على المسلم، كذلك شهادة المجهول لما ثبت أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رفعت إليه قضية فشهد رجل فقال له عمر: لست أعرفك ولا يضرك ألاّ أعرفك، ثم قال لصاحب القضية: ائت بمن يعرفك، فقال رجل من الجالسين: أنا أعرفه يا أمير المؤمنين، قال عمر: بأى شىء تعرفه؟ قال: بالعدالة والفضل، قال: هو جارك الأدنى الذى تعرف مدخله ومخرجه فى ليله ونهاره؟ قال: لا. . قال عمر: فرافقك فى السفر الذى يستدل به على مكارم الأخلاق؟ قال: لا. قال: لست تعرفه). . كما أنه لا تجوز شهادة ساكن القرية على من يسكن فى المدينة لقول الرسول ﷺ: (لا تجوز شهادة بدوى على صاحب قرية) [رواه مسلم فى صحيحه]. . والشهود كما قال الله تعالى: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. (تضل إحداهما، أى: تنسى جزءًا من الشهادة فتذكرها أختها وتنبهها إذا غفلت ونسيت لأن المرأة مشغولة دائمًا ببيتها وأولادها ومصالحها). وإذا عجز أحد الطرفين

عن الإتيان بالشهود فإن الإسلام لم يترك الأمر هكذا تضيع الحقوق على الناس وإنما حدد الرسول ﷺ المعايير ووضع الضوابط حتى لا يتفلت الناس.. روى البخارى ومسلم عن الأشعث بن قيس قال: (كان بينى وبين رجل خصومة فى بئر فاختصمنا إلى رسول الله ﷺ فقال: (شاهداك أو يمينه) فقلت: إنه يحلف ولا يبالى.. فقال: (من حلف على يمين يقتطع بها مال امرئ مسلم لقى الله وهو عليه غضبان)، وأخرج مسلم أن النبى ﷺ قال للكندى - وهو رجل اختصم إلى رسول الله ﷺ - فقال له: (أَلَكَ بيِّنة؟ قال: لا. قال: فلك يمينه. فقال: يا رسول الله الرجل فاجر لا يبالى على ما حلف وليس يتورع من شىء.. فقال: ليس لك منه إلاّ ذلك). ولقد حدد الرسول ﷺ اليمين التى يحلف بها المدعى عليه حيث جاء فى الحديث الصحيح: «من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت» كذلك حلَّف النبى ﷺ رجلاً فقال له: (احلف بالله الذى لا إله إلا هو ما له عندك شىء).

لِمَ ذلك؟

إن الإسلام رسم هذه الخطوط وحدد هذه المعالم لأنه منذ مطلع فجره وإشراق نوره له صيحة مدوّية فى آفاق الدنيا ليسمعها كل الناس (الإسلام الذى حمل رسالته إليكم نبى كريم ورسول عظيم يقدس حق الإنسان فى هذه الحياة وينبه الناس جميعًا إلى أن ينشروا السلام بينهم لأنه من المبادئ التى عمّق الإسلام جذورها فى نفوس المسلمين لذلك أصبح السلام جزءًا من كيانهم والإسلام يحب الحياة ويحبب الناس فيها من هنا فهو يحررهم من الخوف وينشر عليهم مظلة الأمن والاستقرار. ولفظ الإسلام مأخوذ من مادة السلام لأن السلام والإسلام يلتقيان فى توفير الأمن والسكينة للناس جميعًا، من هنا كان رب هذا الدين من أسمائه الحسنى (السلام) فهو سبحانه يؤمن الناس بما شرع من مبادئ وبما رسم من خطط ومناهج ثم إن تحية المسلمين فيما بينهم السلام لأنها كلمة تقوى العلاقة بين الإنسان وأخيه وتؤلف القلوب، يقول الله تعالى: ﴿**وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا**﴾ [النساء: ٩٤].. ويقول الرسول ﷺ: «إن الله جعل السلام تحية لأمتنا وأمانًا لأهل ذمتنا» ولقد دخل رجل على رسول الله ﷺ وأراد أن يتكلم قبل السلام فقال الرسول ﷺ: «السلام قبل الكلام» وقد رغّب الإسلام فى السلام لأنه اسم من أسماء الله ثم هو اسم لدار الأمن مستقر الصالحين يوم القيامة ﴿**وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ**﴾ [يونس: ٢٥]، ﴿**لَهُمْ دَارُ**

السَّلامِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢٧]، إلى غير ذلك من الأشياء العظيمة التى رغّبنا فيها الإسلام بأن نتمسك بالسلام لأنه من القيم الرفيعة وفيه يستطيع الإنسان أن يجد أمنه ثم بعد ذلك يفكر ويبتكر فى تحسين العلاقة بينه وبين الناس جميعًا فالإسلام ما جاء إلاّ ليجمع القلوب ويضم الصفوف مستهدفًا إقامة كيان موحد ليكون هذا الكيان قادرًا على تحقيق الغايات السامية والمقاصد النبيلة والأهداف الصالحة التى جاءت بها رسالة الله على يد النبى العظيم الذى يحدثنا القرآن عنه وهو يقول له: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾** [الأنبياء: ١٠٧]، ويقول هو عن نفسه «إنما أنا رحمة مهداة».

إن المؤمن إلفٌ مألوف وهو قوة لأخيه يحس بإحساسه ويشعر بشعوره فيفرح لفرحه ويحزن لحزنه ويرى أنه جزء منه والإسلام يدعم هذه الروابط ويقوى هذه العلاقة بالدعوة إلى الاندماج بمحبة وسلام فى الجماعة فإن يد الله معها وهى رحمة، ففى حديث رسول الله ﷺ: «الاثنان خير من واحد والثلاثة خير من الاثنين والأربعة خير من الثلاثة فعليكم بالجماعة فإن الله لن يجمع أمتى إلاّ على الهدى».

إن هذه الروابط والصلات بين أفراد المجتمع تتميز بأنها قابلة للنماء والبقاء لأنها أقوى من رابطة الدم واللون واللغة وهذه الروابط من شأنها أن تجعل بين المسلمين تماسكًا قويًا وتقيم منهم كيانًا عظيمًا وصدق رسول الله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»، ويقول: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى». على هذه الأسس القوية قام المجتمع الإسلامى.. مجتمع يعرف العدل ويحكم به ويدعو إلى السلام ويتمسك به وينظم العلاقة بين الفرد والجماعة وبين الناس جميعًا إعمالاً لقول الله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾** [النساء: ١].. فالناس جميعًا متشابكون وإن اختلفت لغتهم وتباعدت أوطانهم.. ومما يذكر فى هذا المجال.. أن رجلاً دخل على أمير المؤمنين (معاوية بن أبى سفيان) وقال له: يا معاوية أسألك بحق الرحم التى بينى وبينك أن تعطينى مالاً.. فنظر إليه معاوية وقال: تسألنى بالرحم التى بينى وبينك.. قال له: نعم. قال: أى رحم بينى وبينك يا رجل؟ أأمى من قبيلتك؟ قال: لا. قال: أمك من قبيلتى؟ قال: لا. قال: هل أختى أو ابنتى تزوجت عندكم؟ قال: لا. قال: أختك أو

ابنتك تزوجت عندنا؟ قال: لا. قال: فأى رحم إذًا تسألنى بها؟ قال: أسأل بحق رحمنا أمنا حواء. قال معاوية لجلسائه: لقد سألنى بالرحم التى يجب أن توصل ولا تقطع أعطوه حتى يرضى. لهذا تجد أن المجتمع المسلم يعيش فيه غير المسلم فيجد الأمن والعدل والمساواة ونفصِّل ذلك فنقول:

علاقة المسلمين بغيرهم

المسلم يحب السلم والسلام ولذلك فهو يتعايش مع الكون كله فى تناغم وحب وأُلفة وتعارف وتعاون وبر ثم يتبادل مع غير المسلمين المصالح وتقوية الصلات الإنسانية.. فأهل الذمة.. وهما النصارى واليهود.. حتى الكفار أباح الإسلام لنا زيارتهم وعيادة مرضاهم.. وتقديم الهدايا لهم والبيع والشراء لهم ومنهم، قال صاحب البدائع: (والذين يسكنون فى أمصار المسلمين يبيعون ويشترون لأن عقد الذمة شرع ليكون وسيلة لإسلامهم وتمكينهم من المقام فى أمصار المسلمين أبلغ فى هذا المقصود) وليس لنا أن نكرههم على الدخول فى الدين، يقول الله تعالى: ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾ [البقرة: ٢٥٦]. ولهذا فإن السياح الذين يأتون إلى بلادنا لهم عقد الذمة لأن التأشيرة التى صدرت لهم من السفارة هى بمثابة عقد بيننا وبينهم والعقود تحترم ويجب الوفاء بها عملاً بقول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ**﴾ [المائدة: ١].. ويقول أيضًا: ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ**﴾ [التوبة: ٦].. وهناك أهل الكتاب، فهؤلاء جميعًا قرر الإسلام المساواة بينهم فى التعامل فلهم ما للمسلمين من حقوق وعليهم ما على المسلمين من واجبات وكفل لهم حريتهم الدينية ولهم أن يمارسوا شعائر دينهم فلا تهدم لهم كنيسة ولا يكسر لهم صليب. يقول الرسول ﷺ: «اتركوهم وما يدينون».. هذا هو أصل التعامل علاقة لا تتبدل بل ثابتة بنص قول الله تعالى: ﴿**لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ [الممتحنة: ٨].. وقد أباح الله لنا أن نأكل طعام أهل الكتاب وأن نتزوج بنسائهم، يقول الله تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [المائدة: ٥].

القرآن عندما حدد العلاقة بين المسلم وغيره حذرنا من الفئة التى تعمل على هدم هذه العلاقة الطيبة وإظهارهم العداوة للمسلمين وإعلانهم الحرب علينا. . والحرب إما تكون:

١ ـ حرب سلاح.

٢ ـ حرب إشاعات.

٣ ـ حرب إعلام. . وفكر. . وثقافة.

إذا كانت الحرب اقتصادية أو سياسية أو ما شابه ذلك مما ذكرناه فيجب أن تكون المقاطعة فوراً، وقد حذر الإسلام من موالاة هؤلاء الأعداء ومناصرتهم ومن يتعامل معهم من وراء ظهر الحاكم وبدون علمه فهو لا يربطه بالدين رباط ولا بالوطن علاقة ويطرد من رحمة الله لأن هذا الأسلوب فيه خيانة وهو الذى تعامل به المنافقون من قبل، وقد أنزل الله فى هذا الشأن: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا * وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا * الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٣٨ ـ ١٤١]. إن حكم القرآن واضح فى الذين يتعاونون مع أعداء الإسلام وأعداء الوطن ومن يمشى فى هذا الخط فقد خان الله ورسوله ولم يرع حق الوطن والمسلمين وهؤلاء الخونة الذين يتعاونون مع أعداء البلاد بتصرفهم هذا قد باعوا أنفسهم للشيطان وسجلوا على أنفسهم الخزى والعار خزى الدهر وعار الأبد.

* * *

الفصل الرابع
حقــوق الأفـــراد

يتـميز الإسـلام عن غيـره من النظم الأخـرى بأنه منذ تكونت دولته وبرز إلى الـوجود مجتمعه انفـرد بتنسيقه بين شئون المادة وشئون الروح وانطوت تعليمـاته على مبادئ أساسية فى التنظيم الاجتمـاعى ليكون الشعور بالسلام والطمأنينة وينشأ هذا عـن تحديد العلاقة بين الفرد ونفسه وبين الشـخص والشخص وبين الإنسان وأسرته ثم يتبلور ذلك لتـتضح العلاقة بين الفـرد والدولة تحت مظلة العدالة الاجـتمـاعيـة لأن المجتـمع المتوازن يتكون مـن أفراد متـوازنين فلا توازن لمجتـمع يعيش أفـراده فى قلق نفسى أو اضطراب روحى ولهـذا كانت تكاليف الأديان السماوية موجهـة أولاً إلى الأفراد، ولقد طبق الرسول ﷺ ذلك عمليًا عند بدء الرسالة فقـد اهتم أولاً ببناء الفرد على أساس قوى من العـقيدة الصحيحـة والانضباط على القيم السلوكية الأخلاقية العالية.. والمحافظة على شعائر الله.

والإسلام فى كل تشريعاته وتوجيهاته لا يتـجاهل الفرد أبدًا مع أن الإنسان عرضة للتأثر بالنزعة الفردية أحـيانًا وبالنزعة الاجتماعـية كذلك وهذا أمر مركوز فى طبـيعة الإنسان.. ولذلك تعامل الإسلام معه على هذه الأسس.. فالإنسان تـتغلب عليه النزعة الفردية أحيانًا ويريد أن يمارس حـريته ويرضى غريـزته ويستجـيب لغروره ويشـبع كل ما فـيه من مـيول ورغبـات والقرآن هـنا يعتـرف بهـذا ويقـول: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران: ١٤].
والقرآن وهو يؤكـد على ذلك يلفت نظر الإنسان إلى أن كل هذه الأشياء مـتاع زائل وشىء لا يدوم فيـقول سبـحانه: ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٤]. إذًا فـهناك أحسن وأجمل وعلى الفرد أن يقيم التـوازن والاعتدال والتوسط مع نفسه هو فيـقول الله مبيِّنًا له: ﴿وَاللَّهُ عِنـدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِيـنَ اتَّقَوْا عِنـدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيـهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيـرٌ بِالْعِبَادِ * الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * الـصَّابِرِينَ وَالـصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنـفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِيـنَ بِالأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٤ ـ ١٧].

إن الإسـلام دين واقعى يعـايش الناس على أرض الواقع ويحـرص على إطلاق جمـيع الطاقات الفردية فى الإنسان دون إفراط أو تفريط.. لهذا يقول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾

[الأعراف: ٣٢].

ويقول سبحانه: ﴿وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧].. فى نفس الوقت نرى الإسلام يوجه المسلم إلى أهمية الناحية الروحية حيث يتسامى ويتعالى على غرائزه ويتعلم الجود والكرم والسخاء والعفة فيقول له: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ﴾ [القصص: ٧٧] وإنها للفتة رائعة أن الإنسان كما يبنى جسده بالغذاء الجيد والهواء الطلق والرياضة عليه كذلك أن يجاهد نفسه الأمّارة بالسوء ولا يجعل للشيطان عليه سلطانًا.. والإسلام وهو يحث على ذلك ويشجعه ينكر عليه المبالغة فى العبادة كذلك لأن التوازن أمر مطلوب فالذين سلكوا مسلك الرهبان وحرموا أنفسهم من طيبات الحياة عاب الله عليهم لهروبهم من تحمل المسئولية فى بناء الأسرة فقال الحق سبحانه: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧].. ولقد أنكر الرسول ﷺ على بعض أصحابه الذين قالوا سنصوم الدهر كله وسنتهجد طول الليل ولن نتزوج النساء، لذلك أعلن على الناس كلهم قوله ﷺ: «أما إنى لأصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى» والذى يتبين أن الحرية التى منحت للإنسان مقيدة بمصلحة الجماعة العليا فجميع الأفراد فى المجتمع يركبون سفينة واحدة ليس لأى أحد أن يخرق أى خرق فى السفينة باسم الحرية وإنما هناك الانضباط على حق الجماعة كل فرد مطالب به فالإسلام يعمل على ضبط الإرادة فى الإنسان لتنشأ من هنا مسئوليته ومن ضبط الإرادة ينشأ الضمير الحى الواعى لهذا يقول الرسول ﷺ: «مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على من فوقهم فقالوا لو أنّا خرقنا فى نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا» [رواه البخارى]، ويقول أيضًا عليه الصلاة والسلام: «لا تكونوا إمّعة تقولون إن أحسن الناس أحسنا وإن أساؤا أسأنا ولكن وطّنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا أن تحسنوا».. إن الإسلام عندما فرض العبادات على المؤمن كان فى ثناياها الأعمال الاجتماعية التى تعود النفوس على الخير وتوطنها على أحسن الأعمال والأخلاق فالصلاة صرفٌ لإرادة الإنسان إلى العمل الجاد وضبط الوقت والبعد عن الاشتغال باللهو والعبث: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]، والصيام تحكّم الإنسان فى ضبط غرائزه عن الطعام والشراب وغرائز الجنس والزكاة قهر النفس بإخراج

جزء من المال امتثالاً لأمر الله وتذكيراً بحق الفقير على المجتمع، إذاً فالإرادة فى الإنسان هى الفارق القوى بينه وبين الحيوان وهى مناط المسئولية على الفرد أمام المجتمع.

الحسبة والمحتسب

الحسبة هى أمر بمعروف ونهى عن منكر والمحتسب هو الذى يقوم بهذا العمل معيناً من الدولة أو يتطوع بها إن شاء.. ولما كانت هذه الوظيفة مأجور عليها براتب يقبضه من بيت المال فليس له أن يتشاغل عنها.. لأنها مسئولية اجتماعية على الفرد والجماعة لأنها تضمن استمرار التوازن الاجتماعى.. والمعروف ما تستريح له العقول السليمة والفطر النقية.. والمنكر ما تنكره تلك العقول.. يقول الماوردى: المحتسب وظيفة (للأمر بالمعروف إذا ظهر تركه والنهى عن المنكر إذا ظهر فعله) وابن خلدون يقول فى مقدمته يجمل أعمال المحتسب فيما يأتى:

(يبحث عن المعكرات ويعزر ويؤدب على قدر ما ارتكبه الإنسان من منكر ويحمل الناس على المصالح العامة فى المدينة.. مثل.. المنع من المضايقة فى الطرقات.. منع الحمّالين وأهل السفن من الإكثار من الحمل.. والحكم على أهل المبانى المتداعية للسقوط بهدمها وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة.. والضرب على أيدى المعلمين فى المكاتب وغيرها عند الإبلاغ فى ضربهم للصبيان المتعلمين.. ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداء بل له النظر والحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك وما يرفع إليه).

ويمكن تحديد اختصاصات المحتسب فى ثلاثة أنواع:

١ - يتعلق بحق الله.. ويكون فيه: أ - الإشراف على إقامة صلاة الجمعة.. ومنع الأئمة من الإطالة فى الخطبة.. كذلك صلاة الجماعة وزجر من يتركونها ومنع الإفطار فى رمضان ومنع التسول فى الشوارع والتصدى للجهلة الذين يفتون فى أمور الدين. ب - منع البيوع الفاسدة كالخمر والخنزير والميتة والدم.. وكذلك منع التعامل بالربا ومنع الغش فى المبيعات ومنع التدليس فى الأثمان والنقص فى المكاييل والموازين. جـ - منع الناس من مواقف الريبة «على النواحى أو الأماكن المظلمة» كذلك عدم مخالطة النساء فى الطرقات وتأديب السكران أو الذين يلعبون القمار.

٢ - أمور تتعلق بحقوق العباد: أ - مطاردة المماطل فى أداء الحقوق وأداء الديون والقبض عليه. ب - كفالة من تجب كفالته من الأيتام وأصحاب العاهات والفقراء. جـ - التصدى لمن يعتدى على جاره ويسىء إليه.

٣ ـ أمور تتعلق بالخدمة العامة: أ ـ مراقبة الأسواق والطرقات العامة. ب ـ مراقبة تعطل مرافق البلاد المتعلقة بالإنارة والمياه والصرف الصحى وتهدم الأسوار. جـ ـ مراقبة فتح المساجد والقيام بأداء الشعائر. د ـ تكليف أرباب البهائم بإطعامها وعدم تحميلها فوق طاقتها كذلك أصحاب السفن عدم تحميلها فوق قدرتها ومراقبة سير السيارات إلى غير ذلك من الأمور التى تعمل على راحة الناس وتهدئ من خواطرهم ليعيشوا جميعًا فى أمن واستقرار.

كرامة الإنسان

إن الإسلام بما أنشأه من نظم ووضع من قواعد الغرض من ذلك (احترام إنسانية الإنسان ليظهر خصائصه فى المجتمع) لأن الله سبحانه وتعالى خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وسخَّر له ما فى السموات وما فى الأرض وجعله خليفة عنه وزوّده بالقوى والمواهب ليسود الأرض ويصل إلى أقصى ما قدِّر له من (كمال مادى وارتقاء روحى) والإنسان لا يستطيع أن يحقق أهدافه ولا يبلغ غايته إلا إذا توفرت له جميع عناصر النمو وأخذ حقوقه كاملة لأنه سيدٌ على هذا الكوكب استخلفه الله لعمارته وإصلاحه والحقوق التى كفلها الإسلام للإنسان هى:

١ ـ حق الحياة.. فلا يحل الاعتداء على الإنسان إلاّ إذا خرج هو على حدود حريته فقتل غيره أو هتك عرضًا أو أفسد فى الأرض مما يوقعه تحت طائلة المساءلة وتطبيق قانون الحرابة عليه.. ولا يجوز له هو نفسه أن يقتل نفسه (ينتحر) لقول الله تعالى: **﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾** [النساء: ٢٩]، والرسول ﷺ يقول فيما رواه البخارى: (لا يحل دم امرئ مسلم يشهد ألا إله إلا الله وأنِّى رسول الله إلاّ بإحدى ثلاث.. الثيب الزانى والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة) [رواه البخارى].. ذلك لأن قتل أى إنسان هدم لبناء إرادة الله وسلب لحياة المجنى عليه واعتداء على عصبته الذين يعتزون بوجوده وينتفعون به ويُحرمون بفقده العون.. لذلك قال رسول الله ﷺ: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق» [رواه ابن ماجه].

ويقول أيضًا: (ولو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا فى دم مؤمن لأكبهم الله فى النار) [رواه الترمذى].

وقد اعتبر الإسلام أن من قتل نفسًا أو شارك فى المؤامرة على قتله فهو كمن قتل الناس جميعًا وذلك لعظم أمر الدماء وشدة خطورتها قال الله تعالى: ﴿أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]. .
وقد روى البخارى أن رسول الله ﷺ: «قال الذى يخنق نفسه يخنقها فى النار والذى يطعن نفسه يطعنها فى النار والذى يقتحم يقتحم فى النار» يقتحم، أى: يرمى نفسه من مكان عالٍ.

إن الإسلام يحب الحياة ويقدسها. . لذلك دعا إلى السلام وجعله من المبادئ التى عمّق الإسلام جذورها فى نفوس المسلمين وأصبح السلام جزءًا من كيانهم وعقيدة من عقائدهم. . لذلك حبب الناس فى الحياة وحررهم من الخوف ورسم لهم الطريقة المثلى لتتعايش الإنسانية تحت راية السلام متجهة إلى غاياتها من الرقى والتقدم. . لهذا كان السلام تحية المسلمين تُؤلف بين قلوبهم وتقوى الصلات بينهم وتربط الإنسان بأخيه الإنسان لأن دينهم هو دين الأمن والسلام. . لهذا قال الرسول ﷺ: (إن الله جعل السلام تحية لأمتنا وأمانًا لأهل ذمتنا)، ويقول أيضًا: (السلام قبل الكلام)، وسبب ذلك أن السلام أمان. . ولا كلام إلاّ بعد الأمان. . والإسلام لا يقف عند حد الإشادة بهذا المبدأ فحسب وإنما يجعل العلاقة بين الفرد وغيره وبين الأسر والعائلات بل وبين الدول سواء فى ذلك أكانت علاقة الدولة الإسلامية بدولة إسلامية أم علاقة دولة مسلمة بدولة غير مسلمة. . هذه العلاقة قائمة على التعاون والتآلف، علاقة جوار، بلا بغى ولا حرب. وإنما أمن وسلام.

علاقة المسلم بالمسلمين

الإسلام أشاد بالسلام ليتعايش الإنسان فى أمن وأمان مع أخيه لأن الإسلام يستهدف إقامة كيانٍ موحد يذب عنه عوامل الفرقة التى تؤدى إلى الضعف والهزيمة والغرض من هذا الكيان الموحد. . القدرة على تحقيق الغايات السامية والمقاصد النبيلة والأهداف الصالحة التى جاءت بها رسالة الإسلام الخاتمة العالمية. . ليتمكن الفرد من عبادة ربه فى ظل كيان اجتماعى تعلو فيه راية الحق ويطبق العدل ويسود الخير مجتمع الناس ليتعرف الناس على المبادئ والنظم التى بعث الله بها الأنبياء.

إن الإسلام عندما نهى عن قتل الإنسان إلاّ إذا ارتكب ما يؤدى إلى إعدامه وإزهاق روحه. . لأنه أصبح مصدر فساد وإفساد ونشر الرعب بين الناس حيث يعتدى على كرامة

الأفراد فيهـتك العرض أو يسرق المال. . فالإسلام هنا يقول للجـماعة المسلمة. . هذا الذى أصبح جرثومة خبيثة اقتلوه ولا تأخذكم به رأفة وبأمثاله. . لأن يد الله مع الجماعة. . ومن شذّ. . شذّ فى النار. . إن الجـماعة مهمـا صغرت فهى على أى حال خـير من الوحدة. . لأنها المتنفس الطبـيعى للإنسان فالاثنان خـير من الواحد والثلاثة خيـر من الاثنين والأربعة خير من الثلاثة فعليكم بالجماعة لنحـمى الفرد فى ظل الجماعة. . ونحمى الجماعة فى ظل ضميـر الفرد اليقظ. . ولهذا كـان الرسول ﷺ يحرص على أن يجتمع المـسلمون حتى فى المظهر الشكلى. . وهو أن لا يجلس الناس كل واحد فى حال سبيله. . ليست هناك شورى متـبادلة. . لكنهم إذا جلسوا مع بعـضهم وتكلموا وتشـاوروا فسيكون من وراء ذلك خـير كثير. . لهذا كانت الجماعة هى القوة التى تحمى دين الله وتحرس دنيا المسلمين. . لهذا يقول الله تعـــالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة: ٧١]. . إن طبيعة الإيمان تجمع ولا تفرق. . لأنـها رابطة أقوى مـن رابطة الدم واللون واللغة والوطن والمصـالح المادية. . لهذا قـال رسول الله ﷺ: «المؤمن للمـؤمن كالبنيـان يشد بعـضه بعـضًا»، ويقول: «مَثَل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمـثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسـهر» ولن تصل الجماعة إلى تحقـيق هذا الكيان وهذه الأخوة إلاّ إذا بذل لها كل فرد من ذات نفـسه وذات يده. . ومن تفكيره وعقله. . وكان عـونًا لها فى كل أمر من الأمور التى تهمها سواء أكانت هذه المعاونة بالمال أو العلم أو الرأى والمشورة. . فالناس كلهم عيال الله أحبهم إلى الله أنفعهم لعـياله. . لأن الله سبحانه يحب إغاثة اللهفان. . إن الأصل فى العلاقات الإنسانية بين الفرد وغيره علاقات صنعها الله فهو الذى ألَّفَ بين قلوب المسلمين تفـضلاً منه ورحمـة، ولهذا كان مـن مقتـضيات هذه العـلاقة. . تبـادل المصالح واضطراد المنافع لذلك أكـد الإسلام على أن علاقـة المسلم بغير المسلـم يجب أن تقوم على العدل والتـعاون وتبادل المصـالح لأن الإسلام صان حـقوق غير المسـلمين فى داخل الكيان الإسلامى وحمى كـرامتهم وجعل لهم من الحرية مـا يتمكنون بها من التحـرك فى المجتمع يبيعون ويشتـرون. . يزرعون ويتاجرون. . يتعلمون ويعملون فى الأمـور الوظيفية. . ولقد أباح الإسلام لكل مسلم زيارة غير المسلم وتقديم الهدايا لهم وعلى المسلم أن يزور مرضاهم ويشـيع موتاهم ويأكل مـن طعامـهم. . ولا تُراق لهم الخمـور التى عندهم ولا يُقـتل لهم خنزير. . وعلى الحاكم أن يؤدب أحـدهم لو تطاول على الكيان الإسلامى أو اعـتدى على

كرامة مسلم وأن يُطبق عليهم قوانين المجتمع لأنهم جزء من هذا الكيان فلا يجوز لأحدهم الخروج عليه.

إن الإسلام بعد أن أشاد بمبدأ السلام ومنح الإنسان حق الحياة وأمر باحترام هذا الكيان بقطع النظر عن جنسه ولونه ودينه ولغته ووطنه وقوميته ومركزه الاجتماعى وضع المبدأ الثانى وهو.

٢ ـ حق الحرية.. فإن الإسلام لم يكتف بتقرير صيانة النفس وحمايتها بل أقر حرية العبادة وحرية الفكر وحرية اختيار المهنة التى يمارسها لكسب عيشه وحرية الاستفادة من جميع مؤسسات الدولة.. إن الإسلام أعلن بصريح القول أن الفرد حُر بحيث إن هذه الحرية منضبطة على قيم الحق وأدب الجماعة والعرف السائد فمثلاً إذا جاء إنسان وأعلن الخروج عن عقيدة الإسلام هنا نقول هذه رِدَّة ـ وجزاء المرتد القتل.. ذلك لأنه أعلن على الملأ عدم اعترافه بالإله.. بعد أن آمن به.. فإن قال هذه حريتى قلنا له.. حريتك مصونة مع الانضباط على القيم الأخلاقية وما دمت قد خرجت على نظام المجتمع ولم تحترم مشاعر من حولك فجزاؤك هذا لأن الشريعة الإسلامية التى أباحت حرية الاعتقاد وعملت على صيانة هذه الحرية وحمايتها من التيارات الوافدة والمذاهب الهدامة.. كمن يعملون على إقامة حفلات لعبادة النار.. أو يقيمون صالات لشرب الخمر ولعب القمار.. أو يقومون بالإعلان عن الدعارة أو الشذوذ الجنسى فنقول لهم هذه ليست حرية لأنها خروج على دين الله واعتداء على حرية الآخرين وانتهاك للآداب العامة وتصدع فى بنيان الأمة وخروج على الواجب الذى يجب الالتزام به، لهذا ألزمت الشريعة الإسلامية الناس أن يحترموا حق الغير فى اعتقاد ما يشاء.. وفى تركه يعمل طبقًا لعقيدته وإن كان هناك ما يخالف عرف المجتمع وتقاليده فلتكن فى السر لا يعلم بها أحد وبعدم دعوة غيرك إلى هذا الخروج.. فإن عرف الحاكم فله أن يضع من النظم ما يتلاءم مع تأديب هذا الشخص الذى خرج على عرف المجتمع وعقيدته.. لأن الدولة الإسلامية لا تحاسب على السرائر والبواطن وإنما تحاسب على الظاهر والمعلن.

إن الإسلام لا يقبل أبدًا فى ظل المناخ الاجتماعى السليم الدعوة إلى اعتناق عقيدة مخالفة للعقيدة الإسلامية لأن الإسلام له شعائر تمارس فى المجتمع الإسلامى وتكون الدعوة فيه إلى الوحدة والتعاون والترابط والجهاد فى سبيل الله لنشر مبادئ الإسلام خارج حدود وطن المسلمين والدولة الإسلامية تحمى الدعاة ومن اعتنقوا الإسلام من أبناء الدول

الأخرى وهم ما نسميهم بالأقليات الإسلامية فهؤلاء على الدولة أن تعمل من جانبها على رعاية أمرهم والتفاوض مع الدول الأخرى عن طريق السفراء والدبلوماسية الإسلامية أن تسمح لهؤلاء بممارسة شعائر دينهم وتهيئة مذبح لهم ومقابر.. لأننا نعامل رعايا هذه الدولة على هذه الأسس ـ فلا إكراه لأحد على الدخول فى الدين ولهم أماكن عبادتهم مرعية مصانة ولهم قبورهم مُسَوَّرة مصانة ـ لهذا كانت الحرية التى كفلها الإسلام تحقق للناس الخير والسعادة والاستقرار.

٣ ـ حق صيانة المال.. لقد منح الإسلام الحرية للبشر فى أن يتملكوا ما شاءوا وهذا الحق ممنوح للإنسان.. مسلم أو غير مسلم.. فهو ممنوح للإنسان فى ظل الدولة القائمة على نظم الإسلام وعندما منح الإسلام هذا الحق حدد طرق الكسب المشروع ولكل شخص أن يمارس سائر المعاملات من بيع أو زراعة أو تجارة إلى غير ذلك من الأعمال التى تؤدى إلى كسب المال بشرط عدم ظلم الآخرين أو استغلال الأفراد استغلالاً سيئًا أو الاتجار فى أشياء يحرّمها الإسلام أو يكون من وراء ذلك غش البضاعة التى تطرح فى الأسواق أو يقوم التاجر باحتكار الأصناف التى تحتاجها الجماهير فإذا شحَّت من السوق وأصبح الطلب عليها طرحها بسعر عالٍ جدًا.. هنا يُلزِم الإسلام الحاكم أن يتدخل ليقيد حرية هذا الإنسان أيًا كانت هويته أو عقيدته لأن الحاكم يرعى مصلحة الأمة ويصون كيانها ويحفظ لها ما يحقق لها الأمن والصحة والسعادة.. وكما أن النفس معصومة لا يُعتدى عليها كذلك المال ما دام قد اكتسبه الإنسان من الطريق الشرعى والنظم التى كفلتها قوانين الدولة الإسلامية فلا يجوز لأحد أبدًا أن يأخذ من هذا المال الذى جمعه الإنسان وطهّره بإخراج الزكاة فالرسول ﷺ يقول: «من أخذ مال أخيه بيمينه أوجب له الله النار وحرّم عليه الجنة، فقال رجل: يا رسول الله وإن كان شيئًا يسيرًا، فقال الرسول ﷺ: وإن كان عودًا من أراك»، والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ**﴾ [النساء: ٢٩]. ويقول سبحانه: ﴿**وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ١٨٨].

٤ ـ حق المأوى.. المأوى هو المكان الذى يأوى إليه الإنسان ليسكن فيه.. والمسكن فى الإسلام له حرمته فلا يجوز دخول مسكن الغير من غير استئذان صاحبه بنص القرآن الكريم.. يقول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ**

﴿لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢٧، ٢٨].

وحرمة دخول السكن كما تنطبق على الفرد تنطبق على الحاكم ولعلنا نذكر قصة عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى كان يتحسس أحوال الرعية وعرف أن جماعة من وراء جدار يشربون الخمر.. وأراد ضبطهم وهم متلبسون فتسور الجدار ونزل فى وسط الجماعة وأراد أن يُقيم عليهم الحجة ليقيم عليهم الحد.. فقالوا له مهلاً يا ابن الخطاب.. إن كنّا أخطأنا فى واحدة فأنت أخطأت فى ثلاث.. أما الأولى فإن الله قال: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩] وأنت تسورت الجدار.. أما الثانية فإن الله قال: ﴿لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧]، وأنت دخلت بلا استئذان ولم تُسَلِّم، وأما الثالثة.. فإن الله نهى عن التجسس ﴿وَلا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢] وأنت قد تجسست علينا.. فأقر عمر بحجتهم وانصرف عنهم وتركهم. [يراجع كتاب النظام السياسى للأستاذ محمد المبارك.

إن الإسلام عندما منح مواطنيه.. سواء أكانوا من المسلمين أم من غيرهم حرية شخصية فى الإقامة والتنقل والسفر إلى الخارج واختيار المسكن الذى يأويه والعمل الذى يجيده فإنه قصد بذلك منح أى فرد حريته.. لكن هذه الحرية من حق الحاكم أن يحددها فى ظروف استثنائية معروفة أو لمصلحة عامة.. فإذا كان هناك من يسافر لجلب المخدرات فإن الحاكم يقيد حريته، وإذا كان هناك من يريد أن يحول بيته إلى مصنع خمر فإن الحاكم عليه أن يمنعه.. وإذا كان هناك من يتخذ من مسكنه مكانًا لإيواء الخارجين على أمن المجتمع أو الهاربين من تنفيذ عقوبة أو الذين يخيفون الآمنين فمن حق الحاكم أن يطاردهم حتى ولو هدم المسكن على رءوس مَنْ فيه، كل ذلك يتم بشرط أن يعلن الحاكم المبررات والأسباب التى دعته إلى فعل ما أقدم عليه.

٥ ـ حق العرض.. إن حق الحياة حق أساس للفرد يصونه الإسلام لكل الناس فى دولته وخارج دولته.. لهذا فإن جرائم الإخلال بالأمن العام أمر خطير جدًا على الحاكم أن يتدخل بكل قوته لمنع هذا الإخلال خاصة إذا كان هذا الإخلال فيه انتهاك لأعراض النساء.. لأنه كما نعلم.. أن الزنا جريمة خلقية فيها اعتداء على شرف الفتاة وإهدار لكرامة أهلها وخلق جو يتسم بالانحلال الخلقى وضعف الوازع الدينى ويتأتى من وراء ذلك اختلاط الأنساب وضياع الحقوق على أصحابها.. وإذا كان الإسلام قد حرّم انتهاك الأعراض حتى ولو بكلمة نابية فإن من شنّع على مسلم أو مسلمة فإن الإسلام يعاقبهم،

وقد قال الحق سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١١، ١٢].

إن الإسلام اعتبر انتهاك عرض الإنسان جريمة بشعة وحرّم ذلك على المؤمنين ولا يقتصر موقف الإسلام فى التحريم فقط بل يطالب بمعاقبة المعتدى عقابًا شديدًا، والعقاب ينزل على أى مجرم.. مسلم أو غير مسلم ما دام فى حماية الدولة وقد استظل الإنسان بمظلة الأمن الإسلامية والعقاب الذى ينزل بمثل هؤلاء يقول الله فيه: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٢].

إن الحدود التى وضعها الإسلام هى لحماية المجتمع.. وصيانته من العبث.. وقطع دابر المفسدين ولو أن المسلمين طبقوا حدود الله فى هذه الأيام فى مجتمعهم لأصبح لهم شأن عظيم وكيان اجتماعى دولى.. علمًا بأن الحدود لا تُقام إلاّ بأمر الحاكم لقول الله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣].

٦ ـ حق التعليم.. من الحقوق المقررة للإنسان فى المجتمع أن يأخذ حظه من التعليم لينير بذلك عقله ويرفع من مستواه.. والإسلام قرر حرية التعليم بشرط أن يكون التعليم فى حدود خدمة الدين والدنيا لأن طلب العلم فريضة على كل مسلم بل هناك توجيه بأن الإنسان يطلب العلم ولو بالصين.. وجعل الإسلام العلم وسيلة لمعرفة الله وفهم كتابه وطريقًا للخير واعتبر العلماء ورثة الأنبياء والإسلام يمنع من مصادرة الرأى ومحاربة الفكر الحر إلاّ إذا كانت الآراء ضارة بالمجتمع فإن من حق الحاكم هنا أن يتدخل ويصادر الآراء الشاذة والأفكار الهدامة حماية للمجتمع وصيانة لحقوق الأفراد.. وأول من دفع إلى تحصيل العلم والتعليم بل وتعليم الكبار ومحو الأمية هو سيدنا رسول الله ﷺ إذ جعل فداء الأسرى يوم غزوة بدر أن الأسير المتعلم يُعلم عددًا من أبناء المسلمين القراءة والكتابة.. كما حث الجار أن يعلم جاره وأفراد الأسرة الواحدة يعلم بعضهم بعضًا.. كما نبه على الأشعريين وجعل هذا العمل عبادة يتقرب بها الإنسان إلى ربه له على ذلك ثواب عظيم وأجر كبير.. لهذا اعتبر الإسلام أن المتعلم الساكت عن تعليم غيره شيطان أخرس وإلى هذا أشار الحق سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ

فِي الْكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

٧ ـ الحرية السياسية.. إن الإسلام وقد أعطى للإنسان حرية القول بحيث يقول ما يعتقد أنه حق ويدافع عنه بلسانه وقلمه.. وقد أعطى الإسلام للإنسان أن يبدى رأيه فى شئون الحياة العامة من تصرفات الناس.. وهو ما نسميه بالنقد.. بشرط أن يكون الغرض من هذا النقد تصحيح مسار الآخرين.. وعدم التشهير بأحد لأن الرسول ﷺ يقول: «الدين النصيحة.. قلنا لمن يا رسول الله.. قال: لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» كذلك يعطى الإسلام حرية للفرد ليشارك فى اختيار الحاكم إما عن طريق بيعة جمهور الشعب ورضاه بمن اختاره أو يكون ذلك عن طريق الانتخاب لأن المسلم فى الدولة مطالب بأن يشارك فى صنع القرار ولن يكون ذلك إلاّ إذا شارك الإنسان فى اختيار الحاكم لأن التهرب من الإدلاء بالرأى هو موقف سلبى والإسلام لا يقر السلبية فى حياة الناس ولا يرضى أبدًا أن تكون السلبية خلقًا من أخلاق المسلمين.. وكل فرد من أفراد الشعب يؤمن بالدين عليه أن يشارك فى بناء الدولة وصيانة مرافقها والإسهام بالرأى فى كل ما من شأنه أن يسمو بالأمة وأن يكون الفرد مع الجماعة مشاركًا ومعاونًا، ففى الحديث عن رسول الله ﷺ: «من لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم ومن لم يمسِ ويصبح ناصحًا لله ولرسوله ولكتابه ولإمامه ولعامة المسلمين فليس منهم» [رواه الطبرانى].

إن الإسلام وضع من النظم فى منح الفرد هذه الضمانات تكون بالأساليب المشروعة ونهى الإسلام عن التأثير على الرأى العام بالكذب أو أساليب غير مشروعة، لأن سياسة الكذب والخداع لا تدوم ويكون من ورائها تصدع الجبهة الداخلية.. وانهيار البنيان الاجتماعى أما سياسة المناصحة ومجانبة الغش والخداع وإرشاد الناس إلى مصالحهم وتعليمهم أمور دينهم ودنياهم ونصرتهم في الحق وقضاء المصالح لهم بأيسر الطرق كل ذلك يؤدى إلى التماسك والقوة والتعاون.. لهذا كانت العلاقة بين الحاكم والمحكوم فى الإسلام علاقة توجه الأفراد إلى طاعة الحاكم فيما أمر والابتعاد عما نهى لأن الحاكم وصل إلى مكانه برضاء الجمهور واختياره وهذا الحب المتبادل بين الحاكم والمحكوم يؤدى إلى سير دولاب العمل فى المجتمع بانتظام وتحقيق الصالح العام.. والمواطن الذى يشارك فى العمل السياسى باختيار ممثليه فى مجلس أهل الحل والعقد (مجلس الشعب) أو (مجلس الشورى) إنما هو رمز ضمان لأمن المجتمع وسلامته.. ولهذا قال الرسول ﷺ: «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتُصلّون عليهم ويصلّون عليكم وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم

ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم . . قال أحد الصحابة: يا رسول الله أفلا ننابذهم عند ذلك؟ قال الرسول ﷺ: لا . . ما أقاموا فيكم الصلاة . . إلاّ من ولى عليه والٍ فرآه يأتى شيئًا من معصية الله فليكره ما يأتى من معصية الله ولا ينزعن يدًا من طاعة» [أخرجه مسلم]. والإنسان المسلم وهو يشارك فى العمل السياسى لا يجرح شعور غيره ممن يخالفه فى الاتجاه الحزبى. لأن كل شخص يعرض مبادئ حزبه الإصلاحية والجمهور له أن يختار . . أما استعمال القوة والتشنيع والتجريح والإساءة إلى من يخالفنى فى الرأى السياسى فهذا أمر مرفوض لا يقره الدين ولا يرضى به إنسان على خلق لأن التجريح والتشنيع أمور تؤجج العداوة بين الناس وهذا أمر يسيىء إلى المجتمع، لهذا قال الرسول ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار . . قال أحد الصحابة . . يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصًا على قتل صاحبه» [أخرجه البخارى].

إن من المؤكد أن الذى يرشح نفسه للعمل السياسى . . إنه يتحمل المسئولية الكاملة لخدمة المجتمع . . وليس من المعقول أن الإنسان يعرض نفسه للخدمة العامة وفى أول خطوة يضرب الناس بعضهم بعضًا بسببه وتتأجج نار العداوة من أول لحظة يضع نفسه فيها على أول الطريق . . وإذا كان الناس لا يفهمون أن العمل السياسى خدمة وتطوع فعلى المرشح أن يعرفهم بذلك وأن يقول لأتباعه وأنصاره نريد أن نكون مصدر خير وسعادة لكل الأفراد لأننى إن فُزت فسأخدم عدوى قبل صديقى ونريد نحن أن نكون قدوة ليقتدى بنا الآخرون ثم أننا أهل بلد واحدة مسجدنا واحد وقرآننا واحد ونبينا واحد، ونحن جيران . . والاختلاف فى الرأى لا يفسد للود قضية فعلاما التناحر . . لقد عشنا أيامًا رأينا أن الانتخابات تفرق بين الصديق والصديق بل بين الأب وولده مما أدى إلى تأخر المجتمع بسبب تناحره . . ولا شك أن للنظام الاجتماعى أهمية كبرى لا يتيسر لنا إقامة النظام الاجتماعى إلاّ فى حمى النظام السياسى لأن به يتمكن المجتمع من حماية الآداب الإسلامية والضرب على يد مخالفيها وبالنظام السياسى يوجد النظام الاقتصادى الذى يمهد للمسلمين فرص العمل والكسب والحياة الكريمة . . وقد قال الإمام البخارى فى صحيحه (إن الإيمان فرائض وشرائع . . وحدودًا وسُنَنًا . . من استكملها فقد استكمل الإيمان ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان) والشرائع الإسلامية هى النظم الاجتماعية التى تنظم الجماعة وتزودها بالقواعد التى تمنع الخلاف وتحسمه عند وقوعه وهى ضرورية لإقامة المجتمع على الإيمان . .

لهذا كان من عناية الإسلام تربية الفرد تربيــة ذاتية تؤدى فى النهاية إلى التكوين الاجتماعى العام للإنســان على مناهج الإيمان والتعــايش فى جو صحى يتنافس فـيه الأفراد على مـبدأ الأخوة فمن فاز من المرشـحين هنأناه ومن خانه التوفيق لم ينطوِ على نفســه ولم يبتعد عن الساحــة ولم يعتزل الجـماهيـر وإنما هو يؤمن بأن الخدمة العــامة تؤدى فى أى مـوقع ولها مجالات مـتعددة ولا ضيـر عليه لأنه خرج من المعـركة وقد التزم بقـيمه الإيمانية وتقــاليده الإسلامــية هذا ومــسئـولية الدولة أنهــا تحول دون التـزوير أو الغش أو الخداع فـإن عرفت وسكتت فإن غـضب الله نازل على هذه الأمة التى تقلب موازين الحق وتغيـر رأى الشعب وتأتى بمن لا يستحق. . لذلك فهو لا يؤدى خدمة اجتماعية عامة وإنما يؤدى مصالح فردية يرضى بها من أسهموا له فى التزويـر وشجعوا على قلب الحقائق لكن ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ إن حقوق الإنسان على المستوى الدستورى أمر كفله الإسلام منذ لحظة نزوله ـ لأن الفرد هو الشـخص الدولى الأول فى النظام الإسلامى. . والإسلام دين الإنـسانية جمـعاء وضع حمــاية لحرية كل شخص وصان كـرامته وأبرز كيــانه الذاتى ـ فالحقوق التى منـحها الإسلام لا غنى عنها ليقوم الفرد فى المجتمع وهو يشعـر بكيانه وكرامته الشخصية. . وحق الانتخاب له حق أصيل لا يجوز أن يتراجع عنه ولا يتنازل لأنه عندما يدلى بصوته فقد أدى شــهادة للحق وقـد قال الله عنهــا: ﴿لَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ وبيّن الإسلام أن الإنـسان إذا لم يمارس حقه السياسى التى هى تكاليف ومسئوليات فقد خان الأمانة وكتم الشهادة، وقد قال الله تعــالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البـقـرة: ٢٨٣]، كما قال الحق سـبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

إن ممارسة هذه الحقوق مرقومة بجزاء عملى وهـو (الحسبة) علمًا بأن الشريعة الإسلامية تمنح الفرد ولايات عامة واختصاصات مباشرة فى دائرة اختصاصاته ونطاق عمله وبما يحقق الأمن للمجتمع والمحافظة على النظام العــام وبما يؤسس علاقة المحبة بين الأفراد لأن الناس سواســية كأسنان المشط، لا فـضل لعربى على أعجـمى إلاّ بالتقوى. . والقــاعدة الشعبـية تتكون من الأمة كلها وهذه القاعدة فى حقيقتها كيان واحد لأن التماسك بين أعضاء القاعدة من أهم مقومات النظام الذى يحفظ للدولة استـقلالها ويسد الباب فى وجه أى طفيلى يريد أن ينشر الفوضى ويهدد النـظام لأنه من المتعارف عليه فى الإسلام أن القاعدة الشـعبية لابد أن تتعاون مع السلطة الحاكمة لاستتباب الأمن والنهوض بمرافق الدولة العامة حتى لا تكون

فتنة ويتصدع المجتمع وينهار. ويضيع الحق وينشر الفساد.

إن الإسلام دين ودولة.. عقيدة وشريعة.. عبادة ومعاملة.. فى ظل هذه الدولة تكفل الحريات وتمارس الأمة حقها فى جو من الألفة والأمان.. والتعاون والسلام.

٨ ـ حماية الدولة من المنشقين عليها.. إن الإسلام وقد كفل للفرد حريته ووضع له الضمانات التى تحافظ على كيانه وتسمو بروحه ونهى عن الاعتداء على الفرد بأى لون من ألوان الاعتداءات الغرض من ذلك أن ينطلق الإنسان إلى الآفاق الواسعة ليبلغ كماله ويحصل على ارتقائه المقدر له فى ظل كيان اجتماعى سليم.. علمًا بأن أى تفويت أو تنقيص لحق من حقوق الإسلام يعتبر جريمة من الجرائم.. إن الإسلام وقد وضع هذه الضوابط فإنه طالب الفرد أن يعمل على حماية السلطة الشرعية القائمة من أى منشق فى خارج البلاد يسيىء إلى المجتمع ويلوث سمعته ويقول فيه ما ليس فيه.. كذلك طالب الإسلام الإنسان أن يحمى السلطة من أى إنسان متمرد داخل المجتمع يدعو إلى زعزعة الثقة فى السلطة أو ترويج إشاعات عليها حتى ولو برسم الكاريكاتير أو النكت، فإن هذه أمور لا يُستهان بها فإن معظم النار من مستصغر الشرر.. ذلكم لأن الأصل فى العلاقات والروابط التى تربط بين أفراد القاعدة الشعبية.. هى رباط دينى.. وحب الوطن من الإيمان.. لذلك إذا ظهر متمرد يدعو إلى اجتماعات سرية لبث أفكار متطرفة أو توزيع منشورات تحمل أفكارًا تُسيىء إلى الدولة أو يغرس فى نفوس مستمعيه وقارئى المنشورات أنه يريد مقاومة السلطة، هنا نقول لكل مسلم.. لا تسمع لهذا الهراء.. ولا تستمع إلى تلك الإشاعات.. ولا تروج النكت ولا الكاريكاتير.. واعلم بأنك على ثغر من ثغور الإسلام فاحذر أن يؤتى الإسلام من قبلك.. وأنت فى موقع عملك.. وأنت فى بيئتك الاجتماعية.. فعليك أن توجه الناس برفق ولين وحكمة إلى أنّ الذين يريدون الخروج على السلطة الحاكمة هؤلاء هم أصابع أعداء الأمة عندهم ضعف فى الدين وانحطاط فى الخلق وتخلف فى العلم وهؤلاء بغاة علينا أن نقاتلهم.. لأن الفتنة أشد من القتل وقد أمرنا الله بقتال البغاة حيث قال الحق سبحانه: **﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾** [الحجرات: ٩]، وقد قال الفقهاء بأن أموالهم لا تُصادر وأن نساءهم وأطفالهم لا تُسبى وأن جريحهم لا يقتل وأن من قتل منهم غُسِّل وكُفِّن وصُلِّيَ عليه.. هذا حكم شأن البغاة وحكم الله فيهم.. لأن الإسلام يعمل على تحقيق

إيجاد مجتمع متماسك له كيان قوى يستطيع مواجهة الأحداث ورد عدوان المعتدين. . ولهذا قال الحق سبحانه: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، ويقول سبحانه: ﴿وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُم وَكَانُوا شِيَعًا﴾ [الروم: ٣١، ٣٢].

فضل الجهاد

تحتاج الدولة إلى حمايتها من الداخل ومن الخارج. . ففى الداخل نسميهم (رجال الأمن) وهم الذين يسهرون على حماية الناس. . يتعقبون المجرمين ويمسكون بالمفسدين ويحولون بين هؤلاء وبين تنفيذ خططهم الإجرامية. . هؤلاء الناس الذين يحافظون على العرض والشرف ويعملون على ضبط الشارع وحماية الأسواق ومنع التجار من العبث بالمكاييل والموازين والمقاييس ويحمون المستهلك من الغش التجارى ويمنعون طرح الأشياء الفاسدة فى الأسواق. . هؤلاء الناس . . مجاهدون فى سبيل الله. . لأن حراسة المجتمع من الداخل أمر مهم جدًا، وقد قال رسول الله ﷺ: «كل عين باكية يوم القيامة إلاَّ ثلاثة أعين عين بكت من خشية الله، وعين غضَّت عن محارم الله، وعين سهرت فى طاعة الله» فالعين السهرانة فى حماية البلد وحماية منشآتها وتأمين الناس من أى فزع وإغاثة المكروب والملهوف أمر عظيم جدًا ولقد ثبت أن رسول الله ﷺ اتخذ لنفسه حراسًا وكذلك كان الحال مع خلفائه. . فقد كان من خواص حرّاس رسول الله ﷺ (عبد الله بن مسعود) الذى كان لا يفارق النبى ﷺ إلاّ عند النوم كما هناك (الضحاك) بن سفيان بن كعب الذى لقبوه بسياف رسول الله ﷺ. . كما كان هناك من يمشى خلفه فى معظم الأوقات وهو (جبلة بن عامر) إلى غير ذلك كثير ممن عرفوا بحراسة رسول الله ﷺ. . ورجل الشرطة فى عصرنا هذا لو أنه أخلص لله فى عمله وأدى واجبه بدقة وأمانة ونزاهة وسعة أفق لأصبح فى منزلة المتقين أحسن بكثير من غيره.

ولقد قال أحد الشعراء من المجاهدين فى سبيل الله:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمت أنك بالعبادة تلعب

من كان يخضب خده بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تتخضب

ريح العبير لكم ونحن عبيرنا ... وهج السنابك والغبار الأطيب

فإذا كان الإسلام أعلى شأن حراس الجبهة الداخلية ومنحهم وسام الاستحقاق بأن

أعينهم لن تبكى يوم القيامة لأنها باتت تحـرص فى سبيل الله فهناك كذلك (حراس الحدود) الذين يحمون البـلاد من تآمر الأعداء ويصدون كل معتد أثيم وهؤلاء مـا داموا يعملون فى مواقعهم بهمة عالية وكفاءة متميزة وبتوجيه السلطة الحاكمة فإن عملهم هو إعلاء لكلمة الله لأن هذا جهـاد فى سبيل الله. . والجندى الشـجاع المنضبط عـلى قيم جنديته والذى يسـهر لحمـاية بلده ويحمل السلاح دائمًا يتـدرب عليه ويطور نفسه ويـبتكر فى أسلوب استعـمال الأسلحة ويحصل على كل جـديد فهو مجاهد فى سبيـل الله. . فعن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال: «ألا أخبركم بخير الناس؟ رجل ممسك بعنان فرسه فى سبيل الله» والفرس يومها يعادل الدبابة أو الطيـارة فى هذه الأيام. . وصدق رسول الله ﷺ: «رهبانية أمتى الجهاد فى سبيل الله» وفى ذلك من التضحية بالنفس والمال وبيعهما لله ما هو إلاّ ثمرة من ثمرات الحب الإنسانى والإيمان بالله القوى والاعتماد عليه سبحانه، وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

وواجب الجنود بالنسبة لقائدهم الطاعة فى غير معـصية فقد روى البخارى ومسلم: «من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله ومن يطع الأمير فقد أطاعنى ومن يعصى الأمير فقد عصانى».

إن الإسـلام يهتم بدعـوة المجتـمع الدولى إلى الدخـول فى الإسلام لأنه دين الأخـوة الشاملة والتعاون الدائم الذى نادى بتطبيق العدل وأمر بالإحسان ووجه إلى التعاون على البر والتقوى ونظـم المواريث ووضع الحقوق كاملة ووضع قـواعد تشريعية تـتلاءم مع كل زمان ومكان. . حافظ على الكيـان الأسرى ووضع من الضوابط ما تُصان به الأسـر ولا تتعرض للهزَّات ولما كـان الإنسان بشر والإسلام يتعـامل معه على هذا الأساس فـإنه راعى حدوث الخلاف والشقـاق بين الزوجين فوضع من القواعد التشـريعية ما يضمن لكل فـرد حقه عند النزاع والخلاف. . وليـس هناك على وجه الأرض دين أو نظام. . أو مـذهب أو تشريع. . يخدم قضية السلام ويخـدم قضية العدل ويعمل على حماية الفرد وحـماية المجتمع مثل ما هو الحال فى الإسـلام لأنه الدين الخالد العالمى وهو مـعجزة النبى مـحمد ﷺ الباقـية لأن المعـجزة هى الـقرآن الذى شـرح الإسـلام وفصَّله لأن القـرآن جـامعـة من القـول والعلم والقصص والأخلاق والتشريع والآداب، وهذا القرآن يعتـرف بجهد الأنبياء السابقين ويدافع

عن رسالتهم ثم إن الحقائق التى تضمنها هذا القرآن ينضبط بها السلوك الإنسانى ويحمى الضمائر فلا تحيد عن الحق لأن الإسلام يجعل من المؤمنين قوة أمن ذاتية تقوم على حراسة الحق وحماية العدل، حيث أرشد الحق سبحانه فى سورة البقرة: **﴿وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾**، إن الإنسانية التى أمرها الإسلام أن تتعارف وتتعاون لتصون الحق وتحمى حرية الإنسان وكرامته وتقيم المجتمع الفاضل الذى يرفع راية السلام.. السلام الذى تنطق به الألسنة وتردده القلوب ثم يكون من وراء ذلك نشر الأمن والكفاية والعدل.. فإذا نهض أتباع محمد ﷺ وأفاقوا من ثباتهم العميق وتداركوا الأمر ونظموا أنفسهم وأخلصوا لله فسيرجع لهم عزهم السالف وتاريخهم المجيد ويصبحوا فى دنيا الناس وهم يتبوءون مكانهم اللائق بهم وبمجدهم الذى عاد إليهم مع إيماننا بقول الله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾** [الرعد: ١١].

إن المشكلة اليوم مشكلة أخلاق حيث دَبَّ صراع بين الإنسان ونفسه لأن السلام ينبع أولاً من ضمير الفرد ومن معرفته لنفسه التى يجب أن تحيا فى طهارة ويتعفف عما فى يد الناس ويقيم الشخص فى نفسه وقاية صادقة من وحى الإيمان ويقظة الضمير.. فالسلام سلام نفوس والإيمان إيمان قلوب وليست المشكلة نقصان مال.. لأن المال لا يمكن أن يوفر للنفس أمنها وسلامها.. إن السلام الذى ننادى به هو سلام العدل والإخاء.. سلام البر والرحمة.. سلام الصدق والأمانة.. سلام الوفاء والتعاون.. سلام فيه صلة الرحم والمروءة.. سلام التعارف والتعاون.. إننا لا نقلل من أهمية المال ولكننا نقول.. إذا قام السلام فى النفس والعدل فى المجتمع تهيأ لكل فرد أسباب الحركة والعمل والإنتاج ونؤكد بأن الإسلام لا يفصل مطلقًا بين عمل الدنيا وعمل الآخرة لأن الإسلام يركز على الاثنين **﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾** [القصص: ٧٧].. وفى الأثر «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا».. لقد انتشر الإسلام فى العالم وشعَّ نوره فى قارات الأرض لكن هناك من يشوهون الإسلام وقد يكونون من أبنائه.. فعلى المسلمين أن يقوموا قومة رجل واحد وأن يجعلوا أعمالهم تتفق مع أقوالهم لأن الإسلام فى مقدوره أن يرد الناس إلى الحق وأن يبصرهم بالصواب وأن يصحح أخطاءهم إذا عادوا إليه بصدق وحكّموه فيما شجر بينهم لأنه كلما اقتربت النفوس من هذا الدين وتمسكت به استطاعت أن تتغلب على شهوات النفس وأن تذيب سطوة المنفعة الذاتية لأنه من رحمة الله بعباده أن السماء ضمنت حفظ الحق وحراسته

ليظل شاهدًا على الخلق قائمًا بينهم. . وكفى أن تضمن السماء للأرض حفظ الحق لأن ذلك يؤدى إلى أسباب السعادة. . وعلى الإنسانية بمحض إرادتها أن تتمسك بالحق وتدافع عنه عندئذ تسدد السماء خطاهم وتهيىء لهم من أمرهم رشدًا وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

لقد سمعنا من فم الصديق رضى الله عنه وهو يلقى أول بيان له بعد أن تولى الخلافة يقول: (. . فإن رأيتمونى على حق فأعينونى وإن رأيتمونى على باطل فقومونى. .) والتجربة قائمة بين أيدينا على مر الدهور تُبيّن لنا أن الإسلام بحقائقه الزاخرة وما فيه من قيم ومبادئ وآداب ومثل إن اقتربت الإنسانية من هذه الحقائق عصمها من التردى فى مهاوى الفساد والظلم وبمقدار قربها أو بعدها من هذه الحقائق يكون الأمن والسلم أو الحرب والدمار. . إن رسالة الإسلام تعلن تآخيها مع الكون وتطلب الإيمان بالله عن طريق التأمل فى هذا الكون ليكون عمل الإنسان للدين والدنيا فى الحقل والمعمل فى الشارع والمسجد فى كل مكان لأن الإسلام يوجب على المسلمين أن يكونوا أقوياء أعزاء. . لأن الإسلام يخرج الناس من الظلمات إلى النور ومن الجهل إلى العلم ويهدى الإنسانية التائهة إلى سبيل الرشاد والسلام وإلى الصراط المستقيم: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦]. . إن الحق واضح لا لبس فيه ولا غموض وأنه ليس بعد الحق إلاّ الضلال. . وإذا كانت قد غشيتنا ظلمات بعضها فوق بعض يوم أن أدرنا ظهورنا للإسلام وتعلقت أبصارنا بالمذاهب الأوربية وروجنا كتب (جان جاك روسو) و (كارل ماركس) وغيرهم ودخلنا فى متاهة ما بين رأس مالية واشتراكية وشيوعية وتركنا كتاب الله فضاع الحق. . والآن جربنا كل هذه الأمور وراجت لدينا كل مقومات العفن من مجلات تدعو إلى الجنس وتصور العرى وتسمّى قيادات هذا العمل (نجوم) يقولون النجم الفلانى قال. . والنجمة الفلانية قالت. . وهذا خطأ فاحش لأن النجم هو الذى يُنير الطريق لغيره بأعماله العظيمة ومهاراته المؤسسة على الخلق والفضيلة. . ومن هنا سُمّى أصحاب رسول الله ﷺ نجوم وقال عنهم الصادق الأمين: «أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم» لكن ماذا نفعل وقد بلغ الجهل من بعض المسلمين أنه يُسمّى الأشياء بغير حقيقتها. . وإن التبعية تقع على العلماء ورجال الإعلام لأن عليهم أن يصححوا للناس أخطاءهم وأن يبينوا لهم طريق الحق لأنه كما يقول ربنا ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢].

وعلى الذين يريدون أن يفصلوا بين الدين والدولة أن يعلموا أن أحكام الإسلام لا تتجزأ ولا تقبل الانفصال عن بعضها وأن نصوصه تمنع من العمل ببعضها دون البعض الآخر لقول الله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

إن الأمية الدينية التى تفشت فى المجتمع وبين المثقفين كذلك فإن العلماء عليهم واجب التنبيه وتصحيح الأفكار السائدة لأن الناس قلبوا الحقائق وغيروا مفهوم الألفاظ ومدلول الكلمات.. وإن العلم ينبع من الثقافة العامة.. لذلك فإن الدولة مسئولة.. ومسئوليتها خطيرة جدًا.. لأن واجبها يقتضى أن تنشر الثقافة الدينية فى مقررات التربية والتعليم.. بدءًا من الحضانة ونهاية بدراسة الدكتوراه وأن تكون هناك مادة تسمى(الثقافة الإسلامية) وتعتمد هذه الدراسة على المعلومات الصحيحة من قيم الإسلام وآدابه ومنهجه وتشريعاته.. فى نفس الوقت أجهزة الإعلام فى الدولة هى المسئولة عنها.. على الدولة أن تنبه بأنه عند وضع الخريطة العامة للبث الإذاعى أو التلفزيونى أن تراعى آداب المجتمع وتقاليده وقيم دينه والأصول العامة فى مفهوم هذا الدين لأن وسائل الإعلام دخلت البيوت واحتلت أماكن الصدارة فى كل بيت.. والدولة مسئولة عن تثقيف الشعب وغرس القيم الأخلاقية فيه.. كذلك مؤسسات الصحف وإصدار الكتب لابد أن تكون هناك رقابة شديدة.. ليست لمصادرة الحريات ولا قصف الأقلام وإنما لتهذيب الكلمة.. ونشر الحقائق دون مغالطة وعدم إثارة البلبلة بنشر ما نسميه الإبداع الفنى وهو شىء يسيىء إلى الذوق العام ويقلب الحقائق ويغير المفاهيم.. إن الدولة مسئولة عن حماية الشعب وحماية معتقداته.. ثم حماية المظلومين فى المجتمع الذين تُرفع عليهم قضايا ويسير القضاء ببطء ويمضى عشر سنوات أو أكثر على القضية وهى تُتَداول من محكمة إلى محكمة والبطء فى القضاء هو الظلم بعينه وهنا تكون مسئولية الدولة.. الأمر الذى يجعلنا نقول.. كما أن الفرد مطلوب منه حماية الدولة.. فالدولة عليها كذلك حماية الفرد.. لأن الفرد إذا شعر بالضياع قلب الموازين وعمل من جانبه على نشر الفوضى وقال علىَّ وعلى أعدائى.. يومها لا تنفع الموعظة.. ولا ينفع الندم.. لذلك كانت الحقوق مشتركة ويجب رعايتها.. وجانب الدولة أهم وأعم وأشمل.

* * *



من هذا الاستعراض لتكمل النقاط يتبين لنا بجلاء أن الإسلام يفرض على المسلمين.. إقامة دولة.. تفرض الحق وتحميه.. وتنادى بالعدل وتطبقه وأن يكون لهذه الدولة إمام واحد يختار من بينهم.. ويلتزمون طاعته.. ومن خرج عليه وأراد أن ينازعه.. ويكون غرضه تمزيق وحدة الأمة فإن الإسلام يوجب قتل من ينازع الإمام ويعمل على تصدع الجبهة الداخلية.. وحماية الدولة أمر واجب ومطلوب.. وأن الأمر بين المسلمين شورى فليس هناك استبداد بالرأى ولا حكم فرد متجبر فقد قال الشاعر:

حكم الجماعة لا تشقى البلاد به   وحكم الفرد يشقيها

وكما يقول الآخر: «الأمر شورى والخلافة بيعة».

والإسلام يجعل المساواة بين الناس فريضة والعدالة بين الناس جميعًا دعامة من دعائمه ثم أعلن الإسلام الحرب على الظلم والاستبداد وعلماء السوء.. الذين ينتسبون إلى العلم وهو منهم براء.. لأنهم يقولون ما لا يعلمون.. ويفتون على غير علم ويوقعون الناس فى حيرة وبلبلة وتشتت فى الرأى وعدم معرفة الصواب.. لذلك فإن الإسلام وهو ينادى على الناس جميعًا ﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾ [آل عمران: ٦٤] نترك الحاكم يخطط ونساعده نحن بالعمل الجاد والحركة المتأنية.. والفهم الواضح لقضايا المجتمع.. والرجوع فى كل قضية إلى أهل الاختصاص لأنهم أقدر الناس على التوضيح.. ومع إيماننا بأن الإسلام دين ودولة.. منصة حكم وساحة مسجد.. فإن علينا أن نشارك فى صنع القرار عندما نسهم فى الإدلاء بأصواتنا لاختيار من يمثل الشعب وينوب عن الأمة فى مجلس الشعب وأن يكون الاختيار لأصلح العناصر ومن يتميز بالطهارة وله إسهامات فى العمل الاجتماعى.. لأن هذا هو الذى سوف يصنع لك القرار فلابد أن يكون صاحب دين وخلق وأن يكون عفيف النفس معروفًا بين الناس لأن له بينهم تواجدًا وحضورًا.. والدولة من خلال مؤسساتها الأمنية والعسكرية أمينة على كل مرافق المجتمع تحمى العدالة.. وتصون الحقوق.. ولا تقدم شخصًا على آخر إلا بالكفاءة والقدرة على الابتكار فى أساليب العمل.. وأن الشخص المختار لا ترتعش يده وهو يتخذ أى قرار للنهوض بالعمل الذى أسند إليه.. إن الأمة مسئولة أمام ربها.. كما أن الحكام مسئولون كذلك عن حسن

الاختيار. . لأنه ثبت أن المجتمعات لا تتأخر إلاّ إذا أسندت المناصب إلى غير الكفاءات لأنه فى هذا الجو. . يسود الجهل. . وتنتشر الرشوة. . ويعم الفساد. . وتضيع الحقيقة. . وأمة هذا شأنها. . أقم عليها مأتمًا وعويلا.

إن على المسلمين أن يتورعوا عن أن يقرنوا عمل الناس وأقوالهم ثم يلصقون هذا العمل وهذا القول بدين الله فتجدهم مثلاً يقولون. . اشتراكية الإسلام. . شيوعية الإسلام. . ديمقراطية الإسلام. . الإرهاب الدينى. . الجهل الدينى. . دا ربك يعطى الحلق للى بلا ودان. . دا فلان تور الله فى برسيمه. . دا فلان بياكل رز مع الملايكة. . دا فلان ربنا افتكره. . وهذا كله خطأ فى التعبير وجهل بالقول بل منها كلمات تؤدى إلى الكفر. . وتفسد العقيدة. . لهذا فإننا نرى أن الجهل الذى بلغ مداه عن بعض المسلمين. . بلا شك ظلم للإسلام الذى يبرأ من هذه الأشياء كذلك الذين يمتنعون عن الإدلاء بأصواتهم فى الانتخابات بحجة. . أن الحكومة هتجيب اللى هيّه عاوزاه ويتخذون ذلك وسيلة وتكأة لعدم مشاركتهم فى الانتخابات نقول لهم أخطأتم لأن الواجب يحتم عليكم أن تشاركوا وأن تسهموا وأن تعلنوا بلسان عال لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا تُسألون عن أعمالنا ولا نُسأل عن أعمالكم كما قال ربنا: ﴿قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٥، ٢٦].

إن المسلم عليه أن يعمل وأن يشارك وأن يدلى بصوته حتى ولو لم تحصل النتيجة التى يعرفها وشعاره: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ * وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ * وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢١ ـ ١٢٣].

تلك هى مقومات الحياة التى دعا الإسلام إليها (اعقلها وتوكل) نعمل ونجتهد ونشارك فى العمل ونخدم ديننا ونحافظ على كيان المجتمع. . ولا نيأس من الإصلاح. . عندنا أمل فى غد مشرق تشرق فيه شمس الإسلام. . ويدخل الناس فى دين الله أفواجًا يوم أن يروا أمة مثالية تتجسد فى هذه الأمة قيم الإسلام وسماحته. . المروءة دأبهم والشجاعة خلقهم. . والحلم سلاحهم. . والصبر ديدنهم يُعلمون الناس ولا يَملُّون لا يسأمون من دعاء الخير. . وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا. . إن دعاءنا إلى الله سبحانه أن يَمُنَّ علينا لنعيش فى مجتمع الإسلام الذى يوفر الكرامة لكل شخص ويحمى حقوق الناس ويرفع راية الحق

وبهذا المجتمع يفرح المؤمنون بنصر الله لكن الخوف أن يستمر الحال على ما هو عليه ولا نجد الرجال الأقوياء وساعتها نعلن على الدنيا يا قوم سارعوا إلى مغفرة من ربكم. . ولا تتولوا فيبدل الله قومًا غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم. . وهذا ما تم فى كل المجتمعات التى شاع فيها الظلم والفساد. . والتاريخ أكبر شاهد وكفى بربك شهيدًا.

فإلى الله وحده نرفع أكف الضراعة سائلين الله أن يهيئ لنا من أمرنا رشدًا مرددين قول نبينا ﷺ: «اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون».

إن الحق سبحانه وتعالى دمَّر البلاد التى شاع فيها الظلم والاستبداد وأهلك أهلها. . ولم يفعل ذلك ظلمًا وإنما القاعدة الدينية ﴿**وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ**﴾ [هود: ١٠٢]، والتاريخ يؤكد أن الدولة إذا انتشر فيها الظلم وغاب العدل فإن الله سبحانه وتعالى يهلك هذا المجتمع ويأت بمجتمع آخر.

ولقد قال لنا ربنا ليرشدنا إلى تلك الحقيقة: ﴿**وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ**﴾ [الفجر: ١٠ ـ ١٤]، وعدالة السماء تقتضى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ [الرعد: ١١].

كما قد قال لنا ربنا: ﴿**وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ**﴾ [محمد: ٣٨]، الأمر إذًا واضح صريح. . المسئولية فى تدعيم قيم الحق ونشر العدل وإشاعة الأمن ونشر السلام والعمل بجد وابتكار والانضباط على قيم التعاون والمروءة والحياء. . وكل ما من شأنه يسمو بالمجتمع ويرقى به. . أمور مشتركة. . بين الفرد والدولة. . لأن الفرد إذا كان هو اللبنة الأولى فى صرح المجتمع وبنيانه فإن الدولة مسئولة عن حماية هذا البنيان وعدم تصدعه. . والدولة تدرك أن اللبنة إذا تصدعت وتحطمت من داخلها فلم تصلح أبدًا لإقامة بنيان يسر الناظرين. .

فهل لنا أن نعلم ذلك. . إن صلاح المجتمع بصلاح أفراده. . وإن صلاح الفرد لن يكون إلاّ من خلال الدين ومفاهيمه والإسلام وتشريعه والقرآن وتوجيهه والسنة النبوية القولية والفعلية والتقريرية. . ثم لابد من القيادة الطبيعية التى تكون قدوة صالحة فى سيرتها الذاتية. . وأهم قدوة للجماهير. . الحاكم ومعاونوه من الوزراء. . والهيئة التشريعية بشقيها. . شعب. . وشورى. . والهيئة القضائية. . وحماة البلد من أمن وجيش. . هؤلاء

هم القيادات فلابد أن يكونوا قدوة فى الطهارة ونظافة اليد وإحقاق الحق وتطبيق العدل دون محسوبية لأحد أو مجاملة لشخص.. إذا تم ذلك.. فإننا نرفع رايات الحب وننشر أعلام السلام وننادى بأعلى أصواتنا.. حى على الفلاح، ويومها يتحقق النصر الذى وعده الله لأنبيائه وللمؤمنين: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [غافر: ٥١]، يقول الناس متى هذا: ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٥١]، وما ذلك على الله بعزيز.. لأنه إذا قام كل فرد بأداء الواجب المنوط به وأخذ حقه المحدد له.. ساعتها تعيش الجماعة فى أمن وهدوء واستقرار.. ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾.

والله الموفق.. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه..

❖ ❖ ❖

فهرس المحتويات

الموضـــــوع	صفحة

الموضـــــوع	صفحة

الباب الثالث : تشريع الله للإنسانية

الموضوع	صفحة

الباب الرابع : نظرة الإسلام إلى الدولة

الموضـــــــوع	صفحة

الباب الخامس : النظم والتنظيم

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطى شبرا القاهرة
الرقم البريدى — ١١٢٣١